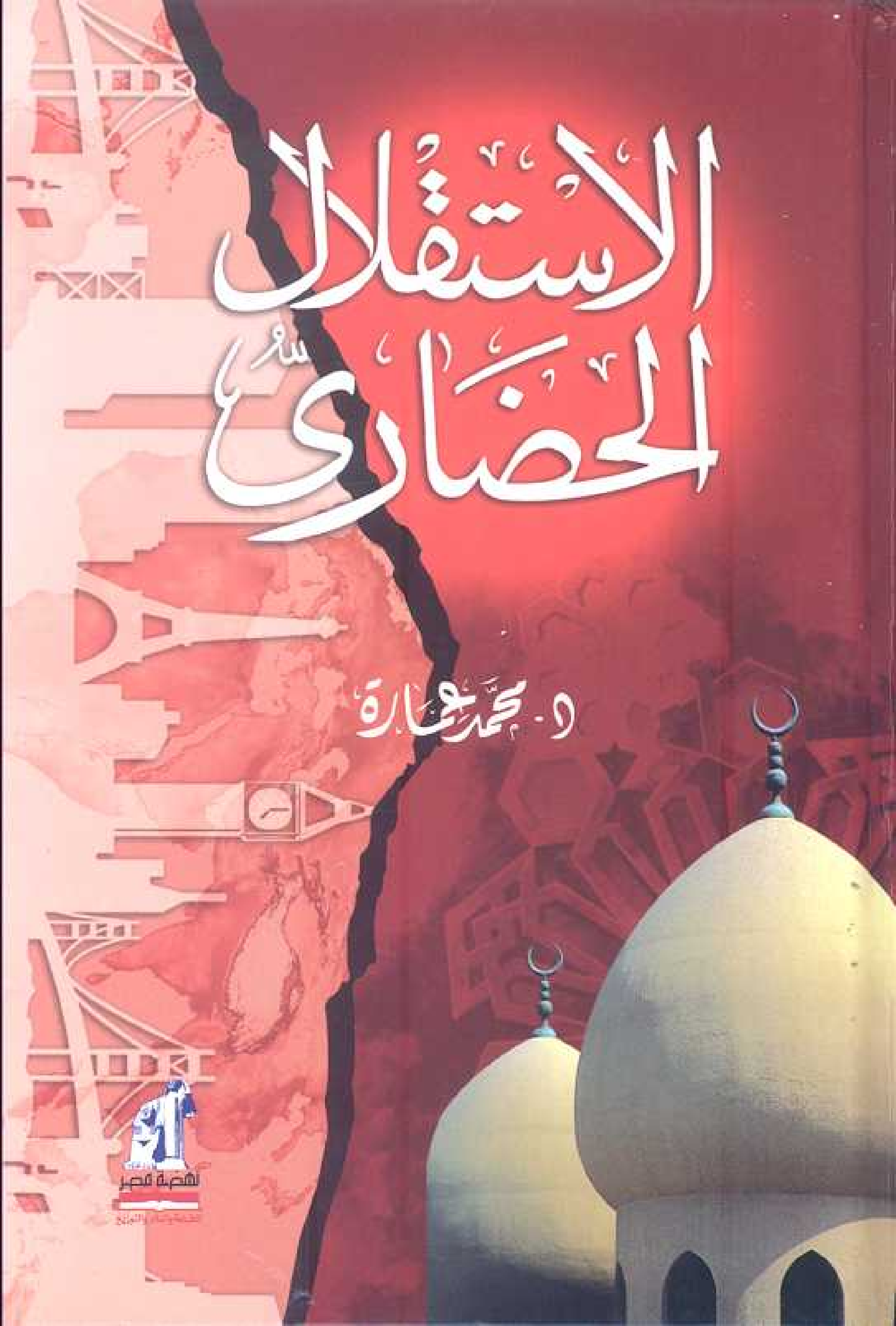

الاستقلال الحضاري
د. محمد عمارة
نهضة مصر

الاستقلال الحضاري

تأليف

د . محمد عمارة



اسم الكتاب: الاستقلال الحضارى.
المؤلف: د. محمد عمارة.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة الأولى - يناير 2007م.
رقم الإيداع: 2006 / 22873
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-3830-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

كلمـــة

[إن المقلدين للتمدن الغربى إنما يُشَوِّهونَ وجه الأمة، ويُضَيِّعون ثروتها، ويَحُطُّون من شأنها.

إنهم المنافذ لجيوش الغزاة، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب!!].

جمال الدين الأفغانى

كلمـــات

قديم هو ذلك الصراع بين أمتنا وبين الغرب الاستعمارى.

■ فالقهر البيزنطى حلقة قديمة فى سلسلته.

* * *

■ والحروب الصليبية قد مثلت حلقته الوسيطة..

■ والغزوة الاستعمارية الحديثة هى ذروة هذا التحدى التاريخى والحضارى الذى استهدف -ولا يزال- كيان أمتنا وذاتيتها وإمكاناتها..

■ وربيب هذه الغزوة الحديثة: الكيان العنصرى الصهيونى.. هو الشريك الأصغر فى التحدى المعاصر الذى هو امتداد لهذا الصراع القديم!!

* * *

ولقد تميزت المراحل القديمة فى هذا الصراع الحضارى بوضوح الرؤية لدى أمتنا إزاء هذا الغرب الاستعمارى الذى ما فتئ يقذفنا بحملات الغزو ومحاولات الإبادة وموجات النهب والاحتواء.

لكن الأمر لم يعد كذلك فى ظروف صراع أمتنا ضد الغزوة الاستعمارية الحديثة، لا لخفاء أهدافها وغموض نواياها، وإنما لما حملت معها من «فكر» كانت أمتنا فى حاجة إلى كثير منه كى تنهض وتعوض ما فاتها فى حقب الجمود والتخلف التى حكمها فيها وتحكم فرسان المماليك وسلاطين آل عثمان.. ولما تضمنه هذا «الفكر» من جوانب مثلت «عوامل استلاب» حاول بها الغرب الاستعمارى -ولا يزال- احتواء أمتنا، وطمس معالم تمايزها واستقلالها، وتشويه معرفتها بذاتيتها.. وصولاً إلى تجريدها من طاقات الثورة فى سبيل النهضة والاستقلال!

ولذلك وجدنا -ونجد- «الموقف من الغرب».. قضية من قضايانا الفكرية الخلافية.. على عكس ما كان عليه موقف أسلافنا الذين واجهوا هذا الغرب تحت أعلام الفتوحات العربية الإسلامية.. ومن خلف أبطالنا القوميين الذين مثل نموذجهم: الناصر صلاح الدين الأيوبى.. واجهوه بتمايز كامل وواضح فى المواقع والمواقف، بلغ مرتبة تمايز «الكفر» عن «الإيمان».

بل إن خلاف حركتنا الفكرية حول الموقف من الحضارة الغربية كاد أن يصبح ثغرة عظمى تجعل بأس مفكرينا ومثقفينا بينهم شديدًا، الأمر الذى يصيب طاقاتنا الفكرية بنزيف يسلم إلى الضعف والهزال! فبينما نجد:

■ «سلفية نصوصية» تسعى إلى معاكسة قوانين التطور، التى هى سنة من سنن الله فى الكون والمجتمع، وتجاهد لصب الحاضر والمستقبل فى القوالب التى صنعها «سلفها الصالح» فى عصور الجمود والتخلف تحت حكم المماليك وتحكم العثمانيين!!

■ نجد «سلفية نصوصية» «متغربة».. تسعى هى كذلك لصب حاضرنا ومستقبلنا فى القوالب التى صنعها «السلف الغربى».. بدءًا من اليونان القدماء، وحتى نهضة الأوربيين المحدثين!

وإذا كان الخيار الأول سيقودنا إلى «انغلاق» يقف بأمتنا عند «التخلف الموروث» الأمر الذى سيعجزها عن تقديم البديل وإبداع المشروع الحضارى الكافل لنهضتها وإفلاتها من قبضة الهيمنة الغربية.. فإن الخيار الثانى سيقود الأمة إلى «التبعية» للمركز الحضارى الغربى، وهى تبعية يسعى إليها الغرب ويسمح بها شريطة ألا تتعدى إطار سلبيات وأمراض نموذجه الحضارى، الذى كاد أن يبلغ نهاية الطريق المسدود!

ولأننا نرفض الاستسلام لأى من هذين الخيارين.. كانت صفحات هذا الكتاب الساعى إلى التبشير بطريق ثالث ومتميز فى هذا الصراع الدائر حول الموقف من الحضارة الغربية.

■ طريق التميز – فى موروثنا – بين «الثوابت» وبين «المتغيرات».

■ طريق النضال من أجل الحفاظ على نقاء الهُويّة الحضارية للأمة، فى وجه محاولات المسخ والنسخ والتشويه الذى تمارسه فكرية «التغريب» وتيار «المتغربين».

■ طريق فتح نوافذ العقل على مختلف الحضارات، من موقع الراشد المستقل، الباحث عن عوامل القوة، يدعم بها ذاتيته المتميزة ونهضته الحضارية المستقلة.. والرافض لكل عوامل الاستلاب لشخصيته القومية وللسمات التى ميزت حضارة أمته عبر قرون تاريخها الطويل والمجيد.

تلك هى الرسالة التى تحاول الوفاء بها صفحات هذا الكتاب عندما تعالج هذه القضية المحورية من خلال دراسات ثلاث، تمثل أقسامًا ثلاثة فى هذا الكتاب:

١- الاستقلال الحضارى.. وماذا يعنى فى النهضة المنشودة لامتنا..؟

٢- العلاقة بين «موروثنا» العربى الإسلامى وبين «الوافد» العربى.

٣-نموذج تطبيقى لهذه العلاقة، من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية [الأزهر] موقفه من «التغريب».

فإذا نهضت هذه الصفحات برسالتها، فحملت ما قصدنا إليه إلى الباحثين والقراء كانت سعادة الكاتب الذى يحمل هموم أمته، ويناضل لتنوير طلائعها بمخاطر التحديات التى يفرضها عليها أعداؤها الكثيرون!

والله من وراء القصد.. وهو ولى التوفيق.

د. محمد عمارة

١

الاستقلال الحضارى

... مقدمات تمهيدية ...

منذ بدء الهجمة الاستعمارية الحديثة على ديار العروبة والإسلام، وضحت نوايا وأهداف هذه الموجة من موجات التحدي، وتميزت عن غيرها من الموجات التى ابتليت بها أمتنا عبر تاريخها الطويل..

فهى لا تبغى فقط السيطرة على طرق التجارة الدولية.. ولا تقنع بالنهب الاقتصادى الاستعمارى.. ولا تكتفى بتفتيت وطن أمتنا، لتحول دون وحدتها، فقوتها، فنهوضها.. ولا تقف أطماعها عند تحويل شرقنا العربى والإسلامى إلى «هامش أمن» للغرب الأوربى..

لا تكتفى هذه الهجمة الاستعمارية بكل ذلك.. بل إنها فى سبيل تأبيد جميع ذلك وتأبيده وتكريسه، سعت وتسعى إلى سحق شخصيتنا القومية الخاصة، ومسخ هويتنا الحضارية المتميزة، والحيلولة بين أمتنا وبين استعادة قسمات استقلالها الحضارى المفقود.. ورأت فى تحويلنا إلى «هامش حضارى» للغرب الضمان لبقائنا «هامشا» له فى الأمن والاقتصاد!

ومن هنا، وبسبب هذه الأهداف الاستعمارية تنوعت أسلحة الصراع، وتعددت ميادينه، فشملت ساحات: «الفكر» و«المادة»..

وخاصه: «المفكرون» و«العامة».. واستنفر «العلماء» و«الجند».. واحتاج إلى «القلم» و«السيف» عبر تاريخه الطويل!

ولقد استعان الاستعمار، فى صراعه مع أمتنا على الجبهة الحضارية، بعوامل كثيرة تدخل فى عداد «حيل الخداع والتمويه» النابعة من «غرور المنتصرين واستعلائهم على المهزومين»!

فهو قد جاء إلى بلادنا فعاجل الصحوة التى حاولنا بها الإفلات من ظلام العصر «المملوكى – العثمانى» وقيوده، واليقظة من سبات ليله البهيم والطويل.. صحوة النهضة المصرية التى قادها، بمصر والشرق، محمد على باشا الكبير [١١٨٤ – ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ – ١٨٤٩م].. وصحوة الثورة العرابية [١٢٩٨ – ١٢٩٩هـ = ١٨٨١ – ١٨٨٢م] التى طمحت إلى محو آثار الهجمة الاستعمارية على نهضة محمد على بعد سنة ١٨٤٠م!

وكانت حركة الاستشراق، فى مجملها وأغلبيتها، طليعة هذا الزحف الاستعمارى على جبهتنا الحضارية العربية الإسلامية.. وكانت هذه الحركة الاستشراقية أعلم منا، يومئذ، بتراثنا الحضارى، فألحت على عقل أمتنا ووجدانها بالمقولة التى تزعم أننا أمة غير متميزة حضاريًا، فتراثنا العربى – كما قالت – فقير فى الخَلْق والإضافة والإبداع، وعقلنا العربى عاجز عن التفلسف والفكر المركب، وليس لأسلافنا غير فضل النقل والحفظ لتراث اليونان، والمحاكاة لتراث الفرس والهنود!

ولم يكن هدف هذه المقولة الاستشراقية هو فقط تثبيط الهمة وفل العزيمة، وخفض الهامة، وكسر العود، وإذلال النفس العربية الإسلامية.. بل كان الهدف أبعد من ذلك وأكثر وأخطر.. كان الهدف: استخدام كل ذلك للوصول إلى مقولة ثانية تزعم أن التمايز الحضارى، ومن ثم الاستقلال الحضارى هو فى الأساس ومن حيث المبدأ مجرد أكذوبة، لم يعرفها التراث ولم يشهدها التاريخ، ومن ثم فلا جدوى من جعله هدفًا لنضالات الحاضر والمستقبل.. فالحضارة واحدة.. وهذه الحضارة الواحدة هى الحضارة «الإنسانية».. كانت قديمًا يونانية.. ثم «نقلها» العرب والمسلمون إلى الأوربيين الذين أسسوا عليها حضارتهم الحديثة التى هى حضارة العصر «الإنسانية» الوحيدة.. فأوربا هى «المركز».. كانت كذلك قديمًا وأيضًا فى الحديث.

ومن ثم.. فما على الذين يريدون أن «يتحضروا» إلا السعى إلى اللحاق بهذه الحضارة الأوربية الغربية: بجعل «عقلهم» و«واقعهم» امتدادًا «لعقل» أوربا و«واقعها».. وباختصار، جعل بلادهم قطعة من أوربا- كما نُسِب إلى الخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢هـ = ١٨٣٠ - ١٨٩٥م]. زورًا وبهتانًا!

فالقضية، فى نظر أصحاب هذه المقولة، هى: «التخلف» فى جانبنا.. يقابله «التقدم» فى جانبهم.. وليست «التبعية» التى تفرضها علينا «سيطرتهم» الاستعمارية!

وما لدينا من «قيم» و «رؤى» و«تصورات»، بل «معتقدات»، زعموه داخلاً فى نطاق «التخلف» الذى يجب التخلى عنه،

واستبدال ما عندهم من بدائل «متقدمة» به! وأدخلوا فى ذلك أيضًا ما تميز به شعبنا من أنماط خاصة فى تنمية واقعه المادى، وما اختص به من أساليب فى العيش، وما اعتاد من عادات وتقاليد! لقد أطلقوا وصف «الأسطورة» على جميع ما لدينا، ووصف «العقل» على جميع ما لديهم.. وطلبوا منا الهجرة من «الذات»، والانسلاخ عن «المميزات»!

لقد أرادوا لأمتنا الانسلاخ عن جوهرها! وسموا هذا الانسلاخ «تحضرًا» و«تحديثًا»؛ لأنهم رأوا - بتجربتهم وذكائهم- أن هذا الجوهر الذى يميز هذه الأمة، هو «قوة الطرد المركزية» التى ستحرك الأمة فى اتجاه الاستقلال الحقيقى والتحرر من سيطرة الاستعمار!

ولما كانت حضارة هؤلاء الغزاة هى حضارة الغازى المنتصر، فلقد وجدت مقولاتهم هذه فى صفوف أمتنا من يزين صورتها ويبيض وجهها ويفتح لها فى عقل الأمة النوافذ والأبواب والثغرات، ويمهد لها الأرض فى الأفئدة والقلوب، ويزيل من طريقها العقبات! فكان أن تبلور فى حركتنا الفكرية ما عرف بـ«تيار التغريب»، ذلك الذى تقدم أعلامه وأنصاره إلى الأمة بوصفهم فرسان الإنقاذ والتحرر من أصفاد عصر المماليك والعثمانيين.

ولقد خيل للناس - حينًا من الدهر- أنه لا بديل عن «جمود» العصور المظلمة- «المملوكية- العثمانية»- إلا الانخراط فى موكب الساعين إلى أن نكون «غربا» فى الحضارة.. وأن التجديد واليقظة والإحياء، عن غير هذا الطريق، مستحيل.. مستحيل!

ولقد ساعد على ازدهار هذا التصور والتصوير ما كانت عليه المؤسسات والتيارات التى احتكرت لنفسها حق الحديث عن التراث وباسم «السلف الصالح»! فلقد كان تراث هذه المؤسسات مثقلاً بالخرافة والشعوذة، قد تجمد فتحلل، وتجاوزته الظروف وتخطته الملابسات، وأضحى باليًا كأنه أكفان الموتى؛ لأنه لم يكن إبداع الأمة، ولا عبقرية الأسلاف العظام، وإنما كان «حكاكات» عصر جمود هذه الأمة وتخلفها، وتطبيقات سلفها الذى لم يكن صالحًا!

فكان جمود هذه المؤسسات ونوعية «تراثها» مما يزين ويغرى بسلوك طريق «التغريب»!

لكن أصالة هذه الأمة الحضارية، وعوامل «الصحة» المستكنة فى كيانها الحضارى قد استنفرها هذا المأزق الذى وضعت فيه شعوبها عندما هجم عليها الاستعمار، فكان أن برز الموقف الثالث، والتيار الثالث.. تيار «التجدد الذاتى» الذى يمد جسور التواصل الحضارى مع كل حضارات الأمم الأخرى، ليؤثر، ويتأثر، وليتفاعل، وليأخذ ويعطى، من موقع الراشد المتميز، الذى لا يفقده التواصل الحضارى ما له من تميز واستقلال.. كما لا يدخله هذا «التميز والاستقلال» فى «عالم الجمود» و«مقبرة المتجمدين» الذين يقتلهم الانغلاق والاستعلاء!

ومنذ نشأة تيار «التجدد والتجديد» هذا، تصارعت على الساحة الفكرية لأمتنا هذه التيارات الثلاث:

١- تيار الجمود:

ذلك الذى استعصم بفكرية العصور الوسطى واعتصم.. بعد أن أضفى على هذه الفكرية التى جسدت عصر تخلفنا الحضارى قداسة الدين وقدسيته! ولقد تمثل تيار «الجمود» هذا فى المؤسسات التقليدية العريقة- إلا قليلاً من أعلامها- تمثل فى عدد من شيوخ الأزهر، والزيتونة، وفى قوم زعموا أنهم «مجتهدون»، رغم تسليمهم واستسلامهم لأساطير تراثية ظلت تفعل فعلها فى تقسيم المسلمين إلى «شيعة» و «سنة»! وكذلك تمثل تيار «الجمود» هذا فى تنظيمات «الطرق الصوفية» التى غرقت فى البدع والخرافات والرسوم، وانقطعت صلاتها «بالتصوف الحق»، سواء أكان «عقلانيًا» أم «شرعيًا» تهذيبيًا!

وخلف هذا التيار سارت «العامة»، لتمثيله «الاستمرار»، ورفضه «التغيير»، وحفاظه على «المألوف» وهبوط تصوراته العقائدية إلى مستوى تصورات «العامة» و «الجمهور»!

٢- تيار التغريب:

ذلك الذى انبهر أهله بتألق الحضارة الأوربية وإنجازاتها وانتصاراتها، خصوصًا عندما قارنوا بينها وبين النموذج «الحضارى» الذى يستمسك به تيار «الجمود»، بعد أن حسبوا -لجهلهم بتراثهم الحضارى- أن تصور أهل «الجمود» هذا هو حقيقة تراث أمتنا الحضارى! فدفعتهم هذه المقارنة إلى إدارة الظهر للتراث، وتولية الوجه والعقل والقلب إلى الحضارة

الأوربية، مصدقين زعم الأوربيين أن حضارتهم هذه هى «الإنسانية»، ومن ثم «الوحيدة» فى العصر، وأن على من يريد التحضر أن يلحق بها، ويذوب فيها، وينطبع بقسماتها وسماتها، فيفكر كما يفكر الأوربيون، ويحيا كما يحيون، ويتمثلهم فى «المقاصد» و«الأدوات» على السواء!

ولقد تمثل تيار «التغريب» هذا -أساسًا- فى الأعلام الذين «قلدوا» الغرب، بعد أن درسوا حضارته، سواء منهم من درسها فى عواصمها أو فى المؤسسات التعليمية التى نشأت فى بلادنا على نمط مثيلاتها فى الغرب فلسفة ومنهاجًا! وسار خلف هذا التيار فريق من أبناء الأمة، أعانهم الاستعمار على الإمساك بزمام التوجيه فى «المدرسة» و«الجامعة» و«الصحيفة» و«المنتدى» وكل أدوات التوجيه ومؤسسات «التحديث»!!

٣- تيار «التجديد»:

ذلك الذى أبصر أعلامه العلاقة بين تيارى «الجمود» و«التغريب»، فأهل «الجمود» يقيمون الدليل- وإن يكن كاذبًا- على عدم صلاحية مواريثنا كى تنهض بحاضرنا، على النحو الذى يضمن للأمة مواجهة ما تواجه من تحديات، الأمر الذى يدفع فريق «التغريب» وتياره إلى التماس التحضر وقوته وعافيته لدى من فرضوا على الأمة هذه التحديات، مع إغفال الفريقين لجوهر تراثنا الحضارى الخلاق الذى مثل ويمثل صفحات الازدهار الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية، والصالح

كى يمثل الزاد الذى تتزود به الأمة وهى تصنع حاضرها الراهن.. وتخطو نحو المستقبل المنشود!

ولقد تمثل تيار «التجديد» هذا فى الأعلام الذين استوعبوا تراث الأمة، ثم لم يحبسوا عقولهم فى تيار من التيارات القديمة التى فرقت، بالتعصب، صفوفها! كما لم يدفعهم استيعابهم للتراث إلى الغرق فى القضايا القديمة التى شغلت الأولين بالجدل، والتى تجاوزها العصر؛ لأنهم رفضوا- إيمانًا منهم بقانون التطور- إمكانية إعادة الحاضر أو المستقبل كى يُصَبَّ أى منهما فى قوالب التجارب التى صنعها الأسلاف.. ثم إنهم لم يغلقوا عقولهم دون التيارات الحضارية الأخرى، والتجارب الإنسانية التى ازدهرت وتزدهر خلف حدود العروبة والإسلام، ودون المواريث الحضارية غير العربية الإسلامية.. فرأوا:

■ الانطلاق من تراث الأمة باعتباره طاقة تشحن أبناءها بـ«الكبرياء المشروعة» التى تعينها على مواجهة التحديات المعاصرة، وإنجاز مشروعها الحضارى الخاص.

■ المحافظة على القسمات والسمات التى تمثل «البصمات» الثابتة فى شخصية هذه الأمة وحضارتها.. وخاصة ما كان منها «دينًا» وضعه الله.. أو «روحًا حضاريًا» تميزت به هذه الأمة عن غيرها من أمم الحضارات الغنية والعريقة.

■ التفاعل مع الحضارات الأخرى والإفادة منها، دون تقليد يمسخ شخصيتنا الحضارية.. وإنما بـ«تمثل» الراشد ذى الموقف المتميز والخاص!

لكن تيار «التجديد» هذا قد ظل حبيس «الصفوة» التى امتلكت زمام «الأصالة» و«المعاصرة» معًا، ووازنت بينهما موازنة عادلة وخلاقة.. وساعد على حبسه فى هذا الإطار أنه قد حوصر وتلقى الطعن من تيارى «التغريب» و«الجمود» كليهما، لما مثله من خطر حقيقى على غاياتهما ووسائلهما جميعًا!

* * *

غير أن تيار «التجديد والتجدد الذاتى» هذا لم يكن «فصيلة» واحدة متحدة فى طول بلادنا العربية وعالمنا الإسلامى، فلقد تميزت فيه «الفصائل» وتعددت «الحركات» وتنوعت «الدعوات»؛ بسبب ما بين أقاليم عالمنا العربى وأمتنا الإسلامية من تفاوت فى مراتب التحضر، وتنوع فى مستوى التحديات التى تواجه هذه الأقاليم، واختلاف فى المكونات الفكرية التى لونت مسار الدعاة والرواد فى هذه الفصائل والحركات والدعوات.

لكن الحديث عن «فصائل» هذا التيار، وعن علاقته باستقلال أمتنا الحضارى، يستدعى أن نقدم بين يديه «مقدمات تمهيدية» لا غنى عنها لوعى كنه هذا التيار، وما يمثله لأمتنا من طوق نجاة مما يواجهها من تحديات!

■ وأولى هذه المقدمات يتطلبها عنوان هذا الكتاب!!

ذلك أننا ممن يؤمنون بأن حضارتنا هى: «عربية-إسلامية».. فهى حضارة أمتنا التى هى عربية قوميًا.. وهى إسلامية؛ لأن «الإسلام الحضارى» يمثل فكريتها

«أيديولوجيتها» المتميزة.. فالإسلام الحضارى هو الرسالة الخالدة لأمتنا العربية الواحدة، يستوى فى ذلك أبناؤها الذين يتدينون بـ«الإسلام الدين»، وأولئك الذين يتدينون بـ«دين التوحيد»، سالكين إلى هذا التدين شرائع ومناهج أخرى لرسل آخرين سبقوا محمدًا ﷺ على درب علاقة السماء بالإنسان!

ثم إنها «عربية - إسلامية»، لما لأمتنا العربية من دور قائد فى نشر «الإسلام الدين» والقيام على تجديده، وفى قيادة الأمم الإسلامية لمواجهة ما يفرضه عليها الأعداء من تحديات.. تلك كانت مهمتها تاريخيًا، ولا تزال قائمة، بل وقدرًا من أقدارها، فى عصرنا الحديث!

■ وثاني هذه المقدمات يتطلبها العنوان أيضًا.. فهو يعنى أنه قد كانت لأمتنا العربية الإسلامية حضارة متميزة ومستقلة عن حضارات متميزة لأمم أخرى، ثم فقدت أمتنا هذا الاستقلال الحضارى، وغابت عن ساحتها، وغامت فى أعين فريق من أبنائها تلك القسمات الحضارية الخاصة التى أكسبت حضارتها ذلك التميز وهذا الاستقلال.. ثم جاءت هذه الدعوات والحركات الإصلاحية والتيارات التجديدية -التى سنتحدث عنها- فى العصر الحديث لتحاول استعادة هذا الاستقلال الحضارى لأمتنا، بالكشف عن قسمات تمايزها الحضارى، وبلورة هذه القسمات أو تطويرها.

■ أما المقدمة الثالثة، فإنها تجيب عن سؤال تطرحه ليقول:

هذه الحضارة المتميزة، ما قسماتها الرئيسية التى تميزها، فتجعلها مستقلة، أو متميزة عن غيرها من الحضارات التى كانت عين هذه الدعوات والحركات التجديدية عليها وهى تسعى نحو هذا الاستقلال الحضارى فى عصرنا الحديث؟

ونحن إذا شئنا «تكثيف» الإجابة عن هذا السؤال، أمكننا ذلك إذا نحن قلنا: إن حضارتنا هى **«حضارة التوحيد»**..

فلو تخيل المرء أن كل أمة من الأمم العريقة، ذات الحضارات المتميزة، قد «صاغت وسَكّت، لحضارتها «عُمْلة» تميزها.. وصنعت ذلك أمتنا، لكانت «عُمْلتها» التى تميز حضارتها مزدانة برمز «التوحيد» على وجهيها! «التوحيد الدينى» على أحد وجهى «العُمْلة».. و «التوحيد القومى» على وجهها الآخر.. والصلات بينهما، والتفاعل جاعلهما وجهين لعملة واحدة، ترمز لحضارتنا العربية الإسلامية.. حضارة التوحيد!

ففى «التوحيد الدينى»: فلسفة هذه الأمة، بمعنى «تصورها للكون».. حتى لقد سمى العلم الذى جسد إبداعها الفلسفى – وهو «علم الكلام» – بعلم «التوحيد».. وهى بهذا التصور التوحيدى للكون قد أفصحت عن أهم ما يميز حضارتها من قسمات، ألا وهى: «قسمة التوازن والموازنة» بين المتقابلات والمتناقضات، واتخاذ الموقف الوسطى العادل الذى يؤلف بين ما يحسبه آخرون، فى حضارات أخرى، غير قابل للتأليف.. بل والمؤاخاة

بين هذه المتقابلات، بنظرة شمولية تثمر «الموقف الثالث»، «الوسطى» -بمعنى العادل- والرافض لكلا الموقفين المتطرفين الباطلين: لأن كلاً منهما قد جاء ثمرة للنظرة الوحيدة الجانب - الجزئية - القاصرة - التى لم تبصر سوى قطب واحد من أقطاب ظواهر هذا الكون!

«فالنظرة التوحيدية للكون» هى التى وازنت وألفت وآخت بين «التوحيد الدينى» الذى يعنى وجود الفاعل الأول والسبب الأول فى هذا الكون: الله سبحانه وتعالى.. وبين ما فى «الطبيعة والطبائع» من خصائص ذاتية تجعلها فاعلة لأفعال ومسببة لأسباب!

وهى التى وازنت بين «التوحيد الدينى» الذى يقطع بأن العالم هو خلق الله.. وبين تصور هذا العالم قديمًا، وفق مقولة فلاسفة الإسلام وأغلب متكلميه: إن فعل القديم قديم! فلم تشهد حضارتنا ذلك الانقسام الذى جعل القائلين بقدم العالم «ماديين»، والقائلين بالخلق الإلهى: «مثاليين»- كما حدث فى التراث الفلسفى للحضارة الأوربية، وفى إبداعها الفلسفى الحديث-.. بل لقد بلورت حضارتنا ما يمكن أن يسمى: «المادية - المؤمنة»! وكان فلاسفتها وأغلب متكلميها: «ماديين - مؤمنين»! يؤمنون بالله الخالق للطبيعة [الخليقة] وفى ذات الوقت يعطون للطبيعة وقوانينها ما لها من فعل وتأثير!

وهذا «التوحيد الدينى».. هو الذى طبع حضارتنا بطابع الموازنة والتوازن بين : «الإنسان» وبين «الكون المحيط»،

فانتفت -بهذه الموازنة- أسباب «الغربة» وعوامل «الاغتراب»! بين: «الفرد» وبين «المجتمع والمجموع».. وبين : «الدين» وبين «الدولة»، فبرئت هذه الحضارة من القائلين «بالمقدس»، فالكهانة والسلطة الدينية.. ومن القائلين «بالطبيعي»، «فالعلمانية»، و«فصل» الدين عن الدولة والمجتمع.. واتخذت لنفسها مكانًا وسطًا - لا يعرف هذه الثنائية- يستلهم من «الدين» فلسفة نظم «الدولة»، على حين يصبح العقل الإنسانى والتجربة الإنسانية ومصلحة الأمة هى المبدعة والحاكمة فى هذه النظم المتطورة أبدًا.. فكان «التمييز» بين الدين والدولة، لا «الوحدة» ولا «الانفصام والفصل» هو موقفها الذى تميزت به عن حضارات الآخرين!

كذلك كانت الموازنة بين «الدنيا» وبين «الآخرة» على النحو الذى رفضت فيه وبه حضارتنا الإغراق فى الماديات.. وأيضًا رفضت الرهبنة والانقطاع للنُّسُك.. فجعلت «الآخرة» مؤسسة على «الدنيا»، وقالت إن صلاح الدنيا وعمارتها شرط لصلاح الدين وإقامته.. وبلغت فى ذلك إلى الحد الذى جعلت فيه تحقيق الله لعباده احتياجاتهم المادية والأمن فى الحياة هو المبرر المستوجب عبادتهم إياه! ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[1].

وما الدين إلا أن تقام شعائر

وتؤمن سُبْلٌ بيننا وهضاب!

---

(١) قريش: ١ - ٤ .

كما يقول شاعر الإسلام حسان بن ثابت [٥٤ هـ ـ ٦٧٤م].

وهذه الحقيقة هى التى يعبر عنها الإمام الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ ـ ١١١١م] عندما يقول:

«إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات، من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟ فإذن: إن نظام الدنيا ـ أعنى مقادير الحاجة ـ شرط لنظام الدين»[1].

وهذا «التوحيد الدينى» هو الذى وازن بين «العقل» وبين «النقل والوحى»، فلم نشهد فى حضارتنا الانحياز لأحدهما، رفضًا للآخر ـ على الأقل عند جمهرة تياراتنا الفكرية ـ بل شهدنا كيف كان «العقل» هو السبيل لإدراك الألوهية، واليقين بها.. وكيف كان، مع الكتاب والسنة، سبل الاستدلال فى الدين، الأمر الذى جعل الفلسفة تتدين، على حين قد تفلسف الدين!

وهذا «التوحيد الدينى».. قد وازن، أيضًا، بين «الثوابت الدينية» التى اكتمل بها أمر «العقائد الدينية والعبادات».. والتى مثلت فى شئون الدنيا «أطرًا، وغايات ومقاصد، ومثلاً عليا، وكليات، وفلسفات».. وازن بين هذه «الثوابت الدينية» وبين «المتغيرات الدنيوية» التى اختص بها العقل

(١) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٥ – طبعة القاهرة – صبيح – بدون تاريخ.

الإنسانى، يبدع فيها، خلقًا وتطويرًا، وفق المصلحة، وفى ضوء ثوابت الدين وأُطره وكلياته؛ تحقيقًا لمقاصد الشريعة التى تمثل مصلحة الأمة جماعها وسداها ولحمتها!

وهذا «التوحيد الدينى» هو الذى علّمنا أن الشريعة المنزلة ليست فقط «الكتاب»، بل ومعه «الميزان» الذى هو «القسط والعدل، والشريعة العادلة عندما توضع فى الممارسة والتطبيق».. «فالعدل» مع «الإيمان»: جناحان يطير بهما المجتمع المسلم طيرانًا متوازنًا ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[1]، ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[2].

هكذا.. وعلى هذا النحو كان أثر «التوحيد الدينى»، كجماع لفلسفة الإنسان المسلم، «وكعدسة» لأمّة وجامعة يرى منها الكون، ويتصور على هديها الوجود المادى والاجتماعى والإنسانى.

وهكذا كان هذا الوجه من وجهى «عُمْلة» حضارتنا العربية الإسلامية!

* * *

أما الوجه الآخر لهذه «العملة الحضارية»، فهو «التوحيد القومى»!

ذلك أن وثنية العرب فى الجاهلية -بما كانت تعنى من تعدد الآلهة فى القبائل- كانت تغذى وتجسد غياب وحدة الهُوِيَّة لهذه القبائل العربية، فجاء «التوحيد الدينى»؛ ليوحد هُويتها فى

(١) الشورى: ١٧.
(٢) الشورى: ١٥.

«الدين»، وليُسهم فى وحدة هذه الهُوية فى «القومية والدولة»، ومن هنا كانت العروة الوثقى بين «التوحيد الدينى » و«التوحيد القومى»، وكان مكان أحدهما من الآخر هو مكان وجه العُمْلة الأول من وجهها الثانى! ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1]، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].. فأثر هذا «التوحيد الدينى» فى «التوحيد القومى» هو- كما يقول القرآن الكريم - آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات الإسلام!

ولقد سارت الجماعة العربية على هذا الدرب.. فتوحدت القبائل فى «كل قومى واحد»، أصبحت «الدولة» العربية الإسلامية إطاره وأداته، وبلغ من ارتباط «التوحيد القومى» بـ«التوحيد الدينى» إلى الحد الذى اعتبرت فيه وحدة «الدولة المدنية» حقًا تقتضيه فريضة «الزكاة الدينية»، فكان قتال خلافة أبى بكر الصديق [٥١ق.هـ - ١٣هـ = ٥٧٣-٦٣٤م] لمن «ارتدوا» عن وحدة الدولة القومية، رغم إيمانهم بأصول الدين؛ لأن «وحدة الدولة» القومية غدت حقًا من حقوق شهادة «التوحيد الدينى»: لا إله إلا الله!!

(١) آل عمران: ١٠٣.
(٢) الأنفال: ٦٣.

وبعد عصر الفتوحات كان «الاستعراب» القومي – لسانًا [لغة] وثقافة وحضارة– السبيل لاتساع دائرة الأمة القومية، فامتزجت «القبائل» بـ «الشعوب»، واحتضن «الإسلام» «المواريث الحضارية» لهذه الشعوب، فكانت الأمة الواحدة، والحضارة الواحدة الجديدة.. تبلورت الأمة بالاستعراب، وتبلورت الحضارة فى عصر التدوين.

ولقد تميزت هذه العملية التوحيدية القومية بما تميزت به حضارتنا من «الموازنة والتوازن» بين المتقابلات والمتناقضات، فاتخذت الموقف «الوسطى والعادل» موقف «الشاهد» على المواريث الحضارية القديمة الذى يعدل فى الحكم على صلاحيتها كى تدخل فى نسيج الحضارة المستقبلية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1].. كذلك اتخذت هذه العملية التوحيدية القومية هذا الموقف «الوسطى العادل» عندما وازنت بين «المواريث الحضارية غير العربية»، وبين «كليات الإسلام» المتعلقة بـ«الدنيا»، فبلورت منهما «الإسلام الحضارى».. وعندما وازنت بين «فضائل» مختلف الجماعات والشعوب والأمم التى أدخلها الفتح فى إطار الدولة الجديدة، فصنعت من كل هذه الفضائل قسمة فى الحضارة الشابة، تتميز بها الأمة الوليدة. رافضة قطبى التطرف والصراع: عصبية العرب الجاهلية العرقية.. وتعصب الشعوبية ضد كل ما هو عربى.. وهى، أيضًا، قد وازنت بين «مركزية» «دولة الخلافة»

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

وبين ازدهار «الولايات» وتنوع المحليات والأقاليم، فكان الإسهام المتعدد والمتنوع فى البناء الحضارى العام والعظيم!

ولقد كان المنهج الذى صاغته الأمة وأبدعه عقلها طريقًا لصنع إنجازها الحضارى المتميز هذا، كان متسمًا، هو كذلك، بهذه القسمة المميزة لهذا الإنجاز! فهذه الأمة قد فتحت نوافذ عقلها على مختلف الحضارات، ونظرت ببصرها وبصيرتها فى مواريث اليونان والفرس والهنود، ثم أخذت، وتمثلت، من موقع الراشد ذى الموقف المتميز، فلم يحولها ذلك إلى يونان أو فرس أو هنود! وإنما ظل إنجازها الحضارى عربيًا إسلاميًّا متميزًا! وكما تميزت «الثمرة» فلقد تميزت «الأداة» – المنهج – عندما لم يقف عند «النظر الفلسفى والفكرى» فقط، كما كان حال «القياس» عند اليونان.. وعندما لم يهمل «النظر الفلسفى والفكرى»، مكتفيًا بـ«التجريب» الذى تتقاذفه وتتجاذبه موجات الخطأ والصواب.. وإنما وازن بينهما، فكان أن تبلور «المنهج الاستقرائى» القائم على الملاحظة والتجريب والاستخلاص الفكرى، ثم العودة إلى التجريب، فالفكر النظرى.. وهكذا. وفى هذه الموازنة المنهجية بين «المادة» و«الفكر» لم يعد «العالم المادى» ظلاً «لعالم المثل»، كما كان الحال فى الحضارة اليونانية، وفى نظرية «المثُل» عند أفلاطون [٤٢٧ – ٣٤٧ق.م]، كما لم يصبح «الفكر» مجرد انعكاس لـ«المادة»، كما هو الحال فى «المادية الفجة» التى طلعت علينا بها أوربا فى العصر الحديث! وإنما كانت العلاقة الجدلية بين «الفكر» و«المادة» على النحو الذى يشير إليه فيلسوف

الإسلام جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] عندما يقول: إن كل «شهود» يحدث «فكرًا»، وكل «فكر» يكون له أثر فى «داعية» يدعو إليها، وعن كل «داعية» ينشأ «عمل»، ثم يعود من «العمل» إلى «الفكر». دَوْرٌ يتسلسل، ولا ينقطع الانفعال بين «الأعمال» و «الأفكار» ما دامت الأرواح فى الأجساد، وكل قبيل هو للآخر عماد. آخر «الفكر» أول «العمل»، وأول «العمل» آخر «الفكر»[١].

هكذا تميزت حضارتنا.. عندما أصبح «التوحيد» هو روحها العظيم، إن فى النظر إلى الكون وتصوره- «التوحيد الدينى»- وإن فى الصياغة للمجتمع والدولة، وتصور الإنسان لهما، وعلاقتهما بهذا الإنسان.. وإن فى الأداة «المنهج» الذى استعان به الإنسان العربى على بلورة هذا الإنجاز.. «فالتوحيد» يعنى «التوازن».. كما أن «الموازنة».. و«التأليف».. «والتوفيق».. و«الوسطية».. تعنى فى الجوهر: الانحياز إلى «التوحيد»!

■ ورابعة هذه المقدمات التمهيدية - وخاتمتها - تبدأ بالسؤال:

متى فقدت حضارتنا هذه استقلالها؟ ولماذا؟

أما: لماذا؟ فلأنها قد فقدت خاصيتها؛ أى طابعها الوسطى المتوازن.. أى أصيب «توحيدها» بالتمزق والانفصام!

وأما: متى؟ وكيف حدث ذلك؟ فالرأى عندى أن البداية كانت

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ج١ ص١٤٠- دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

مع بداية افتقاد أمتنا قسمة التوازن والموازنة بين «القوة» و«العقل».. بين «السيف» و«القلم».. بين «المادة» و«الفكر»!

لقد كان عمر بن الخطاب [٤٠ق.هـ -٢٣هـ = ٥٨٤ - ٦٤٤م] رضى الله عنه، أول من تنبه إلى خطر «الرفاهية» على كفاءة «القوة الضاربة والحامية» التى لا بد منها لحماية «الدولة» و«الأمة» ومنعتهما ورفاهيتهما.. فمنع الجند من امتلاك الأرض الخصبة عندما فتحوا أودية أنهار مصر والشام والعراق، بل بنى لهم مدنًا خاصة، ومنع الناس فى البلاد المفتوحة من التزيى بالزى الخاص للجنود! وفرض الحجر على الصحابة، وخاصة من كان منهم من أشراف قريش؛ كى لا يغادروا العاصمة [المدينة] إلا بإذن، ولأجل مسمى، حتى لو كانت الحجة هى الغزو والجهاد فى سبيل الله! وهو القائل: «لآخذن بحلاقيم قريش لأمنعهم من أن يتجاوزوا الحرتين!».

لكن عثمان بن عفان [٤٧ق. هـ - ٣٥هـ = ٥٧٧- ٦٥٦م] رضى الله عنه، لم يصنع ذلك الذى صنعه عمر بن الخطاب.

ففى عهده «خرجوا إلى البلاد الغنية التى فتحت، فلما نزلوها، ورأوا الدنيا، ورآهم الناس، انقطع إليهم الناس.. وتقربوا إليهم، وقالوا: يملكون، فيكون لنا فى ملكهم حظوة!»، ويكمل المؤرخ «الطبرى» الحديث فيقول: «فكان ذلك أول وهن على الإسلام، وأول فتنة كانت فى العامة!»[1]..

(١) ابن أبى الحديد [شرح نهج البلاغة] ج١١ ص ١٢، ١٣ - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.

فلما كان العصر العباسى، كانت الرفاهية قد ابتعدت بالعنصر العربى عن حياة الجندية وخشونتها، فافتقدت الأمة قسمة التوازن بين «القوة» وبين «العقل».. ثم كان حذر «الدولة» من العنصر العربى لميله إلى «العلويين» من آل البيت، ونصرته لثوراتهم التى كان يقودها «الزيديون».. وكانت «الشعوبية»، المدفوعة بالثأر ضد الدولة العربية، والمشحونة بالمواريث المجوسية ضد الإسلام تسعى لتقويض «الدولة» ولإفساد «الدين»! فما كان من الخليفة العباسى المعتصم [١٧٩ -٢٢٧هـ = ٧٩٥ - ٨٤١م] إلا أن خطا الخطوة القاتلة عندما اختار للدولة جندها وقوتها الضارية من الترك المماليك، الغرباء عن حضارة الأمة، بحكم العنصر والجنس والنشأة والتكوين، والذين لا يكنون ودًا لعقلانية حضارتها، بحكم كونهم «عسكرًا» فضلاً عن كونهم مماليك! فلما تضخمت هذه المؤسسة العسكرية الغريبة عن الروح الحضارى للأمة، تجاوز الأمر حدود «فقدان التوازن» إلى رجحان كفة «القوة» على كفة «العقل»، فكان انقلاب المتوكل العباسى [٢٠٦ - ٢٤٧هـ = ٨٢١ - ٨٦١م] الذى أطاح بالتيار العقلانى الذى بلور الصفحات المشرقة لحضارتنا، وجاء بمن يقفون مع «ظواهر النقل» متنكرين للعقل ومنكرين جدواه! ومن يقفون مع «التشبيه» و«التجسيد» المنافى لـ«التوحيد» و«التنزيه»! ومن يرجحون علوم الآخرة على علوم الدنيا!

فلما امتد العمر بسلطان العسكر المماليك، وتوالت دولهم على مقر الخلافة وأقاليمها، ومد فى عمر هذه الدول وأحكم من

قبضتها ذلك الخطر الصليبى الزاحف من أوربا، تراجعت قسمة العروبة من حضارتنا، وظهر ذلك التناقض الذى زعموه بين الإسلام والعروبة؛ كمحاولة لإبراز الرباط الدينى الذى يجمع الحاكم بالمحكوم، ونفى الرباط القومى الذى يستنفر المحكومين: كى ينهضوا فينفضوا عن كاهلهم ذلك السلطان الغريب عن قوميتهم[1].. ففقدت حضارتنا روحها المميز لها، وغابت قسمة الموازنة والتوازن التى طبعت هذا الروح.. فكان أن دخلت مرحلة التراجع، فالجمود! تلك المرحلة التى تدعمت بالسيطرة العثمانية على أغلب أقاليم العالم العربى.. واستمرت حتى ظهور حركات التجديد والنهضة فى عصرنا الحديث.. والتى كان عليها، كى تستعيد لحضارتنا استقلالها، أن تبعث وتطور القسمات التى ميزت هذه الحضارة، وصنعت لها هذا الاستقلال.. وعلى وجه التحديد قسمات:

أ - السلفية الدينية:

تنفض بها عن العقائد الدينية ركام البدع والخرافات والزوائد والإضافات التى تراكمت عليها فى عصر الجمود المظلم.. وتعيد بها إلى الدين جوهره الأهم وروحه الأعظم، وهو «التوحيد الدينى» فى العقائد والعبادات.. ومن ثم تعيد إليه طاقة الفعل والخلق والإبداع على الجبهة الحضارية.

(١) انظر، فى تفصيل ذلك، كتابنا (الإسلام والعروبة والعلمانية) - طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

ب- الاستنارة والتمدن:

فى شئون الحضارة وأمور الدنيا ونظم المعاش والعمران، حتى تستطيع الأمة فتح نوافذ عقلها على الحضارات الأخرى وتجارب الأمم التى تقدمت، وليصح عقلها فتتمكن من التمييز بين تراثها الخلاق المحرك لطاقاتها المبدعة والباعث لإمكانياتها الخلاقة، وبين تراث عصر الركاكة والجمود، الأمر الذى يعينها على الموازنة بين «أصالتها» وبين «العصر» الذى تعيشه و«المستقبل» الذى تفكر فيه!

ج- عروبة السلطة:

فى المجتمع، حكومة، وإدارة، وجيشًا، وتعليمًا، وثقافة، وتشريعًا.. حتى تضمن سيطرة العقل والروح التى جعلت «التوحيد» هو المزاج المميز لحضارتها فى عصر الازدهار.

ويقدر نجاح حركات التجديد والنهضة ودعوات الإصلاح فى تبنى أدوات التجديد هذه، واستخدامها بكفاءة واقتدار، كان نجاحها فى التعبير عن طموح الأمة لتجاوز عصر توقفها الحضارى، والدخول، بمشروعها الحضارى المستقل، عصر النهضة والإحياء!

دعوات التجديد السَلَفيَّة
واستقلالنا الحضارى

بدأت يقظة أمتنا، فى عصرها الحديث، بظهور الحركات السلفية التى رامت تجديد الدين، وصبغ المجتمع بصبغة هذا الدين بعد تجديده.. وكان «تدين» حركات التجديد هذه - أى اتخاذها الدين سبيلاً للبعث القومى والحضارى- التعبير التلقائى عن مكان الإسلام ودوره فى أى مشروع لإيقاظ هذه الأمة وتجديد حياتها.

ومنذ البدء، كان واضحًا أن هذه الدعوات والحركات الدينية السلفية تواجه خطرين رئيسيين وعدوين أساسيين:

أولهما:

«التخلف» الذى صنعته وتحرسه فكرية العصور الوسطى والمظلمة.. فكرية عصور تسلط المماليك وسلطان العثمانيين.. «التخلف» عن جوهر الإسلام وحركته الحيوية وطاقته المبدعة - عقيدة كان هذا الإسلام أو شريعة - فلقد أحلت تلك العصور محل «الإسلام الحق» نسقًا فكريًا مثقلاً بالشعوذة والخرافة والسلبية والتواكل.. بعد أن أضفت على هذا النسق قداسة الدين!

وثانيهما:

«التقدم» الذى تسلحت به أوربا الاستعمارية فى هجمتها الحديثة على ديار العروبة وعالم الإسلام.. والذى أرادت به نهب اقتصاديات الأمة، واحتلال أرضها، ومسخ شخصيتها القومية، وإزالة تمايزها الحضارى؛ كى تصبح «هامشًا» لأوربا.. فى الاقتصاد أو الأمن أو «القيم» و«الثقافة».. وقسمات الحضارة بوجه عام!

ومن بين الدعوات والحركات السلفية الدينية التى استيقظت الأمة على وقْع خطواتها كانت: «الوهابية».. و«السنوسية».. و«المهدية» أبرز هذه الدعوات والحركات.. وهى وإن جمعتها غايات التجديد والإصلاح على أسس دينية سلفية، إلا أن النظرة المتأملة المتأنية تكشف ما بينها من تمايز فرضته واقتضته ظروف الواقع والبيئة والتكوين على القادة والدعاة والجمهور.. واستدعته التحديات التى واجهت هذه الدعوات والحركات فى البيئات المتميزة التى نشأت فيها.

١- الوَهَّابيَّـة

فى بيئة بدوية بسيطة، هى «نجد»، بشبه الجزيرة العربية، ولد ونشأ محمد بن عبدالوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦هـ = ١٧٠٣-١٧٩٢م].

وكانت السيادة الاسمية والرسمية على موطنه لخلفاء آل عثمان.. وكان ابن عبدالوهاب سليل أسرة من الفقهاء، أخذ عنهم علوم الدين، كما درس على علماء مكة والمدينة، وظهر نزوعه المبكر إلى النهج السلفى، الرافض لما طرأ على عقائد الإسلام وعباداته من بدع وخرافات وإضافات.

لقد نظر ابن عبدالوهاب فوجد عامة الناس يتخذون الوسائل والوسائط شفعاء إلى الله، بل يتوجهون إليهم بالطلب والدعاء والاستغاثة فى الملمات.. كما وجد البدع قد أصابت العبادات، بالزيادة والنقصان.. فلما عرض صورة «إسلام العامة» هذا على حقيقة «إسلام السلف» وجد أن الإسلام الأول - إسلام السلف- قد أصبح «غريبًا»! فكان أن وجد نفسه فى ذات الموقف الذى وقفه إمام السلفيين القدماء: الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ = ٧٨٠- ٨٥٥م] عندما دعا إلى العودة لإسلام شبه

الجزيرة، الأول، إسلام ما قبل عصر الفتوحات، ذلك الذى يكفى الإنسان منه النصوص، دونما حاجة إلى العقلانية الكلامية أو الفلسفية، وما أثمرت من «قياس» و«رأى» و«تأويل»[1]!

وكانت بيئة «نجد»، البسيطة، أكثر ملاءمة للإسلام السلفى البسيط، فظواهر النصوص تكفى للإجابة عن علامات استفهام إنسانها البسيط، كما تكفى لتصحيح معتقداته وتصوراته، وإعادة عباداته إلى إطار الإسلام الصحيح والبسيط.

بدأ ابن عبد الوهاب يدعو إلى إسلام السلف، ويبشر بفكر ابن حنبل، وابن تيمية [٦٦١- ٧٢٨هـ =١٢٦٣- ١٣٢٨م] وابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١هـ = ١٢٩٢-١٣٥٠م] ويركز على إصلاح «العقائد» وتقويم «التصورات» وتصحيح «العبادات» فحكم بالشرك، الظاهر والجلىّ، على المتوسلين إلى الله بالأولياء والصالحين والمشاهد والمزارات والرموز، بل رأى أن شركهم هذا هو أعظم من شرك الجاهلية الأولى[2].. ورفض - كما صنع أعلام السلفية الأول- أن يحتكم لغير النصوص، فهاجم «القياس»، حتى لو كان صحيحًا، وأعرض عن «التأويل» فى فهم النصوص وتفسيرها[3]... وأعلن أن «الرأى» لا وزن له بجانب النصوص[4]...

---

(١) انظر الفصل الذى كتبناه عن «السلفية» بكتابنا [تيارات الفكر الإسلامى] -طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣م، وطبعة ١٩٨٤م، وطبعة بيروت سنة ١٩٨٥م.

(٢) ابن عبدالوهاب: رسالة [هدية طيبة] - مطبوعة ضمن [مجموعة التوحيد] ص١٥٦ - طبعة المكتبة السلفية - القاهرة.

(٣) المصدر السابق- رسالة [هذه مسائل الجاهلية] ص ٨٧.

(٤) عبد الكريم الخطيب [الدعوة الوهابية] ص ١٢ - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م.

وكان طبيعيًا أن تصطدم هذه الدعوة السلفية بفكرية العصور الوسطى، تلك التى كان يرعاها خلفاء آل عثمان!..

ولم يقف أمر هذا التصادم عند الحدود الفكرية.. فلقد كان ابن عبد الوهاب أكثر من «شيخ»، وأعظم من «فقيه»، وأكبر من «داعية».. ومن ثم فإنه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها أو مواعظ يلقيها أو مذهب فقهى يبشر به، أو حتى حلقة من الأتباع والمريدين.. لقد أراد أن تكون «لدعوته» «دولة»، تضمن لها التطبيق والانتشار والاستمرار.. فالله يزع «بالسلطان» مالا يزع «بالقرآن»؟!.. ولقد زاد هذا العزم والمسعى من احتمالات التصادم ومن حجمه مع خلفاء آل عثمان!

غادر ابن عبد الوهاب «حريملا» - التى بدأ فيها دعوته- إلى «العيينة»، فعرض مذهبه على رئيسها عثمان بن أحمد بن معمر، الذى استجاب لدعوته، فعقد معه عهدًا أن ينصر دعوة [لا إله إلا الله]، ويسخر قوته لاقتلاع عقائد «الشرك» ورموزه، مقابل «أن يملكه الله نجدًا وأعرابها»![1].. فتحرك جيش «العيينة»، وفى مقدمته ابن عبد الوهاب، لهدم القباب، واقتلاع الأشجار وإزالة الرموز التى كان العامة يقدسونها ويتخذونها وسائط تقربهم- بزعمهم- إلى الله زلفى!.. وكان قبر الصحابى زيد بن الخطاب [١٢هـ -٦٣٣م]، باليمامة، من بين القباب التى قاد ابن عبدالوهاب عملية هدمها، بعد أن أجفل حتى جبن أمير «العيينة» عن الإقدام على هدمه! ولقد استفز ذلك أعراب الناحية،

(١) المرجع السابق ص ٦٤.

فخشى عثمان بن معمر عداءهم، فطلب إلى ابن عبد الوهاب مغادرة المنطقة خوفا على حياته، فغادر «العيينة» إلى «الدرعية» سنة [١١٥٨هـ - ١٧٤٥م].

وفى «الدرعية» تحالف ابن عبد الوهاب مع أميرها محمد بن سعود [١١٧٩هـ - ١٧٦٥م]. فسادت الدعوة السلفية فيها وفى نجد وما تاخمها.. ثم أخذ يعرض دعوته على حجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد الرسول ﷺ، فى موسم الحج والزيارة.. وبدأ الحجاج يسمعون ويتناقلون آراءه التى تحكم «بالكفر» حتى على خليفة المسلمين العثمانى؟!

وكان ابن عبد الوهاب يقود الجهاد، فى طليعة جيش ابن سعود.. فهاجموا «كربلاء» بالعراق، واستولوا على الكنوز الذهبية والفضية النفيسة لمشاهدها ومزاراتها سنة [١٢١٦هـ - ١٨٠١م].. ودخلوا المدينة المنورة سنة [١٢٢٠هـ - ١٨٠٥م]، وأزالوا القباب والشواهد الخاصة بمزارات الصحابة فى مقابر البقيع.. وفى العام التالى ذهب ابن سعود إلى مكة، حاجًا ومستعرضًا قوته، فبايعه «شريفها»، وطرد من كان بها من رجال الدولة العثمانية.. وهكذا تمت للوهابية - الدعوة والسلطة - السيطرة على الحرمين ونجد والحجاز، فتصاعد تحديها «للدولة» العثمانية و«لفكريتها» المثقلة بالشعوذة والخرافة!

لكن العثمانيين - بعد أن فشلوا فى مواجهة الوهابية - استعانوا بمحمد على باشا، والجيش المصرى، الذى أسقط الدولة الوهابية وأجهز عليها عندما احتل عاصمتها «الدرعية» فى [٧ ذى القعدة

سنة ١٢٣٣هـ -٨ سبتمبر سنة ١٨١٨م]، بعد سنوات طويلة من القتال.. وبعد ثلاثة أرباع القرن على ظهور دعوة ابن عبد الوهاب.. وبقيت الوهابية «دعوة» تسعى لإقامة «الدولة»، حتى تيسر لها ذلك فى العقدين الثانى والثالث من القرن العشرين، على يد الملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٣ - ١٣٧٣هـ = ١٨٧٦ - ١٩٥٣م].

* * *

■ كانت الوهابية، على جبهة «العقائد والشعائر الدينية»، حركة تجديد سلفية، نشأت فى بيئة عربية بسيطة، لم تعرف الفكر المركب، لخلوها من تعقيدات الحضارة وأنماطها الفكرية المركبة، فكانت صورة إسلامها هى صورة الإسلام العربى الأول فى عصر صدر الإسلام.. ومن هنا كانت ثورة تجديدية ضد صورة الإسلام العثمانى، ذلك الذى أثقلته البدع والخرافات طوال العصر الذى فقدت فيه حضارتنا مقومات الإبداع وقسمات الاستقلال.. وكان «التوحيد» الإسلامى الخالص، كما بشرت به الوهابية، إسهامًا فى إعادة روح التميز والاستقلال إلى البناء الحضارى لأمتنا على جبهة «العقائد والشعائر الدينية».

■ والوهابية، كامتداد للفكر السلفى، الرافض للتأثيرات الفلسفية اليونانية فى حضارتنا، قد تبنت إبداع أعلام السلفية- وخاصة إبداع ابن تيمية - فى صياغة «منطق إسلامى» متميز لحضارتنا، بدلًا من «منطق أرسطو» الذى تبناه عدد من فلاسفة المسلمين، أو تأثروا به.. فإزاء هذه القسمة من قسمات تمايزنا الحضارى، كانت السلفية، عند ابن تيمية، تتويجًا لجهود عربية إسلامية

استقلالية بدأت ونمت.. بدأت بإبداع الإمام الشافعى، محمد بن إدريس [١٥٠ - ٢٠٤هـ = ٧٦٧ - ٨٢٠م] فى «أصول الفقه»، التى قدمها فى مقابل «منطق أرسطو»، الذى رفضه باعتباره ابنا للغة اليونان، يستحيل أن يكون منطقًا لأهل اللغة العربية!.. ونمت هذه الجهود بإبداع المتكلمين المسلمين. من المعتزلة وغيرهم - لأصول الدين - علم الكلام - الذى رفضوا فيه وبه منطق أرسطو، لارتباطه «بالميتافيزيقا» اليونانية الوثنية. التى لم تعرف الوحى ولم تعترف به - والمخالفة لإلهيات المسلمين والإسلام!

ولقد توج ابن تيمية هذه الجهود، التى تمت على درب التمايز والاستقلال الحضارى، بنقده لمنطق أرسطو، الذى رآه مقيدًا للفطرة الإسلامية بقوانين صناعية متكلفة، وحائلاً بقوانينه الكلية الثابتة دون الوفاء بالحاجة الإسلامية المتغيرة.. وداخلا فيما لا ضرورة له، حيث لم يشتغل به الصحابة ولا الأئمة، ومع ذلك فلقد توصلوا - كما يقول - إلى كل نواحى العلم! توجت هذه الجهود بتبلور منطق الحضارة العربية الإسلامية الاستقرائى، القائم على الملاحظة والتجريب، فى مقابل منطق أرسطو، القائم على المنهج القياسى، والنابع من روح الحضارة اليونانية، التى لم تحفل بالتجربة بقدر ما ركنت إلى النظر الفكرى والفلسفى[1].

وعلى هذه الجبهة الفكرية، كانت الوهابية -كامتداد للفكر

(١) د. على سامى النشار [مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالم الإسلامى] ص ١٨٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٦٣، ٢٠٥، ٢٧٨ - ٣٨٠ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

السلفى- إسهامًا فى الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية.. وإن تكن بداوة بيئتها، وفقر الفكر الفلسفى عند أعلامها قد جعلا إسهامها على هذه الجبهة متمثلاً فى رفض التبعية الفكرية، مع العجز عن الإبداع فى بلورة البديل وتطويره!

■ وعلى «جبهة العروبة».. كانت الوهابية إسهامًا فى الجهد المبذول كى تستعيد الأمة هذه القسمة من قسمات استقلالها الحضارى.. فهى «كدعوة» و«كدولة»، قد مثلت طليعة التحديات العربية للسلطنة العثمانية المتسلطة على أغلب أقاليم الوطن العربى.. ثم هى، فى المجال الفكرى، قد سحبت - إسلاميًا - الشرعية والمشروعية عن ولاية العثمانيين على العرب، عندما تبنَّت وأبرزت موقف أغلب فقهاء الإسلام - ومنهم فقهاء السلفية- المنحاز لضرورة توافر شرط العروبة القرشية فيمن يتولى منصب الخليفة والإمام!

لقد مثلت الوهابية - بهذا الموقف الفكرى والعملى- فى يقظتنا الحديثة بعدًا قوميًا، لم يصل بها إلى حد جعلها حركة قومية عربية- بالمعنى المتعارف عليه فى الأدب السياسى الحديث- لكنه مثَّل إسهامًا بارزًا على درب العروبة الساعية كى تنفض عن كاهلها سلطة الترك العثمانيين!

■ لكن الوهابية -بسبب من بداوة البيئة التى نشأت بها- قد اتخذت موقفًا غير ودى من «العقلانية» ومن «التمدن».. فظواهر النصوص كانت كافية للإجابة على ما تثيره بيئتها البدوية البسيطة من مشكلات، وما تطرحه من علامات استفهام.. ومواريثها السلفية، التى

بدأت بإمام السلفية، أحمد بن حنبل، قد رفضت «عقلانية المسلمين» ضمن رفضها لـ«عقلانية اليونان»! وجاءت الوهابية، محكومة بأوضاع بيئتها البدوية، فرفضت «التمدن» عامة، كجزء من رفضها ذلك «التمدن الغربي» الذى كان يتسلل إلى عالم الإسلام من تلك الثغرات التى فتحها الغرب فى جدار آل عثمان!

ولقد دفع الوهابية على هذا الدرب، وأوغل بها فى هذا السبيل خلطها الشديد بين ما هو «دنيا، وما هو «دين»، فلما لم «تميز» بينهما، فحسبت أن تجديد «الدنيا» يتحقق بما يتجدد به «الدين» فدعت إلى «السلفية الدنيوية» كما دعت إلى «السلفية الدينية»، وغفلت عن أن تجديد ثوابت الدين لا بد فيه من «الاتباع»، فى إطار المقاصد الدينية والأطر العامة التى نزل بها الروح الأمين على الرسول، عليه الصلاة والسلام.. ولم تدرك الوهابية أن «الاتباع» هنا لا يثمر «التجديد» بل يؤدى إلى «الجمود»!

ولقد تحدث الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] عن هذه السلبية فى الدعوة الوهابية، رغم اتفاقه معها فى «السلفية الدينية»، التى جعلته يدعو إلى «فهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى...»[1] يتحدث الإمام محمد عبده عن قصور الوهابية على جبهة «العقلانية» و«التمدن»، فيقول: «إنهم أضيق عطنا [أفقا] وأحرج صدرًا من المقلدين. فهم وإن أنكروا كثيرًا من البدع، ونحوا عن الدين كثيرًا مما أضيف إليه وليس

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٢ ص ٣١٨- دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

منه، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيد به، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين واليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء»[1]!

* * *

فى هذه المواقع، وعند هذه الحدود وقفت الوهابية على جبهة نضال أمتنا لاستعادة استقلالها الحضارى، وبلورته، فى عصرنا الحديث..

لقد انتصرت «للسلفية الدينية».. و«للعروبة».. لكنها تخلفت عن مستويات طموحات أمتنا الحضارية على جبهة «التمدن»، عندما استبدلت- على هذه الجبهة- «سلفية الدين» «بمستقبلية الدنيا وتمدنها»!.. فوقفت صلاحيات فكريتها فى «التمدن» عند حدود البيئة البدوية التى نشأت وتبلورت فيها، وعجزت عن تلبية حاجات البيئات العربية الإسلامية المتحضرة، ذات الفكر المركب والتطور الحضارى المتقدم!

(١) المصدر السابق، ج٢ ص ٣١٤ .

٢ - السَّنوسيَّة

تميزت نشأة إمام السنوسية محمد بن على السنوسى [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ = ١٧٨٧ - ١٨٥٩م] عن نشأة محمد بن عبد الوهاب.. فلقد ولد السنوسى بقرية «الواسطة» بالقرب من «مستغانم»، بمقاطعة «وهران» الجزائرية، فى بيئة عربية لا تغلب عليها البداوة.

وكان طموحه إلى العلم والفروسية ملحوظًا منذ النشأة المبكرة، فمنذ الصبا كان يقسم يومه إلى قسمين، أحدهما لطلب العلم، والثانى للفروسية والتدرب على القتال!.. وهو قد درس فى «القرويين»، بمدينة فاس المغربية، و«الأزهر»، بالقاهرة.. وانخرط فى عدد من طرق التصوف.. وتلقى العلم على عدد من شيوخ مكة والمدينة.

وكان السنوسى مالكى المذهب فى الفقه.. وليس بين الإمام مالك بن أنس [٩٣ - ١٧٩هـ = ٧١٢ - ٧٩٥م] وبين «العقلانية» ما بين أحمد بن حنبل والمنهج العقلى من خصام!! وفى بيئة غير عارية من قسمات المدنية والتمدن كوَّن السنوسى طريقته، وشرع يبث الدعوة ويصنع الدعاة.

■ ولقد كانت سلفية السنوسية متميزة، لذلك، عن سلفية الوهابية.. فهى تشاركها فى الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد لتجديد الدين، وفى رفض فكرية السلطنة العثمانية؛ لما أثقل إسلامها من خرافات، وزوائد وبدع.. لكن الطريقة السنوسية قد مزجت «الشريعة» بشىء من «التصوف»، وخلطت «البرهان» «بالإشراق»! فهى «بالشريعة والبرهان» تجدد الدين، عندما تعود إلى منابعه كى نفهم عقائده وشعائره وشرائعه.. وهى «بالتصوف» تستعين على تربية النفس وتقويم السلوك وصقل الملكات وسمو الوجدان! صنعت ذلك المزيج مع ميل ملحوظ إلى «الشريعة والبرهان»!

ولقد أنجزت السنوسية على هذا الدرب إنجازًا عظيمًا، فهى قد صححت عقائد الذين انخرطوا فيها من الأتباع والمريدين، وكثير منهم -وخاصة فى الصحراء المغربية- كانت تشوب عقائدهم الإسلامية، بل شعائرهم، عناصر وثنية وجاهلية عديدة! وهى قد نشرت الإسلام بين أقوام أفارقة كثيرين كانوا وثنيين، فقطعت الطريق على التبشير الاستعمارى الذى كان يمهد بالمسيحية الأرض للنهب والاحتلال والاحتواء! ولقد كان لها الفضل فى صنع «الحزام الإسلامى»، الممتد فى وسط إفريقيا، من شرقها إلى غربها، وإقامة سلطنات وإمارات إسلامية عدة حاربت الاستعمار الغربى وأعاقت سيطرته سنوات.. وصنعت ذلك أيضًا عندما تصدت للاستعمارين الإيطالى والإنجليزى على الجبهة الشمالية، وعندما أقلقت السيطرة الفرنسية على بلاد الشمال الإفريقى..

وكان هذا إنجازًا هامًا وإسهامًا بارزًا استعانت السنوسية فى صنعه «بسلفيتها المجددة» تلك التى واجهت بها خرافة عصر الجمود وخطر المد الاستعمارى على هوية الأمة واستقلالها الحضارى.

■ وعلى جبهة «العروبة» - عروبة «الدولة» و «الفكر» و«الحضارة» - أسهمت السنوسية إسهامًا بارزا وملحوظًا.. فهى قد نشرت العربية مع نشرها الإسلام فى أصقاع جديدة.. وهى قد رفضت الاعتراف بشرعية التسلط العثمانى على حكم الأمة العربية، عندما تبنت وأبرزت موقف فقهاء الإسلام من ضرورة عروبة الخلافة وقرشيتها.. وفى كتاب السنوسى [الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية] يدافع عن هذا الشرط من شروط الخليفة، ويستشهد برأى أبى الحسن الماوردى [٣٦٤ - ٤٥٠هـ = ٩٧٤ - ١٠٥٨م] ويرفض رأى الذين يشيعونها فى غير العرب من المسلمين!

ثم إن السنوسية السياسية قد اتخذت من الدولة العثمانية موقفًا يتراوح ما بين «الصمت الحذر»، و«المراوغة»، أو «العداء»! فهى قد أزعجت طلائع المد الاستعمارى الغربى على إفريقيا، وأقلقت الاستعمار الفرنسى فى المغرب العربى، خاصة فى الجزائر، حتى لقد كتب وزير الخارجية الفرنسى جابرييل هانوتو G.Hanotaux [١٨٥٣ - ١٩٤٤م] وهو يتحدث عن «المسألة الإسلامية»، فعبر عن انزعاجه من «كفاح» السنوسيين ضد الأوربيين، و«كراهيتهم للمدنية» الأوربية!

وصرح بأن موقفهم غير الودى من الدولة العثمانية، ومقاطعتهم لها سببهما ما بين هذه الدولة وبين أوربا من

علاقات!.. وعبر عن مخاوفه من مقاومتهم للسيطرة الأوربية المسيحية الاستعمارية فقال: «... إن جراثيم الخطر لا تزال موجودة فى ثنايا الفتوح وطىّ أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم، ولكن لم تثبط هممهم!».. ثم يستطرد هانوتو فى الحديث عن خطر السنوسية على الاستعمار الفرنسى ونمطه الحضارى فيقول: «لقد أسس الشيخ السنوسى -فى جهة ليست بعيدة من الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر [!]- مذهبًا خطيرًا، له أشياع وأنصار.. ومن مذهبهم التشدد فى القواعد الدينية.. ولقد لبثوا زمنًا مديدًا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية [العثمانية] بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية [الاستعمارية الأوربية].. وهم يطرحون حبائل الدسائس التى أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحنا فى إفريقيا الجنوبية! فهناك، فى قرانا وبلداننا [كذا!] ترى درويشًا فقيرًا، متدثرًا بأرديته البيضاء، المعلمة بخطوط سوداء، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه، لا يلويه عن ذلك شىء.. وهذا الدرويش- الذى ينتقل من خيمة إلى خيمة ومن قرية إلى قرية، راويًا حوادث الأقطاب الأولياء من مشايخ الإسلام - إنما يبذر فى القلوب، حيثما حل وأينما توجه، بذور الحقد والضغينة علينا..»[1]!

وعندما ضغطت الدول الأوربية الاستعمارية على السلطان العثمانى عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢- ١٩١٨م] كى يوقف النشاط السنوسى، استجاب لهذا الضغط- بعد تمنع

(١) [الإسلام والرد على منتقديه] ص١٨، ١٩ - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

وإبطاء- فاستدعى المهدى السنوسى [١٢٦٠ - ١٣٢٠هـ = ١٨٤٤ - ١٩٠٢م] ليقيم فى الآستانة، فى «قفص ذهبى»! كالذى احتبس فيه ذلك السلطان جمال الدين الأفغانى، حول ذات التاريخ!! ولكن المهدى السنوسى تخلص من هذا الفخ، متلطفًا.. بل ونقل مقره بعيدًا فى الصحراء الليبية، فغادر «جغبوب» إلى «الكفرة» فلما زاد الخطر واقترب، انتقل من «الكفرة» إلى «فرو» بالسودان الأوسط!

ذلك أن السنوسية كانت تدرك أن الضعف العثمانى قد حول الدولة العثمانية إلى جدار ملىء بالثغرات التى يتسلل من خلالها نفوذ الغرب الاستعمارى كى يلتهم ديار العروبة والإسلام.. حتى لقد غدا «الترك -كما يقول أحمد الشريف السنوسى- مقدمة النصارى- [أى المستعمرين الأوربيين] - ما دخلوا محلاً إلا ودخله النصارى!».. حتى ليقول المهدى السنوسى: «الترك والنصارى، وإنى أقاتلهم معًا!».

فالسنوسيون، بموقفهم مع العربية، ومع الإسلام العربى، وبعدائهم لأعدائهما، أوربيين كان هؤلاء الأعداء أو أتراكا عثمانيين.. وأيضًا، بما أعادوا وبعثوا من فروسية عربية فى الخلق والقتال، وبما انحازوا إليه من ضرورة عروبة الخلافة وقرشيتها، كانوا أصحاب إسهام عظيم على هذه الجبهة من جبهات الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية.

■ وإزاء قسمة «التمدن»، أبدعت السنوسية نموذجًا متميزًا يجتذب الأنظار ويدعو البصائر إلى التأمل العميق.. فالسنوسى كان صاحب نظر فى العلوم الطبيعية، واقتناء لأدواتها، إلى جانب تبحره فى علوم الدين واجتهاده فيها!.. وأمام الخطر الاستعمارى الشامل

والمحدق والمهدد لكيان الأمة، أدرك الرجل أن لابد من «المرابطة»، بما عناه هذا النظام فى تاريخ الإسلام من تنظيم لطاقات الأمة وحشد لها فى وحدات مقاومة متراصة تتصدى، «بالبناء وبالقتال»، لخطر الأعداء!.. فكانت فكرة «الزاوية» السنوسية، كمؤسسة متكاملة لصنع الرجال، دينيًا ودنيويًا، وتنمية المجتمع، ومجاهدة الأعداء، ونشر العروبة والإسلام!.. كانت «الرباط» الإسلامى الحديث، الذى يبعث ويجدد روح «الرباط» و«المرابطة» الإسلامية الأولى، تلك التى قال عنها الرسول، ﷺ: «**رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها!**»[1].. والتى قامت عليها وباسمها دولة جددت الإسلام بالمغرب حينًا من الدهر، هى دولة «المرابطين» [٤٤٨ - ٥٤١هـ = ١٠٥٦ - ١١٤٦م]..

كانت «الزاوية» السنوسية هى: مؤسسة الحكومة - [الطريقة] - .. ومزرعة الدولة.. ونموذج المجتمع الجديد الموعود.. فغير المسجد، نجد فيها منزلاً لقائدها - [المقدم] - وللوكيل، وللشيخ... وفيها بيوت للضيوف وعابرى السبيل، وللفقراء الذين لا مأوى لهم، وفيها مساكن للخدم، ومخازن للمؤن، وإصطبل، ومتجر، وفرن، وسوق.. وحول هذه المبانى «العامة» توجد المساكن الخاصة بالقبائل التى تقوم «الزاوية» فى منطقتهم، لتطويرهم وقيادتهم..

«وللزاوية» أرض زراعية خاصة بها، وآبار جوفية، وصهاريج لحفظ المياه.. وأرضها وحدائقها تزرع جماعيًا، تعمل فيها القبائل، بلا أجر، يوم الخميس من كل أسبوع! كما تتدرب فيها يوم

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه والدارمى وابن حنبل.

الجمعة من كل أسبوع على الفروسية والقتال! ومحصول أرض الزاوية ينفق على احتياجات فقرائها، وضيوفها، غذاء وكساء وتعليمًا وعلاجًا وزواجًا، وما بقى يذهب لمقر الطريقة الرئيسى..

و«مقدم» الزاوية هو ممثل شيخ الطريقة، وقائد قبائلها فى الجهاد! و«الوكيل» هو المشرف على الزراعة وشئون الإدارة والاقتصاد.. أما «الشيخ» فإنه يتولى التعليم وشئون الزواج.. ومن هؤلاء الثلاثة ومن رؤساء القبائل المحيطة «بالزاوية» يتكون مجلس إدارتها..

تلك هى «الزاوية» السنوسية: أداة التنمية المتميزة، التى صاغتها البيئة، والتى جعل منها الخطر الاستعمارى قلعة للذب عن العروبة والإسلام والجهاد فى سبيل الله! ولقد وصفها السنوسى فقال: «**إن الأرض تبتهج من حولها بأنواع الأشجار، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار، وتنتشر فيها العمارة، وتتسع الإدارة.. والعاملون فيها، بالزراعة والحرف، هم السابقون عند الله للعاكفين على الأوراد والأوراق والمسابح!**»..

لقد صاغت بيئة «الزاوية»، وحدد الخطر المحدق بأهلها الصورة والحدود التى جاء عليها هذا النموذج السنوسى فى «التمدن».. وهو وإن لم يكن النموذج الأصلح لبيئات أكثر تطورًا، إلا أنه قد كان، فى واقعه وظروفه، إنجازًا عبقريًا على درب التمايز، والاستقلال الحضارى[1].

---

(١) انظر عن السنوسية: د. أحمد صدقى الدجانى [الحركة السنوسية] -طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م، وشكيب أرسلان [حاضر العالم الإسلامى]- طبعة بيروت سنة ١٩٧١م، ود. محمد عمارة [العرب والتحدى]- طبعة الكويت سنة ١٩٨٠م.

٣- المهديَّة

في جزيرة «لبب»، على بعد خمسة عشر كيلو مترًا من «دنقلة»، بالسودان، ولد مؤسس «المهدية» - «المهدى» - محمد أحمد [١٢٦٠ - ١٣٠٢هـ = ١٨٤٤ - ١٨٨٥م] فى أسرة فقيرة، قعدت بها إمكانياتها الفقيرة عن أن ترسله إلى الأزهر الشريف كى يتعلم فيه، فاحترف التجارة، لكنه حصل علم «الفقهاء الفقراء» المحليين!.. ومارس التعليم.. ثم اتجه إلى التصوف، فزهد، وتنسك، حتى ذاعت شهرته، وعلا نجمه، وأصبح، فى «الطريقة السمانية»، خليفة له «راية» و«مريدون»!.. ثم أصبح شيخًا لهذه الطريقة سنة [١٢٩٧هـ - ١٨٨٠م].

وكان لمحمد أحمد طموح إلى الإصلاح العام للمجتمع، وإلى بناء مجتمع على غرار مجتمع الرسول - ﷺ، فى صدر الإسلام.. ولقد استعان على ذلك الإصلاح بالفقهاء والحكام، لكنهم خذلوه، فاتجه إلى عامة الناس

وفى [الأول من شعبان سنة ١٢٩٨هـ - ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١م] أعلن محمد أحمد على الناس أنه «المهدى»، وأن الرسول، ﷺ، قد جاءه فى الرؤيا، وكلفه «بالمهدية».. ودعا

الناس إلى الإيمان به «مهديًا» وإلى الهجرة إليه، والجهاد معه لإقامة الدين، وتحرير البلاد من الأتراك والأجانب، وإنقاذ ديار الإسلام قاطبة «من غانة إلى فرغانة»[1]!

كانت مهمة التجديد واليقظة والتحرير بالسودان أكثر صعوبة منها فى غيره من البلاد.. فوحدة الشعب لم تتبلور بعد، والتفتت الإدارى والتمزق القبلى يثقلان الخطو نحو بلوغها.. والفقهاء قد تحولوا إلى أتباع للحكام، يبررون مظالمهم، ويُحكمون قبضتهم على العقول والقلوب.. والمتصوفة قد استقطبوا عامة الناس إلى «أقطابهم»! واقتسموهم فى «طرقهم»!، وأشاعوا فى حياتهم الخرافة التى قتلت فيهم الطموح وأماتت منهم الطاقات وعطلت لهم العقول!!

وأمام هذه المهمة الصعبة وقف محمد أحمد.. فبلغت به المعاناة حد تمثل الأسطورة «المهدية».. رؤية منام، بل يقظة!.. وغدت هذه الأسطورة البوتقة الأفعل فى صهر الأمة وتوحيد الجماعة واستنفارها للجهاد خلف مهديها للتجديد والتحرير والإصلاح!

* * *

■ ولقد واكبت المهدية صعود نجم «الثورة العرابية» ضد الخديوى توفيق [١٢٦٨ - ١٣٠٩ هـ = ١٨٥٢ - ١٨٩٢م] والتدخل الأوربى

(١) «غانة»: مدينة عربية إسلامية، فى أقصى جنوب المغرب العربى.. و«فرغانة»: مدينة إسلامية، فى بلاد ما وراء النهر، متاخمة لبلاد التركستان – التى تمثل الآن إحدى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى –.. والعبارة تعنى: من مغرب عالم الإسلام إلى مشرقه! انظر: صفى الدين البغدادى [مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع] – تحقيق: على البيجاوى – طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

الاستعمارى فى مصر.. وكان هذا التدخل، الذى تسلل إلى بلادنا من الثغرات التى صنعها عجز الأتراك العثمانيين، قد جعل السودانيين، بقيادة «المهدى»، يرون فى هذا الثالوث، المكون من: الأوربيين والأتراك والحكومة الخديوية عدوًا واحدًا وبلاءً متحدًا!

فبعد معاهدة لندن سنة (١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م)، التى قننت اختراق تجربة مصر المستقلة من قبل أوربا والعثمانيين، زاد النفوذ الأجنبى فى مصر، خاصة زمن حكم الخديو سعيد [١٢٧٠ - ١٢٧٩هـ = ١٨٤٥ - ١٨٦٣م] والخديو إسماعيل [١٢٧٩ - ١٢٩٦هـ = ١٨٦٣ - ١٨٧٩م].. وبصورة أكبر عندما تولى الحكم الخديو توفيق [١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م].. وانعكس ذلك على السودان، الذى كانت إدارته للحكومة الخديوية المصرية، حتى بلغ الأمر حد تعيين العديد من الأوربيين حكامًا على أقاليم السودان، ليحكموه باسم الخديو! ففى «بحر الغزال» حكم الإيطالى «جيسى»، ثم خلفه الإنجليزى «لبتون بك»!.. وفى «دارفور» حكم النمساوى «سلاطين»! وفى «كوبى» حكم «أميليانى»! وفى «الفاشر» حكم «مسيداليا»! وفى «لادو» حكم الألمانى «سنتزر»!.. وفى «فاشودة» حكم النمساوى «إرنست ماترو»!

وكان السودانيون يسمون الحكم الخديوى بالحكم التركى، ويصفون حكامهم بالأتراك!.. وزادت مبررات هذا الوصف عندما انحاز الخديوى توفيق إلى الغرب والأتراك ضد الثورة العرابية!..

وكانت المظالم الاجتماعية لهذا الحكم «التركى» قد بلغت فى السودان وبأهله حد المأساة!

وأمام هذا العدو كان رد فعل «المهدية» المعادى للأتراك.. فهم «كفرة»، لا بد من جهادهم، وهم أعداء، لا بد من «مغايرتهم»، حتى فى الزى والعادات والتقاليد، ولا سبيل للتعامل معهم إلا السيف!

يقول «المهدى» لأتباعه، فى أحاديثه ومنشوراته، معبرًا عما نراه: «قسمة عربية، معادية للسيطرة التركية».. يقول: «اتركوا كل ما يؤدى إلى التشبه بالترك الكفرة، كما قال الله تعالى فى الحديث القدسي: «قل لعبادى، المتوجهين إلىّ، لا يدخلون مداخل أعدائى، ولا يلبسون ملابس أعدائى، فيكونون هم أعدائى، كما هم أعدائى.. فكل الذى يكون من علاماتهم ولباساتهم فاتركوه!»[1].

وهو يحدثهم عن أن رسول الله، ﷺ، قد أمره بذلك، وحرضه عليه، فعداء الترك واحد من «المهام المهدية»، فيقول لأتباعه: «لقد حرضنى سيد الوجود ﷺ على قتال الترك وجهادهم.. لقد أمرنا النبى أمرًا صريحًا بقتال الترك، وأخبرنا بأنهم كفار، لمخالفتهم أمر الرسول باتباعنا، ولإرادتهم إطفاء نور الله تعالى الذى أراد به إظهار عدله.. ولقد أعلمنى الرسول أن الترك لا تطهرهم المواعظ، بل لا يطهرهم إلا السيف، إلا من تداركه الله بلطفه!..»[2].

وهو يذكرهم بظلم الترك وعسفهم فيقول: «إن الترك قد وضعوا الجزية فى رقابكم، مع سائر المسلمين.. وكانوا يسحبون

---

(١) [منشورات المهدية] ص ١٦٦ – تحقيق: د. محمد إبراهيم أبو سليم – طبعة بيروت سنة ١٩٦٩م.

(٢) المصدر السابق – ص ٧٤، ٣١١، ٣١٢، ٣٣٢.

رجالكم، ويسجنونهم فى القيود، ويأسرون نساءكم وأولادكم، ويقتلون النفس التى حرم الله بغير حقها، وكل ذلك لأجل الجزية التى لم يأمر الله بها ولا رسوله.. فلم يرحموا صغيركم ولم يوقروا كبيركم!..»[1].

فشحن قومه بشحنة قومية، عندما استنفر فيهم روح «المغايرة» للأتراك.. وكان هذا إسهامًا «للمهدية» على درب التمايز القومى عن الأتراك العثمانيين.

* * *

■ وأمام «الفكرية» التى بلغت بها «طرق» التصوف والمتصوفة قمة الخرافة والشعوذة، كانت دعوة «المهدية» إلى سلفية تحرر العقل من هذه القيود والأغلال التى عطلت طاقات الفكر الإسلامى، وتكشف عن هذا الفكر الركام الذى أفقده معالمه الحقيقية.. فدعت «المهدية» إلى العودة للمنابع، وإسقاط التفسيرات التى جاءت بنت زمانها وظروفها، بعد أن مر الزمان وتغيرت الظروف.. فالمتقدمون رجال «فكروا» لعصورهم، ونحن رجال «نفكر»، فى إطار الأصول، لعصرنا... ولقد حدَّث «المهدى» أنصاره، وحاور مجادليه فقال لهم: «لا تعرضوا لى بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين، فلكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال.. ولقد كانت الآيات تنسخ، فى زمن النبى، على حسب مصالح الخلق، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح.. نحن نقفوا آثار

---

(١) المصدر السابق – ص ٤١ ، ٤٢ .

من سلف من المهتدين السالفين، على نهج محمد، ﷺ... فاتبعوا، أحبابى، كلام الله فى القرآن، ولا تتبعوا ترهات فائت الزمان! وقد بايعتمونى على أن لا تشركوا بالله شيئا!..»[1].

لقد عادت «المهدية»، على الجبهة الفكرية، لتستلهم المنابع الأولى.. فالمهدى: خليفة الرسول، وخلفاؤه هم الخلفاء الراشدون الأربعة.. وهم قد تخطوا بذلك تجارب الأمة المأساوية التى مزقت الشمل وأفقدت حضارتنا الاستقلال.. وعلى الجبهة الفكرية ألغت «المهدية» تراث المذاهب الفقهية- أو حولته إلى «تراث تاريخى» - ودَوَّن «المهدى» للشعب أحكامًا فقهية لم تلتزم بمذهب فقهى واحد- وإن وضح فيها أثر المذهب الشافعى أكثر من غيره.. كما ألغت «الطرق الصوفية» وتراثها الخرافى.. وعادت تستلهم الكتاب والسنة، وتعلى من قدر «المصلحة» فى تفسيرها لنصوصهما المتعلقة بأمور الدنيا، وتسلك سبيل الاجتهاد إلى هذه السلفية المجددة!

وكان هذا إسهامًا لا ينكر على درب الاستقلال الحضارى للأمة!

* * *

■ وعلى جبهة «التمدن»، وجدت «المهدية» فى «جماعية الفكر الاجتماعى للإسلام» الفكر النظرى الذى يلبى احتياجات المجتمع السودانى، القبلى والبسيط، والذى لم تتمايز فيه بعد الطبقات تمايزًا حادًا وراسخًا وعريقًا.. كما وجدت فيها العلاج الثورى الناجع للمظالم الاجتماعية التى رزح الناس تحت نيرها واكتووا بنارها قرونًا تطاول عليها الأمد!

(١) المصدر السابق: ص ٢٨٨، ٣١.

لقد انحاز الحكام والفقهاء إلى صف أعداء «المهدية»، ومعهم المنتفعون بالظلم الاجتماعى الذى ساد قبل الثورة.. أما أتباع «المهدى» وأنصاره فإن أغلبيتهم الساحقة قد تألفت من العامة والفقراء والأعراب، الذين حرموا من الثروة، ومن العلم معًا! و«المهدى» قد استنفر جماهيره إلى الجهاد بالجنة الموعودة، وهيأ لهم سبل العيش وأدوات الجهاد بالجماعية الإسلامية التى أقامها لهم فى الثروات والأموال والاقتصاد.

وعندما كان خصوم «المهدية» يعيبون عليها فقر أتباعها فى المال والتعليم، كان «المهدى» يفاخر ويفخر على هؤلاء الخصوم بهذا الفقر! فيراه شرفًا ويسلكه هو وأتباعه فى سلك السلف الصالح.. فيقول: «إن أتباع الرسل كانوا هم الضعفاء والجهلاء.. أما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم إلا بعد أن خربوا ديارهم وقتلوا أشرافهم وملكوهم بالقهر، كما قال تعالى، حاكيًا عن قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[1].. وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2].. ولقد قال أهل الغنى والطغيان عن أتباع نبينا: إنهم الأجلاف الأعراب، عراة الأجساد، جياع الأكباد.. فلم ينفعهم غناهم، بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة.. وجعلهم الله غنيمة الضعفاء الأعراب

(١) هود: ٢٧.
(٢) سبأ: ٣٤، ٣٥.

الذين كانوا يستهزئون بهم.. وكذلك نرجو الله أن يكون الأغنياء، ومن وراءهم، غنيمة للبقارة والجهلاء والأعراب!..»[1].

ويرد «المهدى» على خصومه، من الأثرياء، والفقهاء المدافعين عن الأثرياء، بحجة أنه قد كان فى صحابة رسول الله ﷺ من كانوا أغنياء، يملكون أسباب الثروة، يرد «المهدى» على خصومه هؤلاء، ويناقش شبهتهم، فيقول: «... إن الصحابة الذين باشروا الأسباب[2]، لم يدخلوا فيها إلا بعد الخروج عن كل شيء، حتى تمكن نور الإيمان فى قلوبهم.. ومن كان عنده منهم أسباب فهى إنما كانت فى أيديهم، لا فى قلوبهم.. وكانوا عليها كالوكلاء، ينفقونها حسب أوامر موكلهم ومولاهم، ولذا قال لهم ربهم: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[3] ولم يقل: وأنفقوا مما ملكتموه! وقال ﷺ: «آخر أصحابى دخولاً الجنة: عبد الرحمن بن عوف، لمكان غناه.. وهو أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى»[4].

وانطلاقًا من هذا الفكر الإسلامى المنحاز إلى الجماعية، واستجابة لضرورات المجتمع السودانى وطابعه، أقام «المهدى» التجربة الاجتماعية المتميزة عن التطبيقات العثمانية والمملوكية، وعن تطبيقات الحضارة الأوربية فى الأموال والاقتصاد.. ففى البيعة له «بالمهدية»، كان المبايعون يعطونه أنفسهم وأموالهم.. وهو هنا الرمز والتجسيد للجماعة و«للدولة»! وفى الأرض

---

(١) [منشورات المهدية] ص ٣١٣، ٣١٤.

(٢) الأسباب: تقارب ما نسميه اليوم «رأس المال» الذى يستثمر.

(٣) الحديد: ٧.

(٤) [منشورات المهدية] ص ٣٣، ٣٤، ٥١، ٥٢، ٢٦٧.

الزراعية، وقف بالملكية عند الحد الذى يستطيع الإنسان المالك أن يزرعه.. وما زاد على ذلك «يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج».. أما الدكاكين، والوكالات التجارية، والقيصريات، والمعاصر والطواحين، وموانى السفن (المشارع) - والحدائق.. إلخ.. إلخ.. فلقد اعتبرت، كالفيء، مصالح عامة، فهى للمجاهدين والمساكين!

وفى هذا التنظيم الاجتماعى الجماعى، تقررت للإنسان المقادير الكافلة سد ما له من احتياجات ضرورية، دون ما زاد على الضرورات.. «فمن انضم للجهاد فله ضرورته، والزائد على الضرورة، إنما هو على العبد، لا له!.. ومصالح الخلق كلها متعلقة ببيت المال!..» كما يقول «المهدى»[1]..

هكذا أبدعت «المهدية» فى «التمدن» وفى ميدانه الاجتماعى خاصة، أمرًا متميزًا، استلهمت فيه جماعية الإسلام واستجابت به لضرورات المجتمع ومصالحه..

أما فى الميدان السياسى «للتمدن» فلقد كانت «المهدية» إبداعًا يستلهم الأسطورة التراثية التى جعلت من «المهدى» ذلك البطل الأسطورى الذى تعده السماء لينتشل المجتمع من أزمته ويخلصه من مأزقه، فيملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت بالجور والفساد!..

* * *

هذا عن دعوات التجديد الدينى السلفية: «الوهابية».. و«السنوسية».. و«المهدية».. ومدى إسهام تجديدها السلفى فى الاقتراب من مطلب أمتنا فى «الاستقلال الحضارى»..

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٨، ٢٤٥، ١٦٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧١.

وإذا كانت هذه الدعوات وحركاتها قد منعتها «بداوة البيئة» من أن تولى «التمدن» ما يجعله النموذج الصالح للتعميم، والوافى باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوربية المسلحة بحضارتها الحديثة، فإن هناك «فضيلة» أخرى من فضائل التجديد الدينى قد برئت دعوتها من هذه الثغرات والسلبيات، وهى مدرسة [الجامعة الإسلامية]، التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨- ١٧٩٧م] والإمام محمد عبده [١٢٦٥- ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩- ١٩٠٥م] وعبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠- ١٣٢٠هـ = ١٨٥٤- ١٩٠٢م] وعبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧- ١٩٤٠م].. فتيار [الجامعة الإسلامية] هذا قد استفاد من تجارب أمتنا فى هذا الميدان.. ولذلك وجدنا عنده:

أ- السلفية فى الدين، تجدده.. والعقلانية أداة فى هذا التجديد..

ب- العروبة فى القومية.. على أسس حضارية، غير عرقية..

ج- الموازنة بين الخصوصية الحضارية، وبين الاستفادة من الحضارات الأخرى.

د- النظرة المستقبلية المستنيرة فى «التمدن»..

هـ - الموازنة بين «الخصوصية القومية» للعرب، وبين «الرابطة الإسلامية»، الجامعة لقوميات أمة الإسلام.

ففى فكر أعلام هذا التيار - الذى لم تقم بعد التجربة التى تجسده- تكتمل العناصر الأولية، والضرورية لمشروع الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية!

النهضة المصرية والاستقلال الحضارى

الأمر الذى لا شك فيه أن النهضة المصرية- التى قادها محمد على باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠- ١٨٤٩م] هى التى دخلت بعالمنا العربي وشرقنا الإسلامى إلى رحاب عصر اليقظة والبعث والإحياء.. العصر الحديث!

لقد تطلعت مصر إلى هذه النهضة على عهد حكم على بك الكبير [١١٤٠- ١١٨٧هـ = ١٧٢٨- ١٧٧٣م].. ثم جاءت الحملةالفرنسية [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] لتنبه الأذهان بواسطة الخطر القادم فى ركاب الغزو الاستعمارى، ولتلعب دور «الماس الكهربائى»، الذى لم يصعق ضحيته فيميتها، ولم يكن المصدر الحقيقى ليقظتها ومبعث حياتها، وإنما كان «المنبه» لها كى تستيقظ، فتعى العصر، وتدخل فيما يدخل فيه الأحياء المعاصرون!.. ولقد تجسد هذا الأثر فى كلمات شيخ الأزهر، الذى خالط علماء الحملة الفرنسية، الشيخ حسن العطار [١١٨٠ - ١٢٥٠هـ = ١٧٦٦- ١٨٣٥م] والتى تقول: «إن بلادنا لابد أن

تتغير، ويتجدد فيها من العلوم والمعارف ما ليس فيها؟!».. ثم جاءت التجربة الإصلاحية التى قادها محمد على لتضع أمنية الشيخ العطار فى الممارسة والتطبيق!

صحيح أن دعوات دينية سلفية قد سبقت النهضة المصرية هذه فى بلادنا العربية، وحاولت التصدى لخطر «التخلف الذاتى القديم»، الموروث عن العصر «المملوكى - العثمانى»، والذى يشل خطو الأمة ويكبل عقلها، فيحول بينها وبين النهوض ولخطر «التقدم الغربى الحديث» الذى جاء فى ركاب الغزوة الأوربية الحديثة، يريد نهب خيرات الأرض، واحتلال مواقعها الاستراتيجية، وتأبيد ذلك وتكريسه بمسخ شخصيتها القومية المتميزة، وسلخها عن قسمات حضارتها العربية الإسلامية الخاصة بها..

لكن هذه الدعوات الدينية السلفية، التى سبقت النهضة المصرية فى الزمن، أو واكبتها، قد سلكت طريقًا متميزًا عن ذلك الذى سلكه محمد على وهو يسعى، بمصر، فى طريق النهضة والإصلاح..

■ فـ «الوهابية»، مثلاً، قد كانت لها الريادة، من حيث الزمن المبكر والتوقيت الذى سبق النهضة المصرية بأكثر من نصف قرن.. فلقد تبلورت - كما قدمنا - حول داعيتها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦هـ = ١٧٠٣ - ١٧٩٢م] فى «نجد» بشبه الجزيرة العربية، وأقامت «دولتها» منذ أن تحالف ابن عبد الوهاب مع أمير «الدرعية» محمد بن سعود [١١٥٨هـ - ١٧٤٥م].

■ أما «السنوسية»، فإنها عاصرت نهضة محمد على.. ثم استمرت بعدها.. فهى قد تبلورت - كما سبق وأشرنا - حول

داعيتها ومؤسسها محمد بن على السنوسى [١٢٠٢- ١٢٧٦هـ = ١٧٨٧- ١٨٥٩م].. وأقامت «زواياها»، وكونت قادتها ومريديها، وأنجزت أعظم إنجازاتها خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين..

لكن.. لا السبق التاريخى، الذى كان «للوهابية» على نهضة محمد على.. ولا الاستمرارية التى تحققت «للسنوسية» بعد حصار أوربا والعثمانيين لنهضة مصر الحديثة، يمكن أن يعقد لواء ريادة الشرق إلى عصر النهضة والإحياء لهذه الدعوات.. وإنما يظل لواء هذه الريادة معقودًا لمصر، فهى التى دخلت بأمتها العربية، بل وبعالمنا الإسلامى إلى رحاب العصر الحديث، وخطت لهما معالم اليقظة والتنوير..

أما سبب هذه الريادة، فهو ما تميزت به وامتازت تلك النهضة عن تلك الحركات التجديدية الدينية السلفية من خصائص ومميزات.. وفى مقدمتها:

أ – أن هذه النهضة المصرية قد نشأت وتبلورت فى مجتمع متحضر نسبيًا، وفى مناخ يأتى، بمقاييس التمدن والتحضر، فى طليعة دول الوطن العربى وأقاليم عالم الإسلام.. «فالدولة» – بل والدولة المركزية القوية– لها فى مصر أطول عمر فى تاريخ «الدولة» على الإطلاق!

والطبقات الاجتماعية متبلورة إلى حد كبير.. والمواريث الفكرية قد تجاوزت «التبسيط» إلى «التركيب».. والأزهر– رغم ما

شابه من جمود العصور الوسطى - قد حفظ شعلة العلم والتعليم موقدة ومضيئة فى ليل العصر «المملوكى - العثمانى» الطويل!

والوضع القائد لمصر - كمركز خلافة أو سلطنة أو المتمين، على الأقل كولاية تتمتع بالاستقلال الذاتى - قد ثبت، وفرض نفسه، وأحدث آثاره على وضع البلاد وعلاقاتها بأقاليم الدولة الإسلامية وولاياتها منذ أن استقل بها الطولونيون، فى عهد مؤسس دولتهم أحمد بن طولون [٢٢٠- ٢٧٠هـ = ٨٣٥ - ٨٨٤م] وألحقوا بها أقاليم أخرى فى المشرق العربى.

فلم تكن مصر: «نجد الصحراء»! ولا هى كانت: «الصحراء الليبية»!

ب- كما تميزت هذه النهضة المصرية، التى قادها محمد على باشا، بكونها حركة «إصلاح مدنى»، قادها «مصلحون مدنيون»، ونهضت بأعبائها كوكبة من المثقفين والعلماء والقادة والمديرون الذين تميزوا عن «المصلحين الدينيين»، والذين لم يتقدموا إلى الأمة«كفقهاء وعلماء دين».. فالمنطلقات للإصلاح كانت «مدنية».. والمعايير فى هذا الإصلاح كانت «مصلحة الأمة».. والموقف من الدين، فى هذه التجربة، قد تمثل فى:

■ تجنب الاصطدام «بممثليه»، الذين رفضوا «الإصلاح المدنى»، أو تحفظوا إزاءه.. مع تركهم لعالمهم، وترك عالمهم لهم، يعيشون فيه ويفكرون له، على نحو ما كان الحال قبل عصر النهضة والإصلاح!

■ وتجنب أن يأتى «الإصلاح المدنى» - الذى سعت إليه التجربة، وطبقته- ماسًا بشىء من المسلمات الدينية التى أجمع

الناس على قدسيتها، أو منكرًا لأمر من الأمور التى عرفت من الدين بالضرورة، أو مصطدمًا بتصور من التصورات التى اكتسبت قداسة الدين، وذلك حتى لا تتاح الفرصة لأعداء الإصلاح، من علماء الدين، لاستنفار العامة ضد هذا الإصلاح!

ولم يكن موقف محمد على هذا من الدين وعلمائه اختيارًا فكريًا حرًا.. فهو لم يعتمد على الإسلام فى نهضته الإصلاحية، ولم يؤسس هذه النهضة على التجديد الإسلامى والإسلام المتجدد، لا لأنه ضد الإسلام، وضد أن ينهض الدين بدور الأساس، والحافز فى النهضة، على نحو ما صنع «العلمانيون» فى النهضة الأوربية، وإنما الذى حكم موقف محمد على هذا، وحدد له «المصلحة المدنية»، لا «السلفية الدينية» معيارًا وإطارًا للإصلاح هو:

١- أن الرجل لم يكن من علماء الدين.. وفاقد الشىء لا يعطيه! ثم أنه هو الذى بدأ الإصلاح وقاده، ولم يكن «سيفًا» بيد «العمامة»، كما كان حال ابن سعود مع ابن عبد الوهاب!

٢- أن صورة القيادات الدينية قبيل عصره، وفى السنوات الأولى من حكمه على وجه الخصوص، لم تكن - فى جملتها وأغلبيتها - لتفرض الاحترام على من هو فى مثل طموح هذا الرجل! فالكثيرون من شيوخ الأزهر كانوا قد شغلتهم عائداتهم المالية من «دوائر الالتزام» و «نظارات الأوقاف»، حتى غدوا رجال دنيا، إن لم نقل طلاب ترف دنيوى، يقترفون فى سبيل تحصيله ما لا يليق بعلماء الدين، فضلاً عمن يتصدى منهم لقيادة الإصلاح! وفى وصف الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ =

١٧٥٤– ١٨٢٢م] لحالهم هذا يقول– وهو الشيخ فى الدين.. وفى التاريخ الصادق!–: «إنهم افتتنوا بالدنيا، وهجروا المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس، مع ترك العمل بالكلية، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد أمراء المماليك، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية، والحصص، والالتزام، وحساب الميرى، والفائض، والمضاف، والرماية، والمرافعات والمراسلات.. زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور، وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية؟!..»[1].

٣– حتى الرجل الذى تميز عن هؤلاء العلماء والشيوخ بالثورية، والارتباط بالجماهير، وهو السيد عمر مكرم [١١٦٨– ١٢٣٧هـ =١٧٥٥ – ١٨٢٢م] كان حاله وحال محمد على باشا على نحو يجعل التعاون بينهما شبه مستحيل، فطموحهما معًا كان بلا حدود، الأمر الذى جعل صدامهما يأتى مبكرًا جدًا!.. فلما خذل الشيوخ زميلهم السيد عمر، وباعوه «بالجرايات» ونظارات الأوقاف، مال هو كذلك إلى نصرة المماليك، كشركاء فى «لعبة السلطة»، كى يحول دون انفراد محمد على بها، فحدثت المفارقة العجيبة عندما انتصر الشيخ الثائر لأركان النظام الظالم القديم، وهو الذى سبق له أن قاد الأمة ضد هذا النظام القديم! فكان أن

---

(١) [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج٧ ص ١٤ ، ١٥ – طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.

تخلص منه محمد على بقرارات وافق عليها «العلماء»، و«محاضر» تطوع بتزييفها هؤلاء العلماء»[1]!

٤- والفكرية المحافظة والجامدة التى كان عليها هؤلاء الشيوخ.. فكرية العصور الوسطى، التى استنامت إلى غلق باب الاجتهاد، واستمرأت الكسل العقلى عن معاناة الخلق والإبداع، واكتفت بالحكاكات اللفظية فى ترديد «المتون» و«الحواشى» و«الشروح» و«التعليقات» و«التلخيصات» و«الاعتراضات».. إلخ.. إلخ.. إن هذه الفكرية ما كان لها ولا لأصحابها أن يكونوا شرارة الإصلاح ولا قادته الذين يجعلون من فكرهم «أيديولوجية» النهضة، ومن قائد مثل محمد على اليد التى تزرع الإصلاح الإسلامى فى تربة مصر وعقل الأمة ووجدانها.. لقد كان هؤلاء الشيوخ يعيشون أسرى فكرية العصر القديم.. بينما كانت البلاد تتطلع إلى عصر جديد، فكان الانفصام بينهم وبين هذه النهضة قدرًا مقدورًا.. وصدق عليهم، إزاء «الإصلاح المدنى»، ما صدق على محمد على، إزاء «الإصلاح الدينى» : فاقد الشىء لا يعطيه!

هكذا تميزت نهضة محمد على عن حركات الإصلاح الدينى ودعواته.. لأنها لم تجد المصلح الدينى، الذى تواكب استنارته الدينية مجتمعًا متحضرًا كمصر.. فكان أن بدأت نهضة «إصلاح مدنى»، إن فى المنطلقات وإن فى المعايير وإن فى الغايات وإن فى الأدوات.. وإن لم يخرجها طابعها «المدنى» عن النسق الحافظ لاستمرارية روح شريعة الإسلام.

(١) المصدر السابق ج٧ ص ٦٧ – ٧٦ .

■ فى القاعدة المادية «للتمدن»، انتقلت نهضة محمد على بمصر إلى مرحلة جديدة، وبلغت بها «كمية» الإصلاحات إلى حال «كيفى» جديد..

ففى الزراعة: ألغى نظام «الالتزام» [١٢٢٩هـ -١٨١٤م].. ووزعت الأرض على الفلاحين «تكليفا» - من ثلاثة أفدنة إلى خمسة أفدنة - وسيطرت الدولة، بالتخطيط، على الإنتاج الزراعى، وتطورت المحاصيل.. وحدثت ثورة فى الرى والصرف، وزادت الرقعة المزروعة، أفقيًا، إلى نحو ثلاثة أمثالها.. وتحول أهل الريف من «أقنان» إلى فلاحين!

وفى التجارة: أنهت سيطرةُ الدولة سيادة التجار الأجانب على السوق الداخلى والخارجى للتجارة المصرية.. وسُدَّت ثغرةُ ضعف البورجوازية التجارية الوطنية، التى نفذ منها التجار الأجانب للسوق التجارى.. وتطورت التجارة كمًا وكيفًا.. وخضعت للمشروع الاقتصادى المستقل.

وفى الصناعة: أقامت النهضة قاعدة صناعية كبرى وحديثة، ومرتبطة بالإنتاج الوطنى - عسكرية ومدنية.. برأسمالية الدولة، وتخطيطها، وإدارتها.. وكانت سابقة فى ذلك، كمًا وكيفًا، لليابان، وللولايات الألمانية مجتمعة- ولم تكن قد اتحدت هذه الولايات الألمانية، بعد!

وفى جهاز الدولة: بدأت البعثات العلمية، التى درست «التمدن الأوربى» فى النهوض بتكوين جهاز دولة حديث.. وفى تطوير

الثقافة العربية الإسلامية، وريادة بعث التراث وإحيائه، ومواصلة المسيرة التى توقفت بسيادة عصر الجمود الحضارى.. ووضح لرواد الثقافة والفكر هؤلاء أنهم يواصلون، فى عهد محمد على، مهام نظرائهم فى عصر الخليفة العباسى المأمون [١٧٠ - ٢١٨هـ = ٧٨٦-٨٣٣م]. كما تكون الجيش الوطنى الحديث سنة [١٢٣٥هـ - ١٨٢٠م] لحماية النهضة، وتمهيد السبيل أمامها كى تأخذ مداها..

وفى الفكر: بدأت العربية تتجاوز منحدر الركاكة وتتجه، عائدة، إلى الفصاحة.. وشرعت المكتبة العربية تزدان بذخائر التراث العربى الإسلامى التى جاورت المترجمات الحديثة فى مختلف العلوم والفنون.. وتحركت طاقات الإبداع الفكرى لتصنع- على الجبهة الفكرية - شيئًا عظيمًا ومتميزًا..

فكان هذا جميعه - وهو مجرد إشارة لصرح عملاق - إنجازًا غير عادى على درب التمدن الحديث..

* * *

■ وانتقلت النهضة من «الإطار العثمانى» إلى «الدائرة العربية»، ببطء وتدريج.. فمحمد على والعديد من كبار معاونيه هم «عثمانيون» غير عرب، إن بالجنس وإن بالثقافة.. لكنهم تناقضوا مع الدولة العثمانية، ورأوا أن ضعفها، المستعصى على العلاج، يغرى حراس هذا الضعف من المستعمرين الأوربيين بوراثة تركتها، فسعوا إلى تجديدها، فتحالفت مع حراس ضعفها الطامعين بوراثتها، ضد محاولات الإصلاح؟!

ثم هى قد استعانت بمحمد على وجيشه لمحاربة الوهابيين، فانغمس بجيشه هذا فى حرب عربية، ببلاد عربية تسع سنوات [١٢٢٦- ١٢٣٤هـ = ١٨١١ - ١٨١٨م].. وأصبح بانتصاره فى هذه الحرب، هو الحامى الحقيقى للحرمين الشريفين!.. فتطلع- بمصر وإمكاناتها - إلى الشام، ولاحت فى الأفق خريطة دولة صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ - ٥٨٩هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣م] التى كانت طوق النجاة من خطر قديم عاد الآن من جديد!

ثم إن البعثات العلمية قد كونت كوادر عربية للدولة، أخذت تزامل كوكبة القادة الذين أتوا مع محمد على إلى مصر صغارًا، فنشئوا فيها نشأة عربية، جعلتهم يعتزون بالعروبة، وينفرون من الانتساب إلى الأتراك.. وفى مقدمة هؤلاء القادة ابن محمد على، إبراهيم باشا [١٢٠٤- ١٢٦٤هـ =١٧٩٠ - ١٨٤٨م] الذى كان يستنكر نسبته التركية، ويقول: «أنا لست تركيًا، فإنى جئت مصر صبيًا، ومنذ ذلك الحين مصرتنى شمسها، وغيرت من دمى، وجعلته دمًا عربيًا!»[1].

ومصطفى مختار بك [١٢٥٤هـ - ١٨٣٨م] - أحد كبار مستشارى إبراهيم باشا العسكريين.. وناظر المعارف- الذى يعبر عن هذه «الهُوية العربية» عندما يقول: «إننا وإن كنا فى الغالب مولودين فى تركيا، لكننا قد اكتسبنا الجنسية [القومية] المصرية بحكم التوطن.. فقد جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا، فلسنا

(١) د. محمد عمارة [العروبة فى العصر الحديث] ص ١٤٦- طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

الآن أتراكًا، ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذى لا يترك فى طريقه أينما سار سوى دلائل الخراب.. ولقد اندمجنا فى أمة أخرى أرقى وأنبل وأذكى من الأمة التركية، اندمجنا فى تلك الأمة العربية، التى سبقت أوربا إلى الحضارة، وازدانت أيام عزها وسؤددها بذلك العمران الذى يتجلى للناظرين فى المدن الزاهرة التى أنشأتها، والعمائر الجميلة التى أقامتها..»[1].

وبذلك تهيأت لهذه النهضة عوامل الانتقال من «الدائرة العثمانية» إلى «الدائرة العربية»، فسعت إلى قيام الدولة العربية، بإحياء القومية العربية، وجعل العربية هى الخط الذى يحدد حدود هذه الدولة!.. لتنقذ وطنها وأمتها من الخطر المتربص بوفاة دولة الرجل المريض![2].

وكانت فتوحات محمد على فى السودان [١٢٣٥ - ١٢٣٧هـ = ١٨٢٠ - ١٨٢٢م].. والحملة على الشام [١٢٤٧هـ - ١٨٣١م]، وشمول النهضة ودولتها: مصر والسودان، والأجزاء العربية على الساحل الشرقى لإفريقيا، مع الشام، وأغلب أجزاء شبه الجزيرة العربية.. وامتداد نفوذها إلى العراق والخليج.. كان ذلك أول «إنجاز عربى» فى عصرنا الحديث!

* * *

■ لكن.. ماذا عن علاقة هذه النهضة بالإسلام: الرسالة الخالدة لأمتنا الواحدة؟

---

(١) المرجع السابق. ص ١٤٦، ١٤٧.

(٢) المرجع السابق. ص ١٣٥ - ١٤٧.

هل انقطعت الصلة بين «تمدنها» وبين «التمدن الإسلامى»؟.. وهل كانت صورة «للتمدن الغربى»، أدخل بها محمد على بلادنا وأمتنا فى إطار «التغريب»؟

إن البعض يرى ذلك، فيجيب على هذا التساؤل بالإيجاب.. لكنه - فى رأينا - يجانب الواقع، ويجانبه الصواب!

فمنذ البداية كان واضحًا أن محمد على باشا يأخذ عن أوربا «التمدن» الملائم لمجتمعه الشرقى.. ولا يأخذ عنها «القيم» أو «الثقافة» أو «النظريات»! والبعثات العلمية التى ذهبت إلى أوربا، وتعلمت، ثم عادت لتصنع الإنجاز العظيم ولتعطى النهضة روحها الفكرى- ورفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١- ١٨٧٣م] نموذج لها - قد رأت أوربا بعين إسلامية مسلمة. فسعت إلى «التمدن العملى» والى «العلوم العملية» والى «المعارف البشرية المدنية» والى «فنون الصناعة»، ثم جاءت بها لتجدد «دنيا» الأمة، مجتهدة فى إثبات عدم مناقضة هذه العلوم لما تختص به من «قيم» و«عقائد» وقسمات حضارية مميزة لنا.. بل وأعلنت أن أصل هذا «التمدن البشرى» هو من علوم حضارتنا فى عصر ازدهارها، أخذه الأوربيون فنهضوا به، ثم طوروه.. وهم عندما أخذوا منا لم يأخذوا «القيم» ولا «الدين» ولا خصائصنا الحضارية، بدليل أنهم استعانوا «بالتمدن الإسلامى والعربى» فى نهضتهم، ومع ذلك ظلوا متميزين حضاريًا.. فنحن إذ نأخذ اليوم «التمدن الأوربى» لننهض به لن نصبح فى الحضارة أوربيين.. وما هى إلا بضاعتنا قد ردت إلينا.. كما يقول الطهطاوى!

ويشهد على أن هذا كان موقف هذه النهضة من هذه القضية ذلك الحكم الذى شاع فى كتابات كتاب تيار «التغريب»، عند تقييم نهضة محمد على.. فلقد انعقد إجماعهم على نقده لأنه قد أخذ عن أوربا فقط «علوم الصنعة»، ولم يأخذ «القيم» و«النظريات»، ونظروا فى تخصصات البعثات العلمية التى أرسلها لتتعلم هناك فوجدوا ذلك شاهدًا لهم على هذا الاتجاه، فزادوا من نقدهم هذا!

وهذا الذى نقدوه وانتقدوه، هو ما يشهد عندنا للرجل والنهضة التى قادها، دون أن يشهد عليهما!

وغير هذا الدليل، الذى يشهد «بالسلب» على ما نقول.. نجد فكر رفاعة الطهطاوى- الذى كان النموذج المجسد لنوعية العلاقة بين «تمدننا الإسلامى» وبين «التمدن الأوربى»- نجد فكر الطهطاوى يشهد على ما نقول «بالإيجاب»!

لقد انفتح الرجل على «التمدن الأوربى» كل الانفتاح، وأنجز على درب الاستفادة منه أعظم الإنجازات، وذلك دون أن يفقد هويته القومية والشرقية، وقيمه الإسلامية الخاصة- بل والأشعرية المحافظة! أو يفقد خصائصه الحضارية العربية الإسلامية.

فهو يتحدث عن أن «البلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب، التى لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران!»[1].. ويدعو -حتى طلاب الأزهر الشريف- إلى دراسة ما

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج١ ص٩٩ - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

تتيحه لنا الحضارة الأوربية من «معارف بشرية مدنية» و«علوم حِكْمِيَّة عملية»، لأن النهضة الحقيقية لابد لها من هذا «التمدن المدنى»، الذى سيصبح «تمدنًا إسلاميًا» عندما يجاور -فى أرض الواقع الناهض- عقائدنا وقيمنا وخصائصنا الحضارية.. يدعو رفاعة الطهطاوى الأزهريين إلى ذلك، بل ويرى هذا الأمل معقودًا على انخراطهم فى هذا الميدان، فهم، بعلومهم الإسلامية- لغوية، ودينية، وأدبية- الذين سيحققون التوازن، فلا تميل الكفة بالتدريج إلى صالح «التغريب الحضارى»!

يقول الطهطاوى: «إن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط، بعد ولى الأمر، بهذه العصابة- [أهل الأزهر] - التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة: معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية.. وإن هذه العلوم الحِكْمِيَّة نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة!..»[1].

لقد سمع الطهطاوى، فى باريس، ووعى قول المسيو جومار E.F.Jomard [١٧٧٧ - ١٨٦٢م] - الذى أشرف على بعثات مصر العلمية فى فرنسا- عندما خطب فى البعثة التى ضمت رفاعة، فقال لطلابها: «إنكم منتدبون لتجديد وطنكم، الذى سيكون سببًا فى تمدين الشرق بأسره.. فيا له من نصيب ترقص

(١) المصدر السابق، ج١ ص ٥٣٣ , ٥٣٤.

له طربًا القلوب التى تحب الفخر وتدين بالإخلاص للوطن. أمامكم مناهل العرفان، فاغترفوا منها بكلتا يديكم.. وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التى ازدان بها عدة قرون فى الأزمان الماضية. فمصر، التى تنوبون عنها، ستسترد بكم خواصها الأصيلة. وفرنسا، التى تعلمكم وتهذبكم، تفى ما عليها من الدين الذى للشرق على الغرب كله!»[1].

سمع الطهطاوى هذا القول ووعاه.. فكان، مع جيله من بناة النهضة، المجددين لدنيا الوطن، والباعثين لمجده، «والمستردين لخواصه الأصيلة».. على حد تعبير «جومار»!

ولهذا وجدنا الطهطاوى- فى ذات الوقت الذى يدعو فيه إلى هذا «التمدن المدنى» - يتحفظ كل التحفظ على ما يناقض مميزاتنا الحضارية فى حضارة أوربا.. فحضارتنا، مثلاً، قد وازنت بين «العقل» وبين «النقل».. بين «التوحيد» - الألوهية - وبين «الطبائع» - العلِّيَة والسببية -.. لكن عقلانية الحضارة الأوربية، و«الحق الطبيعى» فيها لا يعرف هذا التوازن، الذى هو روح حضارتنا ومزاجها.. ومن هنا كان رفض الطهطاوى لتلك «القسمات الحضارية» الأوربية.. وهو يحكى كيف أن للأوربيين فى العلوم الفلسفية «حشوات ضلالية، مخالفة لسائر الكتب السماوية، ويقيمون عليها أدلة يعسر على الإنسان ردها!! إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع.. وليس لنا أن نعتمد على ما

(١) عمر طوسون [البعثات العلمية فى عهد محمد على، ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد] ص ٣٣، ٣٤ - طبعة الإسكندرية سنة ١٩٣٤م.

يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع!..»[1].

فـ «العقل» الذى يتحفظ الطهطاوى، هنا على تحسينه أو تقبيحه للأشياء - ما لم يؤيد الشرع حسنها أو قبحها - هو «العقل» فى الحضارة الأوربية، المنكر «للنقل»، والذى لا يقيم من «الوحى» إطارًا يتحرك فيه.. أما «العقل» فى حضارتنا العربية الإسلامية، ذلك الذى زامل «النقل» وتآخى معه فى الهداية للإنسان، بالتوازن الذى أثمره إخاؤهما، فهو ما تتميز به حضارتنا وتمتاز.. ولسنا مدعوين، من قبل الطهطاوى والنهضة التى كان علمًا عليها، إلى التخلى عن هذا الذى يميزنا، حضاريًا، عن الأوربيين..

* * *

لكن...

لابد من الاعتراف بأن الأمور لم يكتمل سيرها فى هذا الاتجاه..

«فالمؤسسة الدينية» - المفترض تعبيرها عن مقاييسنا الإسلامية! - قد تحصنت بفكرية العصور المظلمة، ورفضت النهضة وتمدنها.. والدولة الحديثة قد خشيت فرض الإصلاح والتطوير داخل صحن الأزهر وحصنه.. فتركت أهله وشأنهم، وأقامت «التعليم المدنى» الذى ابتعد شيئا عن الصلات القوية والخيوط المتينة التى تشده إلى الإسلام وتراثه..

والغرب قد رمى بكل ثقله فى بث إشعاعاته الفكرية، فازداد تأثير «قيمه» و «ثقافته» وحضارته على مؤسسات الفكر

---

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج١ ص ١١٤، ١١٥.

والعلم والتعليم فى بلادنا.. بل لقد تحالف العثمانيون مع الغرب ضد طموح نهضتنا إلى استكمال مقومات استقلالها الحضاري، عندما استعانوا بالاستعمار على ضرب استقلال «المشروع المصرى - العربى» منذ سنة ١٨٤٠م!

ثم كانت منعطفات حاسمة، ومراحل تحولات أساسية احتاجت فيها «الدولة» - كى تستجيب لضرورات الواقع الجديد- إلى تجديد الفكر الإسلامي، بالاجتهاد، وإلى تطوير «الفقه» - فقه المعاملات لتتمكن «المؤسسة القانونية» من الفصل فى المعاملات التى استجدت، كما حدث فى عصر الخديوى إسماعيل [١٢٨٠ - ١٢٩٦هـ = ١٨٦٣ - ١٨٧٩م].. ويومها جمد أركان «المؤسسة الدينية»، فلم يستجيبوا لرغبة «الدولة»، بل لقد اعتبروا ذلك مما لا يحل ولا يجوز؟!.. فكان أن لجأت «الدولة» إلى القوانين الوضعية الغربية فاستوردتها، الأمر الذى أفقد مؤسساتنا القانونية استقلالها، وأفقد حضارتنا شرطًا من شروط الاستقلال.. وكان ذلك نموذجًا لميل الكفة، فى هذه النهضة، نحو «التغريب»، وبعدها عن الوفاء الحق بمتطلبات الاستقلال الحضارى الحق!.. لقد فتح «كود نابليون» و«المحاكم المختلطة» ثغرة فى استقلالنا التشريعى، منذ الاحتلال الإنجليزى، وعلى يد «كرومر» فى سنة ١٨٨٣م.

إن المفكر السلفى ابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١هـ = ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] يحكى لنا عن عصره المملوكى موقفًا مماثلاً! فيصور فى كتابه [إعلام الموقعين] كيف ألجأ جمود القائمين

على الشريعة الإسلامية الملوك والولاة إلى التشريع للناس وفق الهوى والشهوات؟![1].

ولقد تكرر هذا المشهد فى عصر الخديوى إسماعيل.. وظل يتكرر كلما تحصن «أهل الذكر» – من علماء الشرع– بالجمود، فعاشوا خارج العصر.. على حين أخذ الغرب الاستعمارى يسارع فى تقديم بضاعته الجاهزة والمنسقة للحكام الشرقيين، ويبذل قصارى جهده لتكون هذه البضاعة هى البديل الذى يوضع فى التطبيق!..

* * *

هكذا سارت الأمور.. حتى دخلت أمتنا إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر..

■ الحركات الإصلاحية الدينية السلفية: منعتها البداوة.. بداوة البيئة من أن تولى «التمدن» ما يجعله النموذج الصالح للتعميم والوافى باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوربية المسلحة بحضارتها الحديثة، وأيضًا الوافى باحتياجات أمة تريد تعويض التخلف، وتحصين وطنها لمجابهة ما يأتى به المستقبل من تحديات..

■ ونهضة محمد على– وخاصة بعد حصارها، وفرض القيود على استقلاليتها – قد حرمتها المحافظة الدينية والجمود الأزهرى من فرصة تأسيس «تمدنها» على أسس إسلامية خالصة.. فنفذ الغرب من هذه الثغرة، فمال «تمدن» هذه النهضة ناحية «التغريب»، فلم يكن الاستقلال الحضارى الذى نريد!

(١) [إعلام الموقعين] ج٤ ص٣٧٢ ، ٣٧٣– طبعة بيروت سنة ١٩٧٣.

فكان أن ظلت الأمة تبحث عن التيار الفكرى الذى يجمع، فى أطروحته كل فضائل النهضة الحضارية، وجميع شروط استقلالها.. وعندما تبلور هذا التيار فى دعوة [الجامعة الإسلامية] وحركتها، التى قادها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، حاربه دعاة «التغريب»، وأنصار «الجمود» معًا!

وحالوا بين فكره فى النهضة وبين أن ينتشر أو يوضع فى التطبيق!

لكن ذلك لم يمنع من أن يكون هذا التيار - «السلفى - العقلانى - المستنير» - هو أكثر تيارات التجديد، التى عرفتها أمتنا حديثًا، استجابة لمتطلبات الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية.



تيار الجامعة الإسلامية والاستقلال الحضارى

أعلام هذا التيار:

أعلام تيار [الجامعة الإسلامية] كثيرون، وانتشارهم، بالذات أو بالفكر، قد غطى أنحاء الوطن العربى والعالم الإسلامى، وقد يتميز واحد منهم بقسمة فكرية عن آخر، وقد تدعو البيئة أو الأولويات أو طبيعة التحديدات إلى أن يكون تركيز بعضهم على قضايا بعينها دون القضايا الأخرى، لكنهم، فى مجموعهم، قد جمعتهم القسمات العامة التى ميزت هذا التيار التجديدى عن غيره من التيارات..

■ وأول أعلام هذا التيار هو جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٣م].. عربى النسب - وإن ولد ونشأ فى بلاد الأفغان - فنسبه يرجع إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما.. وعربى العقل والفكر منذ نشأته الأولى، فقبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره كان قد درس: علوم العربية، والتاريخ، وعلوم الشريعة، من تفسير وحديث وفقه وأصول، وكلام وتصوف، والعلوم العقلية، من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية تهذيبية، وحكمة نظرية، طبيعية وإلهية،

والعلوم الرياضية، من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك، ونظريات الطب والتشريح!

وهو سنى المذهب، فى نشأته، توثقت علاقاته الشخصية والفكرية بعلماء الشيعة وفكرها ومراكزها، بالعراق، منذ صدر شبابه.. فلما تبلورت دعوته للتجديد واليقظة، كان عقله قد وصل به إلى حيث أصبح فوق المذاهب التى فرقت المسلمين، لأن سلفيته فى الدين تسبق المذاهب، وعقلانيته ترفض البقاء فى أسر خلافاتها التى تجاوزها العصر، واستنارته تراها عقبة أمام ما يريد تحقيقه لأمته من نهضة وانطلاق..

وكان عداؤه للاستعمار مبكرًا.. ولم يكن بالعداء الفكرى والنظرى فقط، فلقد انخرط منذ شبابه فى التيار الوطنى الأفغانى الذى قاده الأمير محمد أعظم خان لمناوأة النفوذ الإنجليزى الطامع فى أفغانستان. ووصل جمال الدين فى هذا النشاط الوطنى إلى منصب «الوزير الأول» فى البلاد، وقاد معارك حربية ضد المتعاونين مع الإنجليز، الذين تزعمهم الأمير شير على.. فلما انتصر خصومه، اضطر للسفر للهند سنة [١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م].

فلما ضيق عليه الإنجليز فيها الخناق، بدأ رحلته إلى الوطن العربى، فوصل إلى مصر سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م.. ثم الآستانة.. ثم رجع إلى مصر فأقام بها قرابة تسع السنوات [١٢٨٨ - ١٢٩٦هـ = ١٨٧١ - ١٨٧٩م] كانت أخصب فترات حياته الفكرية والنضالية، وفيها تبلور تياره ومذهبه فى اليقظة والثورة والتجديد.

ففيها أملى على تلاميذه الأمالى والتعليقات التى شرح بها كتبًا قديمة فى الفلسفة الإسلامية.. وكان عهد مصر قد انقطع بهذا اللون من ألوان الفكر منذ أن زالت الدولة الفاطمية، وأحلت «دول العسكر» تكايا الصوفية وخوانقها والمدارس الأشعرية محل [دار الحكمة] و[مجالس الدعاة] ومنهاج [الأزهر] العقلانى!

وفيها أنشأ ورعى تيار الصحافة غير الحكومية، وكانت من قبله حكومية فى الأساس، فكانت صحف: [مصر] التى رأسها أديب إســــحـــاق [١٢٧٢ - ١٣٠٢هـ = ١٨٥٦ - ١٨٨٥م] و[التجارة] التى رأسها سليم نقاش، طليعة الصحافة الشعبية فى البلاد.. وكان الأفغانى يكتب فيها بتوقيع: «مزهر بن وضاح»!.. كما كان يملى على تلاميذه مقالات ينشرونها بأسمائهم، حتى نشأت من حوله كوكبة من الكتاب الشباب، جددت أساليب العربية فى الإنشاء، وأدخلت فيها فن «المقال» الحديث!

وفيها تبلور من حوله التيار الشعبى فى التنوير.. ومن قبله كان جهاز الدولة المصرية هو المصدر الوحيد للتنوير.. وفيها كانت التربة الخصبة التى استقبلت بذور أفكاره أطيب استقبال، حيث نبتت ونمت وأينعت، وآتت من الثمار ما لم تؤت فى بلد آخر أقام فيه هذا الفيلسوف العظيم.

وفيها أنشأ [الحزب الوطنى الحر] الذى جمع تلاميذه وأنصار دعوته، وهو الحزب الذى قاد الثورة العرابية.. وبعد هزيمتها هيأ نفر من بنيه لنشأة [الحزب الوطنى] الذى قاده مصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦هـ = ١٨٧٤ - ١٩٠٨م] ونفر آخر منهم انضم

إلى جمعية [العروة الوثقى] السرية، التى قادها الأفغانى، وأصدر مجلتها من باريس..

ولما نفى جمال الدين من مصر، بإيعاز من القناصل الأوربيين للخديو توفيق [١٢٩٦هـ -١٨٧٩م]، ذهب إلى الهند.. وهناك منع من الحركة حتى تمت هزيمة العرابيين، فسافر إلى باريس [١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م] ثم إلى لندن.. ثم عاد إلى باريس فأصدر مجلة [العروة الوثقى] ومعه الشيخ محمد عبده.. فلما توقفت ذهب إلى شبه الجزيرة العربية فموسكو، فميونيخ، فإيران ثانية [١٣٠٧هـ - ١٨٩٠م]، فالعراق [١٣٠٨هـ - ١٨٩١م]، فلندن..

وفى كل هذه المواطن لم يعرف الرجل لنفسه حرفة سوى حرفة الثورة على البالى، والدعوة إلى اليقظة والتجديد، ولم يتخذ لنفسه أسرة سوى الأنصار والتلاميذ الذين أعدهم ودفع بهم فى الصراع ضد الزحف الاستعمارى الغربى، الذى كان يحث الخطا لالتهام بلاد العرب وأقطار الإسلام.. وظل ذلك شأنه حتى نجح السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م] فى استقدامه إلى الآستانة [١٣١٠هـ - ١٨٩٢م]، وهناك أحاطه بالعيون والجواسيس، فعاش فى «قفص السلطان الذهبى» حتى فاضت روحه إلى بارئها [١٣١٤هـ -١٨٩٧م][١].

■ وثانى أعلام هذا التيار: الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]، الذى تتلمذ على الأفغانى، ثم

(١) انظر دراستنا عن حياته فى تقديمنا لأعماله الكاملة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

فاقه فى التركيز على الإصلاح الدينى، وإن لم يبلغ شأن أستاذه فى الفكر السياسى.. وهو فلاح مصرى، فقير فى المال، بلغ بعقله وفكره إلى مكان هابته فيه الملوك، فقال عنه خصمه الخديو عباس حلمى الثانى [١٢٩١-١٣٦٣هـ = ١٨٧٤- ١٩٤٤م]: «إنه يدخل علىَّ كفرعون!».. وداعبه أستاذه الأفغانى متسائلا: «قل لى: ابن أى ملك من الملوك أنت؟!».

دخل الأزهر صغيرًا، فصده عن علومه جمود شيوخه وعقم وسائل التعليم فيه.. ثم أعانه نهج الصوفية المتنسكين على مواصلة الدراسة.. حتى كان لقاؤه بالأفغانى [١٢٨٨هـ - ١٨٧١م] فحدث له التحول الكبير.. فمن التصوف النسكى تحول إلى التصوف الفلسفى.. ومن أفق طلاب الأزهر المحدود انطلق إلى حيث استشرف الآفاق التى كان يستشرفها أستاذه.

وفى صحبة الأفغانى بمصر، كان أبرز مريديه.. ثم أصبح بعد نفيه «روح الدعوة» إلى التجديد.. وأسهم، من موقع الاعتدال، فى الثورة العرابية.. ثم نفى فيمن نفى من قادتها، فعاش زمنًا بباريس، يحرر [العروة الوثقى]، وينوب عن الأفغانى فى رحلات سرية لشئون الجمعية التنظيمية.. ثم أقام ببيروت.. فلما سمح له بالعودة إلى مصر، هجر العمل السياسى، وركز على محاولة إصلاح المؤسسات الإسلامية: الأزهر، والأوقاف، والقضاء الشرعى، مع التركيز على التجديد الدينى بتحرير العقل المسلم من أسر التقليد، وتجديد اللغة العربية وتطويرها.. ولقد أصاب الكثير من النجاح فى العديد من الميادين.. ولكن صدامه مع الخديوى عباس حلمى أعاق الكثير من مشروعاته الإصلاحية، كما أن

جمود أغلب شيوخ الأزهر قد منع جهوده الإصلاحية من بلوغ ما أراد لها فى إصلاح الأزهر، حتى لقد مات كمدًا بسبب هذا الإخفاق [١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م]!![١].

■ وفى المشرق العربى كان عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ = ١٨٥٤ - ١٩٠٢م] من أبرز من مثلت أفكاره القسمات الفكرية لهذا التيار.. وهى الأفكار التى خلفها لنا فى كتابيه [أم القرى] و [طبائع الاستبداد].

ولقد ولد الكواكبى فى حلب، لأسرة كانت فيها نقابة الأشراف قبل أن يغتصبها منها الشيخ أبو الهدى الصيادى [١٢٦٦ - ١٣٢٧هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٩م].

وفى [١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م] أصدر الكواكبى صحيفة [الشهباء]، أول صحيفة عربية تصدر فى ولاية حلب.. فلم يمهلها العثمانيون أكثر من خمسة عشر عددًا.. فأصدر فى العام التالى، جريدة [الاعتدال].. ولقد أوصله نضاله إلى هجران الوظائف، وإفلاس التجارة، وتعريض حياته للخطر.. ثم قاده إلى السجن [١٣٠٣هـ -١٨٨٦م]، فلما اضطر العثمانيون إلى الإفراج عنه تحت ضغط جماهير الولاية، أطلقوا سراحه، ثم عادوا لإلقاء القبض عليه، ولفقوا له الاتهام بالاتصال بدولة أجنبية، وحكموا بإعدامه!.. ولكن الجماهير عاودت ضغطها، فأجبرت العثمانيين على إعادة محاكمته خارج الولاية، فعرضت القضية على محكمة بيروت، التى حكمت ببراءته!

---

(١) انظر دراستنا عن حياته فى تقديمنا لأعماله الكاملة ج١ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

وفى تلك الأثناء كان الكواكبى قد أنشأ [جمعية أم القرى]، وهى الجمعية التى عقدت مؤتمرها السرى بمكة، والتى أصبحت مداولات مؤتمرها هذا أساس كتابه [أم القرى]، وفى هذا المؤتمر حضر ممثلون للبلاد العربية والإسلامية وللجاليات الإسلامية التى تعيش خارج العالم الإسلامى.

ولما أضحت حياة الكواكبى مهددة فى حلب، قرر الهجرة منها إلى مصر، فوصل إليها سرًا [١٣١٦هـ - ١٨٩٩م].. وفى مصر أفاد من تناقضات كانت بين حكومتها والدولة العثمانية يومئذ، فنشر كتابيه، فصولاً فى الصحف، ثم جمع الفصول فصدرت فى الكتابين.. ومنها قام برحلة إلى بلاد المشرق العربى، والمناطق العربية والمسلمة فى إفريقيا.

وبعد نحو أربع سنوات فاضت روحه إلى بارئها، بمؤامرة دس فيها السم له جاسوس من جواسيس السلطان عبد الحميد، فكان استشهاده [١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م][١].

■ أما فى المغرب العربى، فإن الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥- ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] يعد أبرز ممثلى هذا التيار.. وهو من مواليد قسطنطينة، بالجزائر، وفيها تعلم علوم العربية والإسلام، ومن شيوخه فى تلك المرحلة: الشيخ حمدان الونيسى، الذى أخذ عليه عهدًا أن يقاطع الحكومة الاستعمارية، فالتزم العهد، وصار يأخذه على تلاميذه فيما بعد!

---

(١) انظر دراستنا عن حياته فى تقديمنا لأعماله الكاملة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م.

وفى التاسعة عشرة من عمره [١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م] ذهب إلى جامعة الزيتونة، بتونس، فدرس فيها ما لم يكن يستطيع أن يدرسه بالجزائر فى ظل الاستعمار الفرنسى، الذى كان يحرم العربية ويطارد السمات القومية للجزائريين كى يسحقها، وليجعل منهم فرنسيين «مسلمين»، ومن وطنهم الامتداد الفرنسى، عبر البحر المتوسط، فى القارة الإفريقية!

وفى [١٣٣٠ - ١٩١٢م] سافر، حاجًا، إلى الحجاز.. وهناك التقى بعدد من الشيوخ الجزائريين الذين هاجروا وجاوروا بمكة والمدينة، فعرض عليه بعضهم أن يجاور -مثلهم- الحرمين الشريفين، ولكنه كان قد شرع يفكر فى مقاومة الاستعمار الفرنسى بالجزائر، فرفض الهجرة، وقال: «نحن لا نهاجر»، وقبل عودته إلى الجزائر اتفق مع الشيخ البشير الإبراهيمى على خطة لتنفيذ البرنامج الذى لخصته كلماته هذه.. وكانت الخطة هى إعداد جيل من الرجال الذين يواجهون محاولة السحق القومى فى الجزائر، ويعيدون الجزائر إلى «العروبة والإسلام والقومية».. رجال «يملكون وضوحًا فى الهدف، وفكرة صحيحة توصل إليه، حتى وان كانوا ذوى علم قليل! ويعرفون حدود غاياتهم، التى تنتهى عند تسليم الأمانة لجيل ثان يعلن الثورة، ويستخلص الاستقلال من المستعمرين!».

ولقد مكث ابن باديس ثمانية عشر عامًا يعد هذا الجيل، قائلاً: أنا لا أؤلف الكتب، وإنما أريد صنع الرجال!.. فكان يعظ فى المساجد، ويفسر القرآن، ويعلم العربية للأطفال، ويجوب القرى

والمدن ويصعد الجبال، فاجتمع له من [١٣٣١هـ - ١٩١٣م] حتى [١٣٣٦هـ - ١٩١٨م] ألف من هؤلاء الرجال!

وعندما أقامت فرنسا احتفالاتها الصاخبة والاستفزازية، بمناسبة مرور قرن على احتلالها للجزائر [١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م] كان رد ابن باديس هو إعلان المشروع الذى خطط له منذ [١٣٣٠هـ - ١٩١٢م]، فقامت [جمعية العلماء المسلمين الجزائريين] فى [ذى الحجة ١٣٤٩هـ - مايو سنة ١٩٣٠م] حاملة رسالة العودة بالجزائر إلى هويتها العربية الإسلامية، وممهدة الطريق لجيل الثورة المسلحة على الاستعمار.

وكانت «الطرق الصوفية» سندًا أساسيًا للسلطة الاستعمارية بالجزائر، فحاربها ابن باديس منذ سنة [١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م]، وتعرض بسبب ذلك لمحاولة اغتياله [١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م].

وفى [١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م] بدأ نشاطه الصحفى.. فشارك فى تحرير صحيفة [النجاح].. ثم أصدر مجلة [المنتقد] سنة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م، وكان شعارها: «الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شىء!»، فعطلها الاستعمار بعد ثمانية عشر عددًا.. لكنه عاد فأصدر صحيفة [الشهاب]، أسبوعية، ثم شهرية.. كما أصدر صحفًا أخرى تعرضت للمصادرة والإلغاء، منها [الشريعة]، و[السنة المحمدية] و[الصراط].

وقبل أن ينتقل ابن باديس إلى جوار ربه فى [ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ - إبريل سنة ١٩٤٠م] كان قد وضع وطنه بيد الجيل الذى أعاده إلى أحضان العروبة والإسلام، والذى صنع جيل الثورة

المسلحة التى تفجرت ضد فرنسا [١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م] وحقق بدماء «المليون شهيد» استقلال الوطن الجزائرى العربى المسلم سنة [١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م]. فتحقق الهدف الذى رسمه ابن باديس، بمكة، قبل نصف قرن، يوم قال: «نحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية فى هذا الوطن!».. فأثبت أن الإسلام والعربية والقومية لن تضيع، ولن يضيع من أحضانها الوطن إذا كان لها حراس من أمثال عبد الحميد بن باديس.. وأثبت أيضًا أنه أبرز ممثلى تيار [الجامعة الإسلامية] وأعظم أعلامه فى بلاد المغرب العربى على الإطلاق![1]..

هذا عن أبرز أعلام هذا التيار..

والمناخ الذى تبلور فيه:

فى مصر - أكثر المجتمعات العربية الإسلامية تحضرًا وتطورًا - تبلور تيار [الجامعة الإسلامية] حول رائده جمال الدين الأفغانى.. ولذلك، فلقد كان مستحيلاً أن يصطبغ فكر هذا التيار بصبغة «البداوة»، التى اصطبغت بها دعوات تجديدية إسلامية تبلورت فى محيط بدوى، «كالوهابية»، مثلاً.. وكان مستحيلاً أن يقف هذا التيار من «العقلانية» ومن «التمدن» موقفًا غير ودى.. كما كان مستحيلاً، كذلك، بحكم الانتماء الإسلامى والمنطلقات الإسلامية، لهذا التيار، أن يسلك إلى التجديد طريق «التغريب»!

لقد كان تبلور هذا التيار بمصر، طليعة قيام «التيار الشعبى» المتميز عن «جهاز الدولة» - الذى انفرد بالتطوير والتنوير

---

(١) انظر الفصل الذى كتبناه عنه بكتابنا (مسلمون ثوار) - طبعة بيروت سنة ١٩٧٤.

للمجتمع حتى ظهور هذا التيار في سبعينيات القرن التاسع عشر- وهو لم «يتمين»، فقط، عن «جهاز الدولة»، بل اتخذ منه موقف «المعارضة» في الكثير من الأحيان!.. ولذلك فإن هذا التيار قد برئ من «التغريب»، الذى مالت إليه تجربة النهضة المصرية، خاصة على عهد الخديو إسماعيل [١٢٧٩ - ١٢٩٦هـ = ١٨٦٣- ١٨٧٩م] بحكم إسلاميته وشعبيته.. ثم هو -بحكم موقفه «التجديدى»- قد رفض «جمود» المؤسسات الدينية التقليدية، تلك التى وقفت عند فكرية العصر «المملوكى - العثمانى»، فأسهمت بسلبيتها تجاه النهضة الحديثة، فى إسلام التجربة «للتغريب»!.. فكان أن اتسم فكر هذا التيار بسمة «التوازن»، المميزة لحضارتنا العربية الإسلامية، عندما طرح تصوره لقسمات المشروع الحضارى المستقل لأمتنا العربية الإسلامية.

لقد تجسد فى تيار [الجامعة الإسلامية] بحث هذه الأمة عن ذاتها، وسعيها للنجاة من خطر المد الاستعمارى، المسلح «بالتقدم» الحضارى الغربى، والمستعين على غزونا «بالتخلف» «المملوكى- العثمانى»! وللنجاة، كذلك، من «التخلف» «المملوكى- العثمانى»، الذى تحول إلى قيد يعوق الأمة عن التصدى لعاصفة الاستعمار و«التغريب»!

ولقد تحول بحث أمتنا عن ذاتها، فى فكر هذا التيار، إلى دعوة للتجدد الذاتى فى الدين والدنيا، ينهض فيها «العقل» بدور المصباح الذى ينير الطريق - طريق الدنيا، وأيضًا طريق الدين! وصولاً إلى بلورة حضارة مستقلة تصنع تمدنًا إسلاميًا متميزًا، وتكون الطور العصرى لحضارتنا التى ازدهرت فى حقبة سابقة من التاريخ.

ولقد أذّن هذا التيار، بصوت الأفغاني، في ربوع الشرق بالنهضة، وبشر بها عندما قال: «لقد أوشك فجر الشرق أن ينبثق، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج!.. إن هذا الشرق، وهذا الشرقي لا يلبث طويلاً حتى يهب من رقاده، ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل، فيأخذ في إعداد عدة الأمة الطالبة لاستقلالها، المستنكرة لاستعبادها..!»[1].

وبحكم الانتماء الإسلامي لأعلام هذا التيار، وولائهم الأول للإسلام «الدين» و«الحضارة»، كان وضوح فكره عن أن الإسلام هو أساس هذه النهضة، وهو أداتها، وهو الحافز إليها.. فالإسلام هو «فكرية» – [أيديولوجية] – الأمة، الفعالة، إذا تجددت، في بعث طاقاتها ودفعها لبناء حاضرها ومستقبلها، على نحو مستقل ومتميز حضاريًا. وأمام هذا «الكنز»، الذي يمثل «الفرصة» الطبيعية والمواتية، لا منطق عند الذين يتركونه ثم يبحثون عن «البديل»! «**فهذه سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله كل الثقة فيه، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!..**»[2].. كما يقول، ويتساءل الإمام محمد عبده!

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٣، ٢٤٣.
(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ص ٢٣١.

إن أهل المدينة لا يلبون أذان من يؤذن لهم من خارج السور! وفى أحسن الفروض سيتبع هذا المؤذن «صفوة»، من السهل حصارهم، وتوجيه الاتهام إلى فكرهم الوافد، ثم اقتلاع هذا الفكر من الجذور! وليس كذلك الحال مع فكر هو «أيديولوجية» الأمة كلها، إذ لا قبل لأعداء هذه الأمة بالتصدى له، إن هو تحول بالتجديد، إلى طاقة خلاقة تحرك الأمة نحو تحقيق أهدافها!

لكن كون الإسلام هو أساس النهضة، وأداتها، وحافزها، لا يعنى أن فى مأثورات هذا الدين، وفكر السلف، وتطبيقات الماضين كل ما تحتاجه «دنيا» حاضرنا ومستقبلنا.. فهو، فى هذا الميدان «حافز» يحمل النفوس على «طلب السعادة من أبوابها»، بصرف النظر عن لون هذه الأبواب، ومصادرها، وعقائد مبدعيها، وأجناسهم القومية، ومواقعهم على خريطة الكوكب الذى نعيش فيه.. شريطة ألا تتعارض مع «الأُطر» و«المثل» و«الغايات والمقاصد» و«الفلسفات» التى حدها «الإسلام الدين».. فـ «السلفية فى الدين» تزاملها وتواكبها، فى فكر تيار [الجامعة الإسلامية] «المستقبلية والاستنارة والتفتح فى التمدن والحضارة».. ومن هنا يأتى المعنى العميق والموحى لكلمات الإمام محمد عبده التى تقول: «...لو رزق الله المسلمين حاكمًا يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا، والقرآن الكريم فى إحدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم!»[1].

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

ذلك أن لحضارتنا العربية الإسلامية موقفًا أصيلاً وقديمًا يميز بين ما هو داخل فى السمات والقسمات التى تتميز بها هذه الحضارة، وبين ما هو داخل فى «الأدوات» التى تتخذ سبلاً لتطوير الدنيا وتقدمها وللاستدلال والنظر فى الموجودات، فالخصوصية والتميز لا تعنى الانغلاق وسد المنافذ والأبواب دون التفاعل مع حضارات الآخرين.. وقديمًا عرض أبو الوليد بن رشد [٥٢٠- ٥٩٥هـ = ١١٢٦- ١١٩٨م] لهذه القضية فقال: «إنه يجب علينا أن نستعين، على ما نحن بسبيله، بما قاله من تقدمنا فى ذلك.

وسواء أكان ذلك الغير مشاركًا لنا أم غير مشارك فى الملة، فإن الآلة التى تصح بها التذكية لا يعتبر فى صحة التذكية بها كونها آلة لمشارك لنا فى الملة أو غير مشارك، إذا كانت فيها شروط الصحة. وأعنى بغير المشارك: من نظر فى هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام!»[1].

لكن الشرط الذى لابد من تحقيقه حتى ينهض الإسلام بهذا الدور النضالى والبناء فى تجديد «دنيا» الأمة، هو أن يتجدد هذا «الدين»، فينفض مجددوه عنه البدع والخرافات والإضافات، التى جعلته غريبًا إذا نحن عقدنا المقارنة بينه وبين حقيقته وجوهره، كما تلقاه نبيه، عليه الصلاة والسلام عن الله سبحانه وتعالى... فلابد، أولاً من «حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء المرائين

---

(١) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦- دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة- طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م. [والتذكية هى الذبح].

الأغبياء، والرؤساء القساة الجهلاء، يجددون النظر في الدين، نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح.. وبذلك يعيدون النواقص المعطلة في الدين، ويهذبونه من الزوائد الباطلة، مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين..» كما يقول عبد الرحمن الكواكبي[1]..

فبالسلفية العقلانية يتجدد الدين.. ومن ثم يلعب دوره الخلاق في تجديد الدنيا، التي لابد لتجديدها من الاستنارة والنظرة المستقبلية، المنفتحة على مختلف التيارات الحضارية، من موقع الراشد الناضج، المدرك لما بين «الثوابت» و«المتغيرات» من فروق!

الموقف الوسطي (المتوازن):

ولقد كان واضحًا أن تيار [الجامعة الإسلامية] يمثل الموقف الثالث، والوسط بين التيارين اللذين استقطبا جمهور الأمة وقادتها في ذلك التاريخ.. فعن يمينه أهل «الجمود» المتحصنون بالمؤسسات العريقة العتيقة التقليدية، أولئك الذين توقف بهم «الفكر» عند نمط العصر «المملوكي – العثماني» في التفكير.. وعن يسارهم دعاة «التغريب»، الذين بهرتهم حضارة أوربا، وزادهم بها إيمانًا وانبهارًا نفورهم من الصورة التي يقدمها للإسلام وتراثه أهل «الجمود»!.. والإمام محمد عبده يحكي كيف بشر تيار [الجامعة الإسلامية] بهذا الموقف الوسطي الجديد، فيقول –وهو «يترجم» لنشأته وتربيته ومذهبه– لقد «نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من

---

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ١٨٦ – ١٨٧ .

سكان مصر، ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث، بعد قطعة من الزمن، أن سئمت الاستمرار على ما يألفون، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن مما وجدت، ودعوت إليه، وارتفع صوتى بالدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى، وأنه على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم، باعثًا على البحث فى أسرار الكون، داعيًا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبًا بالتعويل عليها فى أدب النفس واصلاح العمل. كل هذا أعده أمرًا واحدًا.

وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة:

- طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم.
- وطلاب فنون هذا العصر، ومن هو فى ناحيتهم».

ثم يتحدث الإمام محمد عبده عن موقعه فى هذا التيار، الذى كان الأفغانى رائده، فيقول: «.. نعم، إننى لم أكن الإمام المتبع، ولا الرئيس المطاع، غير أنى كنت روح الدعوة، وهى لا تزال بى، فى كثير مما ذكرت قائمة!»[1].

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٢ ص٣١٨، ٣٢٠.

فنحن هنا بإزاء موقف ثالث.. وموقع ثالث.. وتيار ثالث.. يتوسط بين أهل «الجمود»، وبين دعاة «التغريب».

وإذا كان هذا التيار يدعو إلى «السلفية الدينية»، وإلى «فهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى..».. فإنه لا يتطابق، في هذا الموقف، مع نمط السلفية «البدوية»، التي وقفت عند «النص»، واتخذت من «العقل» موقفًا غير ودي.. والتي - لهذه «البداوة» - لم تتعاطف مع «التمدن» والموقف المستقبلي في الحضارة وشئون الدنيا.. فهذا التيار ينتقد صراحة هذا اللون من «السلفية النصوصية»، بل ويرى أن أصحابها كانوا «أضيق عطنا [أفقا] وأحرج صدرًا من المقلدين! فهم، وإن أنكروا كثيرًا من البدع، ونحوا عن الدين كثيرًا مما أضيف إليه، وليس منه، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيد به، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء...»[1].

وعلى حين اتخذت «سلفية البداوة النصوصية» هذه موقفًا غير ودي من «العقل» في «الفكر الديني»، انعكس على موقفها من «العلم والمدنية»، رأينا تيار [الجامعة الإسلامية] يعلي من سلطان العقل في حقلي «الدين» و«الدنيا» جميعًا.. بل لقد اعتبر «الدين» «من ضمن موازين العقل البشري»، التي وضعها الله لترد

---

(١) السابق، ج٣ ص ٣١٤.

من شطط هذا العقل، وتقل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى..» فالصلة بينهما - بين «الدين» و«العقل» - متينة، والعروة بينهما وثقى! فالدين: صديق للعلم، يحرك الإنسان للبحث فى أسرار الكون، ويحترم الحقائق العلمية الثابتة، ويعول عليها فى الإصلاح.

وإذا كان الدين ميزانًا من موازين العقل البشرى، فإن هذا «العقل هو جوهر إنسانية الإنسان.. وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة[1].. وهو نقطة الافتراق التى ميزت الإنسان عن غيره من الحيوانات.. جعلها الله محور صلاحه وفلاحه!»[2].

وبينما رفضت «سلفية البداوة النصوصية»: الحكمة [الفلسفة] بل «وعلم الكلام» تحدث تيار [الجامعة الإسلامية] عن «الحكمة» باعتبارها «مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضعة جميع النظامات، ومعيِّنة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والرذائل. وبالجملة، فهى: قوام الكمالات العقلية والخلقية.. فهى أشرف الصناعات!»[3].

وهذا المقام الرفيع الذى احتله «العقل» فى نهج تيار [الجامعة الإسلامية]، لم يقف عند حدود فكر «الدنيا.. والحضارة.. والمجتمع»، بل تعدى هذا الإطار إلى ميدان «الفكر الدينى».. فالنظر العقلى هو السبيل الذى يصل به المسلم إلى اليقين فى

---

(١) المصدر السابق، ج٥ ص ٤٢٨ ، ج٣ ص ٢٩٨ .
(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .
(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٠.

العقائد، إذ «لا يقين مع التحرج من النظر، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان، طولها وعرضها.. وحتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد.. فالله يخاطب، في كتابه، الفكر والعقل والعلم، بدون قيد ولا حد.. والوقوف عند حد فهم العبارة مضر بنا، ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات، التي تركنا كتبها فراشًا للأتربة وأكلة للسوس، بينما انتفعت به أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم: النور!

والقرآن – وهو وحده المعجز الخارق – قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية.. والمرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به.. فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحًا، بغير فقه، فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير، كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه!»[1].

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص١٥١، ٢٧٩-٢٨١، ج٤ ص٤١٤.

ولقد كانت هذه« العقلانية الإسلامية» عاملاً من عوامل تميز تيار [الجامعة الإسلامية]، لا عن «سلفية البداوة النصوصية» وحدها، بل وعن أهل «الجمود»، الذين تصوروا توحيد الله وتفرده بالخلق مستلزمًا لإنكار قيام المسببات على أسبابها الطبيعية، ولإنكار وجود القوانين الكونية والطبيعية الثابتة والحاكمة فى الكون والمجتمعات.

كذلك كانت عقلانية هذا التيار مميزة له عن تيار «التغريب»، الذى تبنى نفر من أهله مادية الغرب الفلسفية، تلك التى ظن أهلها أن التسليم بوجود السنن والقوانين الثابتة فى الكون والمجتمع يستلزم نفى الألوهية والوحى والرسالات..

فبهذه «العقلانية الإسلامية» جدد تيار [الجامعة الإسلامية] نظرة الإنسان المسلم للكون، عندما أقام الموازنة والتوازن بين «التوحيد» – الألوهية – وبين «الطبائع» – السنن والقوانين والعليَّة والارتباط الضرورى بين الأسباب والمسببات –.. وعندما ميز بين مهام الرسل والوحى وبين «عالم العقل ونطاقه».. ورأى أن «حاجة العالم الإنسانى إلى الرسل هى حاجة روحية، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح، أما تفصيل طرق المعيشة، والحذق فى وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من جهة العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه كى لا يحدث ريبًا فى الاعتقاد ولا يصيب أحدًا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق.. فمثلاً: حقيقة البرق والرعد

والصاعقة، وأسباب حدوثها، ليست من مباحث القرآن، لأنها من علم الطبيعة [أى الخليقة]، وحوادث الجو التى فى استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم، ولا تتوقف على الوحى. وإنما تذكر الظواهر الطبيعية فى القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال، وصرف العقل إلى البحث الذى يقوى به الفهم والدين.. لا تقريرًا للقواعد الطبيعية، ولا إلزامًا باعتقاد خاص فى الخليقة!»[1].

فبهذه «العقلانية الإسلامية» تميز هذا التيار «السلفى - العقلانى - المستنير» عن « سلفية البداوة النصوصية».. وعن «أهل الجمود».. وعن «دعاة التغريب»!

■ فأنصار «سلفية البداوة النصوصية».. قد نفضوا عن العقائد والتصورات والعبادات الدينية غبار البدع والخرافات.. لكنهم وقعوا أسرى لظواهر النصوص.. ثم هم « لم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحياء..»!

■ و «أهل الجمود»: «لا يتعلمون، فى الأزهر، من الدين إلا بعض المسائل الفقهية وطرفًا من العقائد على نهج يُبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها!.. وجل معلوماتهم: تلك الزوائد التى عرضت على الدين، ويخشى ضررها، ولا يرجى نفعها.. وأبناء الأزهر، المعروفون «بالعلماء».. أقرب للتأثر بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من العامة، وأسرع إلى مشايعتها منهم! فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية!»[2].. كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده..

(١) المصدر السابق ج٢ ص٤٢٠، ٤٢٢، ج٤ ص ٩٤ .
(٢) المصدر السابق. ج٣ ص ١١٢ - ١١٤ .

■ أما «دعاة التغريب»، سواء منهم من درس في عواصم الغرب، فاندهش بحضارته، وأصبح داعية لتقليدها، أو من تعلم منهم في المؤسسات التعليمية التي أقامها محمد علي بمصر، أو العثمانيون بتركيا، فإن نهجهم ليس كافلاً لاستقلال الأمة حضاريًا.. بل لقد أصبح هؤلاء بمثابة السبل والقنوات التي يتسلل منها العدو إلى عقل الأمة ووجدانها كي يثبت في وطنها الأقدام ويحكم حول عنقها الأغلال!

والأفغاني يتحدث عن هذا الفريق فيقول: «لقد شيد العثمانيون عددًا من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب، وكل ما يسمونه «تمدنًا»، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني!.. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة! نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية [القومية] وما شاكلها.. وسموا أنفسهم زعماء الحرية.. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية، وسائر الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منه في الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم.. فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم!.. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم.. وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها! لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة،

المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم!»[1].

فكما أن النهضة يعوقها «الجمود» عند فكرية عصر التراجع الحضارى وتخلف التمدن الإسلامى.. فإن «التغريب» يفقدها استقلالها، ويُلبس الأمة غير ثيابها، ويجردها من إمكاناتها وعوامل قوتها، ويبدد طاقاتها فيما يفيد عدوها، فيزيد ضعفها فى مواجهة التحديات!.. كل ذلك على وهم أن تصبح جزءًا من حضارة الغزاة.. والطريقان - «الجمود» و«التغريب» - كلاهما مرفوضان من تيار [الجامعة الإسلامية]، الذى يستعين على النهضة بـ«الأصالة» وبـ«التجديد والتطور».. فلا نقف حيث وقف «سلف» العصر «المملوكى - العثمانى».. ولا نبدأ من حيث انتهى الأوربيون.. ذلك «أن الظهور فى مظهر القوة، لدفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم.. ولا ضرورة، فى إيجاد المنعة، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك. وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه، وأمته وقرًا[2] أعجزها وأعوزها!»[3].

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٩٥ - ١٩٧.
(٢) أى أعجزها، وأذلها، وصدعها.
(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣.

ففى «الجمود».. وفى «التغريب»، كليهما: «جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها».. ويفقدها الاستقلال الحضارى!

* * *

وإذا كانت «السلطة السياسية»، الممثلة فى رأس الدولة [الخليفة- الإمام] وفى مؤسسات «الدولة»، قد اكتسبت، فى العصر العثمانى، «قداسة دينية»، غريبة عن روح الإسلام، وهى قداسة ادعاها السلاطين العثمانيون، وباركها فقهاء هؤلاء السلاطين من أهل «الجمود».. ثم جاء دعاة «التغريب» ليرفضوها بـ «العلمانية» الغربية التى «تفصل» الدين عن الدولة، على النحو الذى صنعته أوربا فى عصر نهضتها وإحيائها وتنويرها.. فإن تيار [الجامعة الإسلامية] قد سعى إلى تجديد نظرة المسلم إلى المجتمع والدولة، برفض «وحدة» السلطتين - الدينية والزمنية - وأيضًا برفض «فصلهما»، وذلك عندما «ميز» بينهما، وأبصر علاقاتهما، التى لا ترقى إلى درجة «الوحدة»، ولا تتدنى إلى حد «الانفصال»!.. وقال بتأسيس النهضة على الدين، مع تجريد مؤسسات «الدولة»من «الصبغة الدينية».. فالدولة إسلامية.. وكذلك المجتمع، والحضارة.. لكن السلطة فى هذه «الدولة» «مدنية»؛ لأن مصدر السلطات فى المجتمع هو الأمة، والحاكم نائب عنها، ومسئول أمامها، وخادم لها، ومنفذ لقوانينها المدنية، والمحكومة بأطر الشريعة الإلهية فى ذات الوقت- وليس هذا الحاكم ظلاً لله ولا سيفًا مسلطًا على رقاب عباد الله!

فهذه الشئون «الدنيوية»: «بشرية»، وليست «إلهية»، ومصدرها العقل الإنسانى والتجربة الإنسانية - المحكومان بأُطر مقاصد الشريعة، وليس مصدرها الرسالة والرسل والأنبياء.. وكما يقول الإمام محمد عبده فإن كل «ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه، لا يطالب الأنبياء ببيانه، ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم، وإهمال للمواهب والقوى التى وهبه الله إياها ليصل بها إلى ذلك.. ولقد أرشدنا نبينا ﷺ إلى وجوب استقلالنا دونه فى مسائل دنيانا فى واقعة تأبير النخل، إذ قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[1].. والإسلام لا يرضى، فضلاً عن أن يسعى لمثل ما كانت عليه أوربا الكاثوليكية فى عصورها الوسطى والمظلمة عندما «كانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية فى نظام واحد، لا فصل فيه بين السلطتين.. فهذا الضرب من النظام هو الذى يعمل البابوات وعمالهم من رجال «الكثلكة» على إرجاعه، لأنه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم، وإن كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم.. فليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه.. وضالون من يرمون الإسلام بأنه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد.. ليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنفير عن الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم.. وللذين يقولون: إن لم يكن

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٤ ص ٤٨٦ - ٤٨٧ .

للخليفة ذلك السلطان الدينى، أفلا يكون للقاضى؟ أو للمفتى؟ أو شيخ الإسلام؟ أقول: إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية! ذلك أن أصلاً من أصول الإسلام - وما أجله من أصل- قلب السلطة الدينية، والإتيان عليها من أساسها. لقد هدم الإسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم؟!»[1].. كما يقول الإمام محمد عبده..

فلا «كهانة» أهل «الجمود» و«سلطتهم الدينية».. ولا «علمانية» دعاة «التغريب» وفصلهم الدين عن الدولة والمجتمع.. وإنما «التمييز» بين الدين والدولة، بتأسيس النهضة على الإسلام، وتقرير «مدنية» السلطة السياسية فى المجتمع، بجعل الأمة مصدر السلطات والسلطان!

* * *

ولقد كانت «القداسة الدينية» لرأس السلطة السياسية فى المجتمع تثمر- ضمن ما تثمر -تكريس الاستبداد السياسى، بل وإضفاء بعض من هذه «القداسة» عليه؛ فجاء فكر تيار [الجامعة الإسلامية] عن «مدنية» السلطة فى الدولة الإسلامية ليفسح المجال فى فكر هذا التيار للحديث عن «الشورى»، كفلسفة للنظام السياسى الإسلامى، ولتسليط الضوء، بل والسهام على «الاستبداد السياسى» كعدو أول لنهضة العرب والمسلمين.. فالكواكبى، الذى ينفى أن يكون فى الإسلام سلطة دينية أو نفوذ

(١) المصدر السابق، ج٢ ص١٧٥، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨.

دينى فى غير مسائل إقامة شعائر الدين[1] يقرر أن حكومة دولة الخلافة الراشدة كانت «مؤسسة على أصول الإدارة الديمقراطية، أى العمومية».. وأن سبب انحطاط المسلمين «هو تحول نوع السياسة من نيابية اشتراكية، أى ديمقراطية تمامًا، إلى سلطة شبه مطلقة..»[2].. وهو يرفض رأى أهل «الجمود» الزاعمين بأن سبب الفتور والانحطاط الذى طرأ على المسلمين هو «التهاون فى أمور الدين»، ويقول: «.. والأمر الغريب أن كل الأمم المنحطة، من جميع الأديان، تحصر بلية انحطاطها السياسى فى تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة دينها تمسكًا مكينًا، ويريدون بالدين العبادة!. ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئًا، ولكنه لا يفيد أبدًا.. ذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه، فإذا صادف مغرسًا طيبًا ثبت ونما، وإن صادف أرضًا قاحلة مات وفات، أو أرضًا مغراقًا هاف ولم يثمر. وما أرض الدين؟! أرض الدين هى تلك الأمة التى أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك، اللذين تكون زيادتهما عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما، كما هو مشاهد فى المتنسكين؟!..».. ثم يتحدث الكواكبى عن القوى التى تمكن للاستبداد السياسى فى المجتمع، فيعدد: «قوة الإرهاب، وقوة الجند - لا سيما إذا كان الجند غريب الجنس -

---

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص ١٤٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٧ - ١٤٧ - ٣٥٠ .

وقوة المال، وقوة الألفة على القسوة، وقوةرجال الدين، وقوة أهل الثروات، وقوة الأنصار من الأجانب!»[1].

أما الأفغانى فإن حديثه عن «الشورى» «والحكم النيابى» وحكم البلاد بأهلها «حكمًا دستوريًا صحيحًا» هو حديث واضح وحاسم ومستفيض[2].

■ ففى «الدين»: سلفية مجددة، تتخذ من «العقل» أداة وحكمًا وسلطانًا.

■ وفى «الدنيا» : مشروع حضارى مستقل، يبرأ من «كهانة» أهل «الجمود» «وسلطتهم الدينية» ومن «علمانية» دعاة «التغريب» وفصلهم الدولة عن الدين.

ويتبنى: تأسيس النهضة على الإسلام، وجعله حافزًا للإنسان كى يطلب سعادته من «كل الأبواب»، شريطة أن يبقى للحضارة العربية الإسلامية طابعها الوسطى المتوازن، الذى مثل روح هذه الحضارة فى عصرها الذهبى.

■ وفى «الدولة» : يتبنى هذا التيار «مدنية» السلطة، بما تعنيه وبما يترتب عليها من تأسيس الحكم على «الشورى»، وتنقية الفكر السياسى الإسلامى من الشبهات التى تبرر الاستبداد!

العروبة المتميزة فى المحيط الإسلامى:

بعض الناس لا يستسيغون القول بأن لتيار [الجامعة

(١) المصدر السابق، ص ١٨٧ ، ٢٢٥ .

(٢) انظر [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٣ .

الإسلامية] موقفًا «قوميًا عربيًا»، أبصر تميز العرب، قوميًا، فى المحيط الإسلامى، بل وعقد لهم لواء القيادة فى هذا المحيط! لا يستسيغون هذا القول، ويتساءلون، منكرين ومستنكرين: أنَّى يوجد للفكر القومى مكان عند دعاة الجامعة الإسلامية؟! ألا يدخل ذلك فى باب الجمع بين المتناقضات؟!

لكننا نقول: إن هذا الرأى لا يعدو أن يكون ثمرة من ثمرات النظرة السطحية للأمور، النابعة من الكسل العقلى، الذى يمنع هؤلاء من فقه الفكر والمواقف التى بلورها تيار [الجامعة الإسلامية] حول هذا الموضوع..

فالأفغانى الذى قال: «لقد علمنا، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية [أى قومية] إلا فى دينهم واعتقادهم».. والذى دعا المسلمين قاطبة إلى الاعتصام «بحبال الرابطة الدينية، التى هى أحكم رابطةٍ اجتمع فيها التركى بالعربى، والفارسى بالهندى، والمصرى بالمغربى، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية...»[1]، هو ذاته الذى يقول: «إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها.. والأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب.. وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان..»[2].

وفى الوقت الذى مارس فيه الأفغانى الدعوة لقيام رابطة [للجامعة الإسلامية] بقيادة السلطان العثمانى عبد الحميد

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٧ ، ٣١٠ .
(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٧ .

الثانى [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م] لتجمع عالم الإسلام ضد التدخل الاستعمارى الأوربى، كان صوته يعلو بنقد الدولة العثمانية لرفضها الاستعراب، وتحويل الترك، بواسطة اللغة والحضارة، إلى «جزء من الأمة العربية»!.. فكتب عن هذا «الخطأ العثمانى القاتل» يقول: «لقد أهمل الأتراك أمرًا عظيمًا.. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانًا للدولة.. والسعى لتعريب الأتراك.. وإنما فعلت العكس، إذ فكرت بتتريك العرب، وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى؟! فكيف يعقل تتريك العرب، وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت، وكان اللسان العربى لغير المسلمين، ولم يزل، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر؟! إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية، وزال داعى النفور والانقسام، وصاروا أمة عربية..»[1] واحدة!

ومحمد عبده، وهو المهندس الأعظم لمدرسة التجديد الإسلامى، وروح تيار [الجامعة الإسلامية] هو القائل عن الإسلام، عندما كانت السلطة والدولة فى أهله عربية: «كان الإسلام عربيًا، ثم لحقه العلم فصار عربيًا، بعد أن كان يونانيًا»[2]!

لكن.. هل هى «المتناقضات» التى يستحيل اتساقها؟!.. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فكيف يستقيم الحديث عن أن المسلمين «لا جنسية لهم إلا فى دينهم واعتقادهم» الدينى، مع الحديث عن أن

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٤، ٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ٣١٧.

«الأمة العربية هي عرب، قبل كل دين ومذهب»، والدعوة إلى تعرب الترك، ليصبحوا جزءًا من «الأمة العربية».. بل والحديث عن «الإسلام دينًا عربيًا»؟!

إنها ليست «متناقضات».. بل هى الفكر المتسق، الذى وازن به تيار [الجامعة الإسلامية] بين «الخصوصية القومية للعرب»، كأمة، بالمعنى القومى، فى محيط إسلامى ضم أممًا تدينت بالإسلام الدين، وبين «عموم» الرابطة والجامعة الاعتقادية والملية التى جمعت كل من تدين بهذا الدين.. وفى هذه الموازنة تكمن عبقرية هذا التيار فى هذا الميدان!

فبين «الأقوام المسلمين» رابطة مؤسسة على عقائد الإسلام، ومتمثلة فى آدابه.. وهى بالنسبة لهم جميعًا بمثابة «الجنسية الإسلامية».. لكن هذه الشعوب الإسلامية تسكن أقاليم متعددة، وتنتمى إلى قوميات تميزها لغات مختلفة، الأمر الذى أثمر تمايزًا فى العوائد والأخلاق.. «وتحت هذه المؤثرات - الإقليم، واللغة، والأخلاق، والعوائد، كما يقول الأفغانى - تحصل للأقوام ميزة، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم، والذود عنه، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة!»[1]..

وهذه «الغيرية» القومية، التى تمثل واقعًا قائمًا فى المحيط الإسلامى، الذى تجمعه رابطة الإسلام، هى التى جعلت الأفغانى ينبه على أن مطلب تيار [الجامعة الإسلامية] لا يرقى «للوحدة السياسية» للأمم الإسلامية، «فإن هذا ربما كان عسيرًا، ولكنى

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته، وبقاءه ببقائه!..»[1]..

فهى رابطة «التضامن الإسلامى والنصرة الإسلامية»، تشد الأمم الإسلامية، التى تقوم وحدة كل منها، سياسيًا، وتتأسس على رابطتها القومية التى تميزها فى المحيط الإسلامى الأكبر والأوسع.. فهنا «أمة» إسلامية، و«جنسية» [قومية] إسلامية، قوامها رابطة الملة والاعتقاد.. وفى محيطها تتميز وتتمايز «أمم» و«قوميات»، بالمعنى القومى الأخص، تتأسس على السمات القومية المتميزة فى إطار المحيط الإسلامى الكبير..

وعند ابن باديس – وهو إمام الجناح المغربى لتيار [الجامعة الإسلامية]– نجد وضوحًا كاملاً فى تصوير العلاقة بين «الأمة العربية»، المتميزة قوميًا، وبين «الأمم الإسلامية» غير العربية.. فالعرب أمة فى القومية.. وفى السياسة.. والوحدة السياسية، بمعنى وحدة الدولة أمر وارد، بل واجب بين من يتمتعون منهم بالاستقلال عن مناطق نفوذ الاستعمار وسيطرته.. أما الأمم التى تجمعها رابطة الملة والاعتقاد الدينى، دون رابطة العروبة القومية، فإن رابطة الدين تثمر لها وحدة فى النواحى الأدبية والاجتماعية– دون السياسية – ومن ثم دون الدولة الواحدة.. وبعبارة ابن باديس: فنحن إذا قلنا: العرب، فإننا نعنى: هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقًا إلى المحيط الأطلانطيقى غربًا، والتى تنطق

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

بالعربية، وتفكر بها، وتتغذى من تاريخها، وتحمل مقدارًا عظيمًا من دمها، وقد صهرتها القرون فى بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة. هذه الأمة تربط بينها - زيادة على رابطة اللغة - رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الألم، ورابطة الأمل. فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة.. وبين الشعوب العربية المستقلة تمكن الوحدة السياسية، بل وتجب.. أما المسلمون الذين تتوزعهم عدة قوميات، فإن علاقتهم شاملة ناحيتين:

- ناحية سياسية دولية..
- وناحية أدبية اجتماعية..

فأما الناحية السياسية الدولية، فهذه من شأن أممهم المستقلة، وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهى التى يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية.. إنها مهمة جماعة المسلمين، وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون فى مصالح المسلمين الدينية والأدبية...»[1].

هكذا وضحت الرؤية، وتحددت العلاقات، والتصورات.

ولقد برئ تيار [الجامعة الإسلامية] من شبهة تأسيس التمايز القومى للأمة العربية فى المحيط الإسلامى على أسس عرقية أو عنصرية.. فالعروبة -عند أعلام هذا التيار- مؤسسة على ثمرات التميز فى اللغة، والإقليم، والعادات والتقاليد.. وعندهم أن اللغة «لها آداب، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق، وعلى حفظها

(١) [كتاب آثار ابن باديس] ج٣ ص ٢٩٨، ٣٢٩، ٤١١. جمعها ونشرها الدكتور عمار طالبى. طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م.

تتكون العصبية!».. وللغة «تأثير – معنوى – علاوة على التأثير المادى – يجعلها من أكبر الجوامع التى تجمع الشتات، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر»، حتى لتصبح طوق النجاة للأمة، تجمع شملها القومى إذا غالتها وحاولت اغتيال وحدتها التجزئة المفروضة على وطنها القومى من قبل الغزاة! «فكم رأينا دولاً اغتصب ملكَها الغيرُ، فحافظت على لسانها [لغتها] محكومة، وترقبت الفرص، ونهضت بعد دهر، فردت ملكها، وجمعت من ينطق بلسانها إليها، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم، ونسوا مجدهم، وظلوا فى الاستعباد إلى ما شاء الله!..»[1].

وأعلام هذا التيار يؤصلون «المعيار اللغوى للعروبة» بحديث الرسول، ﷺ، الذى يقول فيه: «أيها الناس، إنَّ الرب واحد، والأب واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هى اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربى»[2].

وهم لا يقفون، فقط، عند تقرير حقيقة تميز العرب قوميًا فى المحيط الإسلامى، بل ويتبنون الدعوة إلى دور قائد للأمة العربية فى هذا المحيط!

■ فالأفغانى قد دعا إلى تعرب الترك، ليصبحوا جزءًا من «الأمة العربية» الواحدة!

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٢١، ٢٢٤.

(٢) رواه ابن عساكر بسنده، عن مالك الزهرى، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن– [تاريخ دمشق]

■ والإمام محمد عبده رأى أن عظمة هذه الأمة قد تحققت عندما «كان الإسلام عربيًا».. فلما تغلب الجند غير العرب «من الترك والديلم وغيرهم» على الخلافة العربية، «هناك استعجم الإسلام وانقلب أعجميًا» فكان الانحطاط![1].

■ والكواكبى – وهو إمام الجناح المشرقى لتيار [الجامعة الإسلامية] – يعقد للعرب لواء القيادة فى تجديد عالم الإسلام والشرق فيقول: إن «العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية، بل الكلمة الشرقية.. وهم أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعًا فى الدين وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداءً، فلا يأنفوا عن اتباعهم أخيرًا..»[2]..

■ وابن باديس يرى أن «العرب قد رُشحوا لهداية الأمة، وأن الأمم التى تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان من يتكلم لغتها، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام..».. فالعروة وثقى بين الإسلام والعروبة.. ونمو الإسلام يعنى نمو الأمة العربية.. ولذلك فإن رسول الإسلام، ﷺ، كان «رسول الإنسانية.. ورجل القومية العربية، والأمة العربية فى آن واحد.. نهتدى بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها، ونموت عليها.. » كما يقول ابن باديس![3]..

هكذا تميز موقف تيار [الجامعة الإسلامية] من قضية العروبة وتميز العرب قوميًا، ومن علاقة هذا الكيان القومى

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص٣١٧، ٣١٨.
(٢) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص ٣٥٨.
(٣) [كتاب آثار ابن باديس] ج٤ ص١٧ – ١٩ – ٢١.

العربى بالمحيط الإسلامى.. فأعلام هذا التيار لم يقفوا عند العروبة، رافضين روابط الملة والاعتقاد الدينى - كما صنع «القوميون العلمانيون» -.. ولم ينحازوا إلى الرابطة الإسلامية، زاعمين تناقضها مع التمايز القومى، الذى هو أخص منها - كما صنع فريق من العاملين فى الحقل الإسلامى -.. وإنما وازنوا بين الرابطتين، ودعوا إلى دور قائد للأمة العربية فى المحيط الإسلامى، سواء فى تجديد الدين أو فى النهضة التى تجدد للعرب والمسلمين دنياهم، وتعيد لهم استقلالهم الحضارى الذى ميزهم تاريخيًا عن أمم وحضارات أخرى..

حضارة جديدة.. ومتميزة:

لقد أبصر تيار الجامعة الإسلامية الهدف الاستعمارى الأوربى القديم.. ذلك الهدف الذى تجلى فى كل موجات الغزو التى تعرض لها وطن العروبة خلال هذا الصراع التاريخى الطويل.. فالغرب يريد أن يحرز النصر على الجبهة الحضارية، باحتواء العرب حضاريًا، حتى يختم دورات هذا الصراع بانتصار حاسم ونهائى، ومن ثم فهو - وقد عاد مسلحًا هذه المرة بالثورة الصناعية وثمارها العديدة من أدوات القوة المتنوعة، وبالحضارة الأوربية المتألقة والمنفردة على خريطة الكوكب الذى يسكنه الإنسان - يريد ألا تظل حضارته هذه حضارة جاليته الأوربية ومستوطنيه فقط فى مستعمراته العربية والإسلامية، وذلك كى لا تتكرر قصته القديمة يوم زالت حضارته بزوال الدولة الاستعمارية القديمة، إغريقية.. وبطلمية..

وبيزنطية.. وسواء كانت السبل هى القهر بالمسخ القومى والسحق للهوية الحضارية، كما حاول الفرنسيون بالجزائر، أو بالإغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير بغيرها، وكما صنع الإنجليز فى مستعمراتهم، فإن الهدف واحد ومحدد، وهو أن ينسلخ العرب والمسلمون عن هويتهم الحضارية المتميزة، فيصبحون غربًا، وتتم عملية الاحتواء التى تكرس النصر للغرب فى هذا الصراع الحضارى الطويل.. وفى حديث الكاتب والسياسى الاستعمارى الفرنسى «جابرييل هانوتو» عن هذا الصراع الحضارى بين الحضارة الأوربية، التى يسميها «المدنية الآرية المسيحية»، وبين الحضارة العربية الإسلامية، التى تشد العرب – كما يقول – إلى «الماضى الآسيوى»، يتجلى فرح المستعمرين بما لاح لهم من نجاح هذا المخطط «التغريبى» فى بعض أقطار الشمال الإفريقى– تونس – وهو النجاح التغريبى الذى تحدث عنه هانوتو بقوله: «يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئًا فشيئًا من مكة ومن الماضى الآسيوى»؟![1]..

وحتى لا يتحقق للاستعمار هذا الهدف الكبير، القديم والجديد، كانت دعوة تيار الجامعة الإسلامية إلى تجديد الحضارة العربية والإسلامية، تجديدها وليس التخلى عنها، ولا استبدالها.. ففى الوقت الذى تصدى فيه هذا التيار للتحديات التى مثلت قيود العصور الوسطى على حركة الأمة ويقظتها ونهضتها وتتصدى للغزوة الاستعمارية الأوربية، كاحتلال عسكرى ونهب اقتصادى،

---

(١) [الإسلام والرد على منتقديه] – مجموعة أبحاث– ص٢٧، طبعة القاهرة سنة١٩٢٨م.

تصدى كذلك لدعاة إحلال حضارة الغرب محل حضارتنا العربية الإسلامية، التى لم تكن صورتها التى تقدمها المؤسسات التقليدية يومئذ تغرى بالاستلهام أو تبعث على الاحترام!..

ولقد انطلق هذا التيار فى دعوته لتجديد حضارتنا المتميزة من عدة منطلقات يجمعها ويربطها خيط واحد.

١- فنحن أمة عريقة، ولحضارتنا مزاج متميز وطابع خاص.. وتميُّز هذه الحضارة بالموقف المتوازن والموازن بين المتناقضات، وتمثيلها «للضمير» في مواجهة حضارات تميل عادة إلى طرف واحد من طرفى الظاهرة يعطى حضارتنا هذه مزيةً، ويعصمها من مخاطر وأخطار يشكو منها الآخرون..

٢- إن للمزاج الحضارى المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة، ومقومات هذا التكوين، وإذا كانت الأمة -كما هو حال أمتنا- ذات عراقة حضارية وتراث غنى ودور بارز فى تاريخ الإنسانية وصراعاتها الحضارية، فليس من السهل تجريدها من ثوبها الحضارى الخاص، والقذف بها تحت عباءة الآخرين!..

بل قد يستحيل ذلك حتى لو أراد نفر من بنيها، مخلصين كانوا أم مخادعين!.. وبعبارات ابن باديس عن «الغيرية الحضارية» - أى التميُّز للجزائر عن فرنسا- «إن هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت..»!!

٣- إن الدعوة إلى «حضارة عربية إسلامية متميزة» لا يعنى تقديس الماضى، ولا العودة إليه كى نعيش فى قوالبه، بل ولا الأخذ بجميع أصوله.. وإنما الذى تعنيه هذه الدعوة هو الأخذ

«بالثوابت» من «الأصول»، التى تمثل القسمات المميزة للشخصية الحضارية العربية الإسلامية.. وهذه الأصول التى تحمل صلاحيات العطاء المعاصر، وتمثل قوة دفع وطاقة تحريك للأمة نحو التقدم، إنما تمثل بما لها من قداسة فى نفوس الأمة مناخًا ملائمًا يسرع بحركة الأمة كى تنخرط فى عملية التجديد واليقظة والتطور، على عكس حالها إذا ما دعيت إلى نمط جديد وغريب ليس لأصوله فى ضميرها قداسة واحترام.. ففارق بين أن تقتنع صفوة مستنيرة بنمط حضارى معين، فتنخرط فى العمل لسيادته وتسويده، وبين أن تدخل الأمة عصر تجديد حضارتها الخاصة، الممثلة لذاتيتها، والمجسدة لخصوصيتها القومية، مسوقة إلى ذلك بقيم وأفكار ومواريث لها فى نفوسها وضمائرها هالات المقدسات.. فنطاق «التحديث»، فى الحالة الأولى، محدود، ومن السهل حصاره واقتلاعه- علاوة على انتفاء ملاءمته وجدواه - أما فى الحالة الثانية، فإن السعى فى «التجديد» سيكون سريعًا وحثيثًا، ونطاق انتشاره سيكون عامًا وشاملاً، واقتلاع الأعداء لآثاره سيكون مستحيلاً.. وذلك فضلاً عن جدواه النابعة من ملاءمته للأمة التى تنهض بهذا «التجديد»..

إذن، فالمطلوب هو البدء من بعض أصول الماضى- أى «الثوابت» - الصالحة، والتى تمثل «الروح الحضارية» للأمة، والضامنة لها استمرارية مسيرتها الحضارية.. وبعبارة الأفغانى- فى المنهاج الذى تحدد لـ [العروة الوثقى].. «فإن

الظهور فى مظهر القوة، لدفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم"[1].

وهذه «الأصول – الثوابت» – كما يقول محمد عبده– هى التى ستجعل الأرض، إنسانيًا وفكريًا، ممهدة للإصلاح والتجديد والنهضة.. فالناس سيصغون «للمؤذن»، ويلبون نداءه، لأنه يؤذن فيهم من داخل سور مدينتهم، وبلغتهم، وبما هو مألوف لهم.. وليس من خارج السور، برطانة الأعاجم والخواجات!.. وعندما يكون الأمر «تجديدًا» للأصول الثوابت فستكون لدعوته فى قلوب الأمة وعقولها قواعد ومقدمات تعين على انخراط الأمة فى مشروعها القومى النهضوى، تشدها إليه «العوامل الطبيعية للانتماء».. وبعبارة محمد عبده: «فهذه سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما بيّناه، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!..»[2].

والتمسك بالأصول الثوابت، والروح الحضارى للأمة العربية الإسلامية لا يعنى – فى رأى أعلام هذا التيار– الرجوع للعيش

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٢٣ .
(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ٢٣١ .

فى الماضى، فلقد عابوا على «السلفية النصوصية»– كما سبقت إشارتنا– موقفها غير الودى من العقل والتمدن والتحضر– وهو لا يعنى الاكتفاء بالتراث الدينى وعلوم الشرع فى النهضة والإصلاح، ولا العزلة الرافضة للتفاعل الحضارى.. ذلك أن الإصلاح الدينى شىء، والإصلاح المدنى والتجدد الحضارى شىء آخر، يتمايزان، مع الارتباط والاتصال.. والاستعانة بالدين فى تحريك الأمة إلى التجدد الحضارى، مستعينة بمنابعه النقية، لا يعنى أن التجدد الحضارى هو ذات الإصلاح الدينى.. وبعبارة محمد عبده: «.. لو رزق الله المسلمين حاكمًا يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا، والقرآن الكريم فى إحدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم. ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم..»[1]!

فالعلاقات لا تعنى طمس التمايز والفروق، أو تحويل الوسائل إلى غايات!

٤– وكما رفض تيار الجامعة الإسلامية «سلفية الجمود. عند فكرية العصور المملوكية العثمانية.. كذلك رفض طريق «التغريب»، الذى مثل أصحابه «السلفية الغربية»! التى انبهر تيارها بالغرب، فدعا إلى أن نبدأ من حيث انتهى الغرب، وأن نسلك نفس الوسائل والوسائط التى سلكها الغرب إلى ذات الغايات والأهداف التى استهدفها.. رفض هذا التيار سبيل التغريب، لمنافاته حقيقة «التمايز الحضارى» لأمتنا عن الحضارة

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥١، ٢٥٢.

الغربية.. وكتب الأفغانى فى منهاج [العروة الوثقى] يقول: «إنه لا ضرورة، فى إيجاد المنعة، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجىء للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرًا أعجزها وأعوزها!..»[1].

والأفغانى يرى فى هؤلاء «المتغربين»، الذين افتقدوا الثقة بالذات والأصالة والأمل فى بناء الحضارة المتميزة، حتى لقد استحكمت منهم «عقدة الأوربى»!.. يرى فيهم خطرًا يفتح للاستعمار فى حياتنا الثغرات، فيقول: «إن أشد وطأة على الشرق، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة، الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم، يعتقدون أن كل الكمالات إنما هى فيما تعلموه من اللسان، على بسائطه، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات، وقراءة سِيَر وسِيَر من قطع مراحل من الغربيين فى سبيل الأخذ فى ترقية أمته، بدون أن يسبروا من ذلك غورًا، أو يفهموا لتدرجهم معنى. ويعتقد الناشىء الشرقى أن كل الرذائل ودواعى الحطة ومقاومات التقدم إنما هى فى قومه، فيجرى مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، ومن كل مشروع وطنى تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده، ويأنف من أى عمل ما لم يشارك فيه الأجنبى!..»[2].

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٠.

فالاعتراض هنا ليس على «سبر غور» أسرار التقدم الغربى، للتمييز بين «الضرورى - النافع»، و«الضار - غير الملائم»، للاستفادة بالأول، بالتمثل الطبيعى والصحى، مع تجنب الثانى ورفضه.. فمن قبلُ صنع العرب ذلك يوم أخذوا، من موقف المستقل وموقع القادر على التمييز، عن الفرس والهنود واليونان، كى يصنعوا الذاتى والجديد والمتميز.. وإنما الاعتراض على «تقليد المنبهر»، الذى أفقده «الانبهار» الثقة بالذات، والقدرة على التمييز!

فالتمايز الحضارى، الذى هو «حقيقة واقعة»، يدعونا إلى أن نبصر ما لكل حضارة من خصوصية.. وهذه الخصوصية لا تنفى وجود ما هوعام وميراث إنسانى تشترك فيه كل الحضارات.. وفتح النوافذ على مختلف الحضارات يجب أن يكون واعيًا بما هو «خاص» وما هو «عام».. ومن غير الطبيعى، وغير المفيد زرع الأجسام الحضارية الغريبة فى بيئات لا تحتاجها ولا تفيد منها.. وبهذا الفهم علينا أن ننظر لخصوصية التمدن الأوربى، باعتباره - كما يقول الأفغانى-: «فى الحقيقة تمدنًا للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى!.. أما الذين يقلدون هذه الخصوصية، المقدمات منها والنتائج، فإنهم- وفق عبارة الأفغانى: «ينفقون ثروتهم إلى غير بلادهم!.. ويميتون أرباب الصنائع من قومهم!.. وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط من شأنها! فلقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها..

وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم؟!»[1].

فالتمدن: نبت طبيعي، ونمو طبيعي، بينه وبين مقدماته وموروثه وملابساته علائق تجعل له تمايزًا عن نظيره الذى تختلف عنده المقدمات والمواريث والملابسات.. الأمر الذى يمايز بين الحضارات والشخصيات القومية لأمم هذه الحضارات..

وهذا التمايز الحضارى إذا كان يعنى الرفض «للتبعية» الحضارية، والانسحاق أمام عدوانية الحضارة الغربية وغزوها الفكرى واستعلائها.. فإنه لا يعنى الانغلاق الرافض لاستلهام مصادر القوة التى تدعم وتنمى النهضة المستقلة والمتميزة لحضارتنا العربية الإسلامية.. فرفض «التبعية» لابد أن يقترن برفض التقوقع والعزلة والانغلاق، فالتعددية الحضارية حقيقة من حقائق الواقع.. واكتفاء حضارة ما بذاتها عن غيرها من الحضارات هو خرافة من الخرافات!..

على هذا النحو فكر تيار الجامعة الإسلامية.. وبهذا النهج صاغ معالم مشروع للنهضة الحضارية المستقلة، لايزال بانتظار من يطوره.. ويضعه فى الممارسة والتطبيق.

---

(١) المصدر السابق. ص ١٩٥ - ١٩٧.

٢

الموروث .. والوافد

تاريخ القضية

القضية المثارة هى: قضية «الموروث» و«الوافد» .. أو «الوافد» و«الموروث» . وفى اعتقادى أن إثارة هذه القضية، والجدل الذى يدور حولها هو أمر طبيعى، ليس فيه أى افتعال..

فمن الأمور الطبيعية، بل والضرورية، بالنسبة لأية أمة أو حضارة أن تثار هذه القضية، ويدور الجدل حول العلاقة ما بين «الوافد» و«الموروث»، وحول الموقف من «الموروث» أو الموقف من «الوافد»، عندما يكون هناك احتكاك بين حضارتين، بين ثقافتين، بين منظومتين فكريتين تنتسب كل منهما لأمة من الأمم، ويقوم بينهما تمايز أو خلاف فى الروح أو السمات والقسمات.

وهذه القضية - قضية العلاقة بين «الموروث» و«الوافد»- بالنسبة لنا، ليست حديثة الظهور، وليس صحيحًا أنها بنت اليوم.. كما أنها ليست مفتعلة- كما أشرت- بأى حال من الأحوال.. قد يكون الصوت- الذى يثيرها- يعلو الآن بالجدل حولها أكثر من ذى قبل.. لكننا إذا رجعنا لنراجع صفحات مضت فى تاريخنا الحديث، ونظرنا إلى «خريطة» حياتنا

الفكرية فى بداية الغزوة الاستعمارية الحديثة للشرق، ولوطن العروبة وعالم الإسلام على وجه التحديد، فسنجد أن هذه القضية قد أثيرت بصدد الموقف من الفكرية التى جاءت إلينا فى ركاب هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة.. فمنذ غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] وحملته على مصر سنة ١٧٩٨م كانت البعثة العلمية، وكانت المطبعة، وكان الفكر مجسدًا «للوافد» الذى جاء مع هذه الحملة وأيضًا كان ذلك «الوافد» الفكرى مميزًا لهذه الغزوة الحديثة عن سابقتها الصليبية التى داهمتنا فى العصور الوسطى [٤٨٩ - ٦٩٠هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١م] فالصليبيون كانوا فرسان إقطاع، همجًا، لا يملكون سوى القوة الغاشمة، وكما يقول أحد المؤرخين العرب الذين عاصروا تلك الغزوة الصليبية -وهو أسامة بن منقذ [٤٨٨ - ٥٨٤هـ = ١٠٩٥ - ١١٨٨م]- فإن الفرسان الصليبيين هؤلاء كانوا «كالبهائم، ليست لهم «فضيلة» إلا القتال!».. فبتعبير ذلك المؤرخ كانوا فرسان إقطاع، جاءوا من مجتمعات مظلمة ومتخلفة، بالمقاييس الحضارية.. وبالتالى فقد تعلموا من الشرق الإسلامى، ولم يكن لديهم فكر يغزون به هذا الشرق، لقد أقاموا كيانات استيطانية صليبية لاتينية فى قلب وطن الأمة العربية الإسلامية، لكنهم لم تكن لديهم إضافة فكرية لأن أوربا، فى ذلك التاريخ، كانت متخلفة، تعيش عصورها الوسطى والمظلمة، على حين كان الشرق العربى الإسلامى هو المتقدم حضاريًا..

ونحن نعلم أن هذا الاحتكاك العنيف بين الغزاة الصليبيين وبين الشرق المتحضر نسبيًا، فى ذلك التاريخ، كان من مثيرات

ومؤثرات وأسباب النهضة الأوربية فيما بعد، لأنهم قد تعلموا من الشرق أثناء هذا الاحتكاك العنيف.. كما تعلموا من احتكاكهم السلمى والعنيف بحضارتنا على أرض الأندلس.

أما الغزوة الاستعمارية الحديثة، التى تعرض لها وطن العروبة وعالم الإسلام، فلقد تميزت عن الغزوة الصليبية، لأنها جاءت، ليس فقط بالمدفع والبارود والجيش المنظم، تنظيمًا حديثًا، وليس فقط بالشركات الرأسمالية والنهب الاقتصادى الاستعمارى المنظم، وإنما جاءت أيضًا بفكرية الحضارة الغربية، فكرية عصر النهضة الأوربية، هذه الفكرية التى تألقت وأبدعت فى مختلف مجالات العلوم والفنون.. كانت هذه ميزة تميزت بها هذه الغزوة الحديثة، ومن هنا كانت حملة بونابرت شاملة للقوة وللفكر معًا، وكذلك كان حال كل الحملات الاستعمارية التى جاءت بعد ذلك التاريخ لتخضع الشرق لهيمنة الاستعمار الحديث.

لقد نشأ منذ ذلك التاريخ ما يسمى بفكرية «التغريب» وبتيار «التغريب» و«المتغربين».. ذلك أن الحضارة الغربية، على عكس الحضارة العربية الإسلامية، قد نهجت نهجًا سيئًا، استعلائيًا وعدوانيًا فى كل المجتمعات التى غزتها.. فنحن نعلم أن العرب المسلمين، عندما فتحوا البلاد التى فتحوها، قد احتضنوا المواريث الحضارية القديمة.. فالمواريث التى كانت قد هجرت وماتت أحيوها، ودخلت هذه المواريث - وبالتحديد: الصالح للعطاء من هذه المواريث - فى نسيج الحضارة العربية الإسلامية الجديدة، أما الحضارة الأوربية الغازية، فلقد مارست

سياسة النسخ والمسخ والتشويه مع المواريث الحضارية للشعوب والبلاد التى فتحتها هذه الغزوات الاستعمارية الحديثة.. فكما صنعوا مع الهنود الحمر، أرادوا وحاولوا أن يصنعوا مع المواريث الحضارية للشعوب الإفريقية، وفى آسيا، وفى كل البلاد التى غزوها، فهذه «الفكرية التغريبية» أرادت لهذه الشعوب المستعمرة أن تتحول لا إلى الحضارة الغربية، كما زعموا ويزعمون، فهم لا يمكنون هذه الشعوب من أن تصبح مثلهم فى الحضارة، بامتلاك مصادر القوة فى الحضارة الغربية - وهى كثيرة وغنية - وإنما أرادوا أن تتحول هذه الأمم وهذه الشعوب إلى «هامش حضارى».. مجرد «هامش حضارى».. إلى موقع «التبعية الحضارية» للمركز الأوربى، وكان الهدف، ليس تحضر هذه البلاد ونهضتها، لأن الاستعمار، بداهة، ليس حريصًا على هذا الهدف وهذه الغاية، وإنما كان الهدف هو أن يصبح العقل عندنا تابعًا «للمركز الأوربى» والغربى، لأن هذا هو السبيل الأمثل والأضمن لتأبيد، بل وتأبيد الغزوة الاستعمارية والنهب الاستعمارى، وهذا هو الضمان الرئيسى كى نتحول إلى «هامش أمنى» يحمى أمن «المركز الأوربى» والغربى!.. فكان سعى هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة ليس فقط إلى أن نصبح قواعد لأمن الغرب، وليس فقط إلى أن نصبح سوقًا ويدًا عاملة رخيصة لاحتكارات الغرب الرأسمالية، وإنما أيضًا وحتى يدوم ويتأبد هذا، لابد من تكبيل هذا العقل فى الوطن العربى والإسلامى بقيود التبعية الفكرية.. لقد وقفوا موقف العداء من «خلافنا الحضارى» لهم، و«اختلافنا

الحضارى» عنهم. وكل ما منّوا علينا به من حرية فى «الخلاف» و«الاختلاف» هو أن نختلف خلافهم وننقسم انقسامهم، فتكون «محافظتنا» هى «محافظتهم»، و«ليبراليتنا» هى «ليبراليتهم» و«تقدميتنا» هى «تقدميتهم» و«شموليتنا» هى «شموليتهم».. فلا نخرج عن إطار «التعبية والاحتواء»!.. لقد كان هذا هو «الخيار» - إن جاز أن يسمى خيارًا- الذى سمحوا به لعقلنا.. حتى لقد أصبحت التبعية للغرب هدفًا يسعى إليه المستضعفون، وصارت «قيدًا - لذيذا!!» تجرى وراءه النخبة والصفوة، لتجعل وطننا قطعة من أوربا، ولتجعل هذه الأمة أوربية العقل والحياة، نأكل كما يأكل الأوربيون، ونلبس كما يلبسون، ونفكر كما يفكرون، ونصيب كما يصيبون، ونخطئ كما يخطئون، ونعيش كما يعيشون!

ولقد بلغ الحال، فى إطار هذه التبعية الفكرية التى فرضت علينا، إلى الحد الذى أصبح فيه كل رجال الفكر فى بلادنا لا يستطيعون أن يؤثروا فى الأمة - وفى تحديد أذواقها وأزيائها مثلاً تأثير صاحب دار أزياء فى مركز من مراكز الغرب!.. وقس على ذلك: مدارس الفكر، ومذاهب وأدوات الإبداع.. فإذا كانت عندهم «وجودية».. نجتهد، فنجهد الحقيقة لنفتعل عندنا «وجودية»! وإذا كان عندهم «اغتراب».. نفتعل عندنا «اغترابًا»! وإذا كانت عندهم «بنيوية».. فلا بد أن تكون لنا «بنيوية»!.. وهكذا نصبح، بالفعل، راقصين على الأنغام الفكرية الأوربية، دونما اعتبار للبديهيات التى تقول إن لكل أمة نمطًا فى التطور، ولكل

حضارة عريقة وغنية وحية مزاجًا فى التطور، وأن الفكرية [الأيديولوجية] لابد أن تطبع بطابع الواقع الذى تعيشه الأمة وتتفاعل فيه.

كان مطلوبًا إلغاء هذا المنطق البديهى، لتصبح التبعية هدفًا يسعى إليه المستضعفون فى الأرض، من شعوب الأمم التى ابتليت بهيمنة الاستعمار الحديث، وذلك كى تتأبد تبعية هذه الشعوب وتترسخ فى مختلف الميادين وشتى المجالات!.

تيارات ثلاث

أمام هذه الهجمة «التغريبية» الاستعمارية، ماذا حدث لحياتنا الفكرية؟ وكيف استقبل مفكرونا ومثقفونا هذا «الوافد» التغريبى»؟ لقد تشكلت الصورة على النحو التالى:

كانت لدينا مؤسسات «فكرية – تعليمية – تهذيبية» تقليدية من مثل: الأزهر.. والزيتونة.. والقرويين.. والطرق الصوفية.. إلخ.. وأمام هذه الهجمة التغريبية، جفلت هذه المؤسسات وانزعجت، فانكفأت على ذاتها، وانغلقت على موروثها، مخافة الزوال والذوبان، الذى هو خطر من مخاطر «التغريب»..

وللأسف الشديد، فإن «الذات» التى انكفأت عليها هذه المؤسسات التقليدية لم تكن هى الذاتية الحقيقية والنقية والحية للحضارة العربية الإسلامية العقلانية المستنيرة، التى تألقت فى عصر ازدهار هذه الحضارة، وإنما كانت ذاتية فكرية عصورنا الوسطى.. عصور التراجع والجمود التى توقف فيها الإبداع الذاتى والتفاعل الحضارى تحت تسلط المماليك وسلطان آل عثمان، ففى

ظل هذ التسلط ذبلت عقلانية الفكر الإسلامى، وذبلت استنارة هذا الفكر، وتوقف الاجتهاد والخلق والإبداع فى ظل هذه القرون التى قاربت السبعة [٦٤٨ - ١٣٤٢هـ = ١٢٥٠ - ١٩٢٤م].. وأخذنا نجتر «الحواشى» و«المتون»، التى نظمت نظمًا ركيكًا.. وغرقنا فى «الحكاكات» اللفظية والمحسنات الشكلية التى كونت المساحة العظمى من الذاتية الفكرية لهذه المؤسسات!

لقد انكفأت هذه المؤسسات التقليدية على الذات خوفًا من خطر التغريب، ورفضت أن تستعين بتراثها الأصيل، تراثها العقلانى لمواجهة هذا الخطر الوافد.. ونحن نقرأ فى أدبيات تلك الفترة كيف أن الشيخ محمد عبده [١٢٦٥- ١٣٢٣هـ=١٨٤٩ - ١٩٠٥م] قد ناضل طويلاً من أجل أن تدخل علوم مثل «الحساب» و«التاريخ» «والجغرافيا» فى مناهج الأزهر التعليمية.. ولقد سمى «الجغرافيا» باسمها القديم [تقويم البلدان] كى يألفوها فيقبلوها!.. ومع ذلك وقفوا ضده واعتبروا محاولاته هذه ثورة جامحة، بل وحسبوها «تغريبًا» يجب رفضه.. ودارت بين الرجل وبين شيوخ الأزهر فى عصره مناقشات، بل ومعارك، مات الرجل بسببها حسرة وكمدًا!

ونحن نقرأ، فى أدبيات تلك الفترة، كيف أن شيخًا جليلاً هو الشيخ عليش [١٢١٧ - ١٢٩٩هـ = ١٨٠٢-١٨٨٢م] عندما سمع أن الشيخ السنوسى [١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ =١٧٨٧ - ١٨٥٩م] يدعو إلى فتح باب الاجتهاد، حمل عصاه «الشهيرة - الغليظة» وأخذ يبحث عن الشيخ السنوسى ليؤدبه!

ونعرف أن نفس الشيخ عليش هذا عندما علم أن كلمة «المعتزلة» قد ذكرت فى صحن الأزهر، على لسان محمد عبده، الذى كان لا يزال طالبًا بالأزهر، يتتلمذ على جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] بمنزله فى «خان الخليلى» ويذهب إلى صحن الأزهر فيعيد على نجباء «المجاورين» ما سمع من شروح الأفغانى على أمهات كتب «علم الكلام» الإسلامى.. عندما علم الشيخ عليش أن كلمة «المعتزلة» قد ذكرت بصحن الأزهر، هم أن يهشم عظام محمد عبده بعكازه الغليظ!..

كان هذا هو مستوى المؤسسات الفكرية التقليدية، سواء أكانت تعليمية.. أم صوفية تحول لديها التصوف من تصوف «عقلانى - فلسفى» أو «تهذيبى - شرعى» إلى شعوذة وحيل واحتيال وبدع وخرافات!..

لقد انكفأت هذه المؤسسات على أسوأ ما فى ذاتيتنا الفكرية.. انكفأت على السلبى والجامد والمتخلف، ورفضت، فى جمود شديد، ليس «ما جاء من الغرب كوافد، فقط، وإنما رفضت كذلك، جوهر الموروث العربى الإسلامى، كما تألق قبل عصر الركاكة والجمود!..

ولقد كان تراث هذه المؤسسات الفكرية، الذى كون فكريتها فى ذلك التاريخ، لا يبعث على السرور أو الاحترام.. وكان مستحيلاً على هذا التراث أن ينافس «الوافد» الغربى، الذى يمثل إبداع عصر النهضة والثورة الصناعية.. فلم تكن تلك المؤسسات، فى ذلك التاريخ تعرف حقيقة «موروث» هذه الأمة.. بل إن الذين بدءوا تحقيق النصوص القديمة، والذين بدءوا يكتبون الدراسات

حول موروثنا الحضارى كانوا هم المستشرقين.. وكان موقف مؤسساتنا التقليدية من جوهر تراثنا كمثل موقف السفهاء الذين ورثوا كنوزًا غنية لكنهم لا يعرفون قيمتها ولا قدرها!.. والذين يقرءون للمستشرق الروسى كراتشكوفسكى [١٨٨٣ - ١٩٥١م] ما كتبه عن [المخطوطات العربية] يصيبهم الأسى والألم.. إنه يحكى كيف كان الشيخ المؤتمن على مخطوطات مكتبة الأزهر جاهلاً بقيمة هذه المخطوطات، بل وعدوًا - بسبب هذا الجهل - لتراث أمته.. فلقد احتال عليه كراتشكوفسكى، فحدثه عمًا فى مخطوط إحدى رسائل أبى العلاء المعرى [٣٦٣ - ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ - ١٠٥٧م] من زندقة وإلحاد، فما كان من هذا الأمين - أمين المكتبة - إلا أن جمع «سلة» من مخطوطات المعرى وألح على كراتشكوفسكى أن يأخذها، لتطهّر مكتبة الأزهر الشريف مما بهذه المخطوطات من زندقة وإلحاد!.

كان هذا هو موقف هذه المؤسسات التقليدية من «الموروث» الحقيقى للأمة.. لم تكن تعرف حقيقة التراث فى منابعه الجوهرية والأصيلة، لأنها كانت تعيش على زاد ضحل ومظلم ومتخلف، عندما يوضع فى كفة، ويوضع «وافد» الحضارة الغربية فى الكفة الأخرى، تصبح المعركة والمنافسة - وهكذا أصبحت - غير متكافئة بين هذا «الوافد» وذلك «الموروث»!

والذى حدث، عند هذه المنافسة وهذه المقارنة أن الصفوة والنخبة الحديثة، والراغبة فى «الحداثة والتحديث»، قد أدارت ظهرها لهذا «الموروث» لأنها - وبكل الإخلاص للوطن - قد رأت أن السبيل إلى القوة والتحضر والتطور كامن فى أن نصبح غربًا

كالغربيين فى كل شىء! وتلك كانت بداية نشأة التيار الذى نسميه «تيار التغريب» فى واقعنا الحضارى.

لقد نشأ هذا «التيار التغريبى»، نشأة طبيعية، بعد هذه الهجمة الاستعمارية الحديثة، فتكونت الصفوة والنخبة الحديثة، التى رأت أن ما يسمى بـ «الموروث»، أو «الصورة المملوكية - العثمانية للإسلام» لا تبعث على السرور، وليست جديرة ولا مؤهلة لأن تقيل هذه الأمة من عثرتها، وتنهض بها كى تواجه الأوربيين.. فقالت هذه النخبة: إن السبيل لمواجهة أوربا، والطريق للقوة اللازمة لنا -كى نتحرر من الاستعمار- هو أن نستعير الحضارة الغربية.. فكان أن دعت هذه النخبة إلى ما دعا إليه الدكتور طه حسين [١٣٠٦-١٣٩٣هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] فى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر].. دعت إلى أن نفكر كما يفكر الأوربيون، ونحيا كما يحيون.. نصيب كما يصيبون، بل ونخطئ كما يخطئون! إلى آخر مقولات تيار التغريب.

وبالطبع، فإذا كان هناك عذر للذين تغربوا فى ذلك التاريخ، فلقد كانت هناك فضيلة لتلك المؤسسات التقليدية لا يصح لنا أن ننكرها أو نغفل عن إبرازها، وهى أن الحفاظ على الذاتية، حتى فى صورتها المتخلفة، كان أفضل من كارثة الذوبان النهائى فى الحضارة الغازية، ومن تسليم القلاع جميعها وفتح كل المعاقل، أمام غزوة «التغريب»!

وهنا لابد أن نتذكر ونذكر ما حدث فى الجزائر، خلال معركتها ضد الفرنسة والمسخ القومى الذى أراد به المستعمرون الفرنسيون أن تتحول الجزائر العربية المسلمة إلى الامتداد الفرنسى اللاتينى

لفرنسا الأم عبر البحر الأبيض المتوسط، وعلى الشاطئ الإفريقي.. ففى معركة الجزائر هذه، دفاعًا عن هويتها وموروثها الحضارى ضد الفرنسة، وجدنا هذا الشعب البطل، عندما أحدقت به المخاطر، وأصبح ظهره للحائط، ونزعت أسلحته!.. وجدناه يقاوم ويحارب أحيانًا حتى بالأسلحة الغريبة.. فالجزائر قد تسلحت وحاربت حتى «بالجهل والأمية»! من يتصور أن يصبح «الجهل» وتصبح «الأمية» أسلحة يدافع بها الشعب عن «ذاته» ضد الغزاة؟.. لقد حدث هذا؛ ذلك أن الذين تعلموا وتثقفوا قد أصبحوا فرنسيين، يندمجون وينتمون إلى الوطن الأم «فرنسا» أو يسجنون فى سجن الفرنسية وثقافتها!.. أما الذين ظلوا على جهلهم وأميتهم فهم الذين احتفظوا بهويتهم، وبموروثهم الحضارى، وبذاتيتهم المتميزة عن المسخ المشوه الذى أراده الاستعمار.. ولقد استمر ذلك إلى أن جاءت [جماعة العلماء المسلمين فى الجزائر] بقيادة شيخها عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] فأبرزت الوجه المشرق للتراث، وصنعت جيل الرجال الذين ولدت من أحضانهم ومن أحشائهم [جبهة التحرير الوطنى الجزائرية]، التى رفعت السلاح وحررت الجزائر، وأعادتها إلى أحضان العروبة والإسلام، بعد احتلال قرن وثلث القرن!

إذن، فى ظل هذه الهجمة التغريبية، كان الانكفاء على الذات، رغم سلبياته، من حيث عجزه عن تقديم البديل الحضارى القادر، بجدارة، على منافسة الحضارة الغربية وفكرية التغريب- وهذه هى السلبية الكبرى للجمود وأهله.. فهم بجمودهم قد عجزوا عن أن

يقدموا البديل الصالح لنهضة الأمة أمام تحدى التغريب - ولكن هذا الجمود، وهذا الانكفاء على الذات، رغم تخلفه، ورغم أنه لا يمثل جوهر العقلانية الإسلامية الحقيقية، فإنه احتفظ بالموروث حتى يأتى بعد ذلك جيل يطور هذا الموروث، ويتجاوز تخلفه، وينفض عنه الغبار، ويأتى - بالاجتهاد والتجديد- فيبعث ويبلور المشروع الحضارى الذى تواصل به الأمة مسيرتها الحضارية المتميزة..

إذن، نستطيع أن نقول: إن هذا الاحتكاك، الذى بدأ مع الغزوة الأوربية الحديثة، قد ولد فى واقعنا الفكرى تيارات ثلاثة:

■ تيار الجمود الذى أشرنا إليه..

■ وتيار التغريب.. الذى ظن واعتقد - مخلصًا- أن سبيل القوة هو أن نتغرب، ونصبح فى الحضارة غربيين..

■ ثم التيار الوسطى.. التيار التجديدى، الذى نسميه تيار «الجامعة الإسلامية»، أو تيار «التجديد الدينى»، الذى ارتاده جمال الدين الأفغانى، والذى تكونت من حوله صفوة من المفكرين فى مصر وفى المشرق وفى المغرب، قادت الكثير من الحركات الوطنية، وقادت الكثير من حركات التجديد الفكرية والدينية فى وطن العروبة وعالم الإسلام.

لقد رفض هذا التيار التجديدى الوقوف عند جمود الجامدين، وبشر بضرورة تجاوز فكرية العصور الوسطى والمظلمة، والعودة إلى المنابع الجوهرية والنقية..

وهذه العودة إلى المنابع هى التى تسمى بـ [السلفية].. وهذا المصطلح قد أصبح - للأسف الشديد - واحدًا من المصطلحات

«سيئة السمعة!» لدى كثير من المثقفين المستنيرين والتقدميين، فى التيار العلمانى.. فهم يعتقدون أن «السلفية» مرادف للبدائية والتخلف والمحافظة والجمود. إلخ.. إلخ.. ونحن نعتقد أن هذا الفهم الخاطئ والمغلوط يغفل عن حقيقة أن «السلفية» ليست تيارًا واحدًا فى الفكر الإسلامى.. وعن حقيقة أن كل حركات التجديد والإصلاح فى إطار وطن العروبة وعالم الإسلام قد بدأت جميعًا كحركات ودعوات «سلفية».. ذلك أنه فى الدين، فى الثوابت، فى الأصول، فى العقائد والشعائر، فى الشئون المتعلقة بالغيب والآخرة، لابد من العودة إلى المنابع.. وهذه العودة إلى المنابع إذا اكتفت بالوقوف عند «النصوص»، ولم تنظر فيها بالعقل المستنير وبراهينه، كانت «سلفية نصوصية»، تورث أصحابها المحافظة والجمود، فإذا ما نظر هؤلاء «السلفيون النصوصيون» فى «المتغيرات الدنيوية» بمنهجهم هذا، السلفى النصوصى، كانوا –لابد– نموذجًا للجمود الباعث على النفور، بل والرثاء!..

أما إذا عنت «السلفية»: العودة للمنابع، والنظر فيها بالعقل المستنير، والاقتصار فيها على الثوابت والأصول والعقائد، ثم المزاوجة بينها وبين «المستقبلية» فيما يتعلق «بالمتغيرات الدنيوية»، كانت النهج الأمثل «للتجديد».. لأنها بالعودة إلى المنابع تمثل الثورة التجديدية ضد البدع والخرافات والزوائد التى رانت على الثوابت والأصول، وهى بذلك تسهم فى تحرير العقل من الأثقال عندما تُخفف عنه أحمال عصور الانحطاط.. ثم إنها، فيما يتعلق بعمران الأرض وتطور المجتمع والمشروع

الحضارى المنشود لإنهاض الأمة، وكل شئون الدنيا، تبدع فى إطار الكليات الدينية، وفق مصلحة مجموع الأمة، التى هى فى فلسفة الإسلام التشريعية: «نص من النصوص»! ولذلك، فلقد غلب الرأى القائل بأنه إذا تعارضت «المصلحة» مع «النص» وجب تقديم «المصلحة» على «النص»، لأن «المصلحة» بنص الحديث النبوى الشريف.. حديث: «لا ضرر ولا ضرار» تعتبر من «النصوص».. فعندما نقدم «المصلحة» على «النص» فنحن نقدم «نصًا» على «نص» آخر.. ولسنا نخرج بذلك عن التزام ثوابت الدين وأحكامه!

هذا هو نهج مدرسة «التجديد الدينى» الحديث، فيما يتعلق بالثوابت، فيما يتعلق بالطابع الحضارى الذى يميز هذه الأمة.. لقد قالوا: إننا نتميز عن الحضارة الغربية، ولابد أن نحرص على هذا التميز، وهذا التميز ليس انغلاقًا ولا عداء حضاريًا.. أما فيما يتعلق بشئون الدنيا، بالعلوم الطبيعية، وبتطبيقات هذه العلوم الطبيعية، وبكل العلوم التى تؤسس حقائقها على قوانين.. وأيضًا بكل ما يدخل فى «عوامل القوة» اللازمة لتقوية الذاتية الحضارية المتميزة، فلابد أن ننفتح فيها على مختلف الحضارات، نستلهم منها ونتمثل، ونتبادل الأخذ والعطاء..

ولقد كانت مدرسة «التجديد الدينى»، بهذا المنهج وهذه الدعوة، الممثل الحقيقى لموقف حضارتنا العربية الإسلامية التاريخى فى هذا الموضوع، فالعرب والمسلمون قديمًا قد انفتحوا على الحضارة اليونانية والفارسية والهندية، لكنهم

لم يتحولوا إلى فرس أو يونان أوهنود، وإنما هم تمثلوا ما زاد سماتهم وخصوصياتهم تميزًا، وهم قد صنعوا ذلك من موقع صاحب الشخصية المستقلة، من موقع صاحب الجسد الصحيح والصحى، فكانت لهم قدرة التمثل والاستلهام، دونما تبعية أو مسخ أو تشويه.

لقد ترجموا فلسفة اليونان، لكنهم لم يستوردوها ولم يتبنوا مقولاتها لتكون التعبير عن روحهم الحضارى وتصوراتهم للكون والوجود، وإنما قرأوا هذه المقولات الفلسفية اليونانية قراءة إسلامية؛ حتى لقد أصبحت «فلسفة إسلامية». أما الذين قلدوا- من فلاسفتنا - مقولات الفلسفة اليونانية فلقد ظلوا مجرد هامش فى التراث الفكرى الإسلامى، بل لقد كان فلسفة هذه الأمة الحقيقية، ومظهر عبقريتها وإبداعها فى ميدان الفلسفة، هو «علم الكلام الإسلامى»، الذى جسد وسطية الحضارة الإسلامية عندما وازن ما بين «العقل» و «النقل»، فتأسست فلسفته على قواعد «الدين»!

إذن، هذه الأمة لها طابع حضارى متميز، وإلى هذا دعا تيار «التجديد الدينى».. دعا إلى أن نحتفظ لهذه الأمة بهذه الهوية الحضارية المتميزة، ودعا إلى أن ننفتح على علوم الحضارة الغربية ورائد هذا التيار: جمال الدين الأفغانى، هو القائل: «إن العلم أمه وأبوه: الدليل».. فأينما يكن العلم مؤسسًا على الدليل فليس له وطن ولا جنس ولا حدود ولا قوميات.. أما فى الإنسانيات، أما فى الفلسفة والثقافة، أما فيما تتمايز فيه الحضارات العريقة المتمايزة، فلا بد من الاحتفاظ بالهوية..

هنا كانت عبقرية هذا التيار الوسطى، الذى رفض «جمود الجامدين»، والذى رفض، أيضًا «تغريب المتغربين».. ومن يقرأ ما كتبه الإمام محمد عبده فى الصفحات التى تحدث فيها عن «سيرته الذاتية» يجده يقول: «لقد نشأت كواحد من أبناء الطبقة المتوسطة فى مصر، وتعلمت ما كان الناس يتعلمون، ورأيت جمهور الأمة وقد استقطب إلى تيارين: طلاب فنون الدنيا.. وطلاب علوم الدين».. ثم ينتقد الفريقين فلم يكن الأولون سالكين طريق التحضر الصحيح.. ولم يكن الأخيرون سالكين طريق الدين القويم!.. ثم يقول: ولقد اتخذت بينهما موقفًا وسطًا، وثالثًا، يجمع ما فى الموقفين من حق صحيح!.

ومن يقرأ كلمات الأفغانى ويفقه سيرته، فى كل المواقع التى ناضل فيها، يجد أنه كان واعيًا بموقعه الوسطى بين تيارى «الجمود» و«التغريب».. وما كتبه عن المدارس «الحديثة» التى أنشأها محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٩٥هـ =١٧٧٠ - ١٨٤٩م].. وتلك التى أنشأتها الدولة العثمانية، وما قام فى الشرق الإسلامى من «تحديث» على النمط الغربى، يجد مصداق هذا الذى نقول.. لقد كتب الأفغانى مسفهًا أحلام الذين ظنوا أن «الحداثة الغربية» صالحة، بتعميم وإطلاق، لتكون «الحداثة العربية الإسلامية» فقال: «.. لقد شيد العثمانيون عددًا من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب، وكل ما يسمونه «تمدنًا»، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد

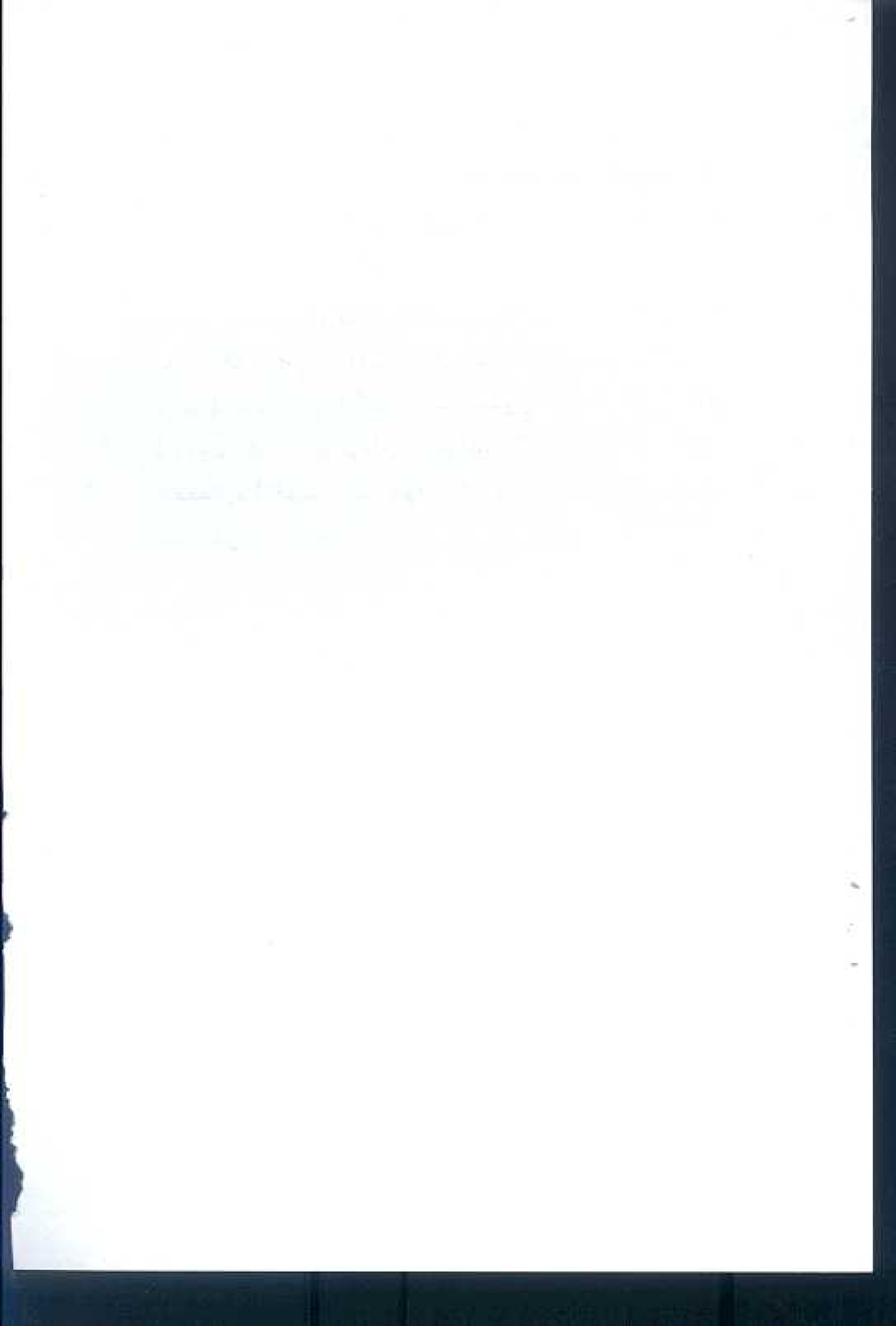
التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى!. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟! نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية [القومية] وما شاكلها، وسموا أنفسهم، زعماء الحرية! ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية، وسائر الماعون: وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم، فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم! وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم، وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط من شأنها! لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم!».

تلك كلمات جمال الدين الأفغانى، شاهدة على أن مشكلة الموقف من «الموروث» ومن «الوافد» قديمة قدم الهجمة التغريبية الاستعمارية التى دهمت بلادنا مع مطلع العصر الحديث.. وشاهدة كذلك، على أن حركتنا الفكرية قد انقسمت إزاء هذه القضية إلى تيارات ثلاثة:

- أهل الجمود.. الذين انكفئوا على الذات، التى لم تكن تمثل الوجه الحقيقى والمشرق للموروث. ورفضوا أى تفاعل أو انفتاح على الوافد الأوربى الجديد..

- والمتغربون.. الذين دعاهم نفورهم من صورة الموروث، كما تجسدت فى فكرية المؤسسات التقليدية، إلى نبذ هذا الموروث، والسعى إلى تبنى «النموذج الغربى فى التحديث»..

- وتيار التجديد الدينى.. الذى رام تجديد الدنيا عن طريق تجديد الدين، ولم يقف بحياد بين «الموروث» و«الوافد».. وإنما انطلق من الالتزام بالأصول الجوهرية والنقية لموروث الأمة، وسعى إلى دعم استقلالها الحضارى بما فى الحضارة الغربية من عوامل القوة والتقدم التى أبدعها الأوربيون!



الجديد فى حقبة السبعينيات

لكننا نسأل - السؤال نفسه الذى سأله ويسأله الكثيرون:

- لماذا اشتد وعلا الصوت بالحديث عن «الوافد» و«الموروث» بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م؟!
- ولماذا انتشرت ظاهرة العودة إلى «الموروث»، والتحصن به فى حقبة السبعينيات؟!
- ولماذا اندفع الشعب، فى مصر، بتلقائية وعفوية ينشد نشيد: «بلادى، بلادى، لك حبى وفؤادى»، فى جنازة البطل الشهيد الفريق عبد المنعم رياض؟!

* * *

ولماذا اندفع الشبيبة، وليس الكهول إلى حيث الموسيقى العربية بعد هزيمة ١٩٦٧م، وخلال حقبة السبعينيات؟!

- ومتى انخرطت أفواج الشبيبة فى تنظيمات «الموروث» [الإسلام] ، تتحصن به كما لم تتحصن بشىء من قبل، حتى بأشكاله ورموزه - [اللحية.. والجلباب..والسواك]؟

- بل ومتى أحس الناس بالحاجة إلى قيام «لجان الدفاع عن الثقافة القومية»؟!

متى حدث ذلك؟.. ولماذا هذا الانتشار لظاهرة التحصن «بالموروث»..؟ والجدل الذى يعلو صوته حول قضية «الوافد» و«الموروث»؟!..

لقد حدث ذلك فى مواجهة هزيمة سنة ١٩٦٧م.. التى أفرزت، ضمن ما أفرزت، تجريد المشاريع «التحديثية- العلمانية» [الوافدة] من مصداقيتها وجدارتها بإنهاض الأمة من كبوتها الحضارية.. ومن ثم فلقد انعطفت جماهير الأمة إلى «الموروث»، تتحصن به، وتدعو إلى سلوك سبيله لمواجهة التحديات المفروضة على الأمة، واثقة من فعالياته اليوم، لأن أسلافها قد انتصروا على تحديات الأمس بهذه الفعاليات!

وحدث ذلك فى مواجهة الهجمة «التغريبية» التى جاءت بها حقبة السبعينيات.. تلك الهجمة التى تجسدت فى شيوع التحلل الاقتصادى، الذى أسموه «انفتاحًا».. وشيوع «ثقافة» الشرائح الانفتاحية.. وسيادة قيم شارعى «الشواربى» و«الهرم» فى أجهزة الإعلام!.. وشيوع الأنماط الاستهلاكية التى تستنفر غرائز النهم والشره والشهوة فى الإنسان!

لقد زحفت هذه القيم والظواهر التغريبية على واقعنا، فى حقبة السبعينيات، حتى كادت تطمس ضياء ذلك الشهاب الذى لمع فى أفقنا فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م.. ولذلك لم يكن غريبًا أن يختلج ضمير الأمة وينتفض جسدها باحثًا عن

الحماية فى ترسانته الحضارية التاريخية، ومتحصنا بموروثه، ومتترسا بالقلعة التى تترس بها أسلافه وهم يواجهون أمثال هذه التحديات التى مرت بها هذه الأمة عبر تاريخها الطويل!..

ذلك هو تفسير «الشيوع» لهذه الظاهرة، فى السبعينيات.. لقد كان شيوعا لظاهرة لم تولد فى السبعينيات؟!

قانون الاحتكاك الحضارى

إن سير أحداث القصة التى حدثت لأمتنا، عندما احتكت هذا الاحتكاك العنيف بالحضارة الغربية هو أشبه ما يكون - فى اعتقادى- بـ «القانون» الذى يحكم ظاهرة «التماس الحضارى» و«اللقاء بين الحضارات»!.. سواء أكان هذا «التَّماس» سلميًا أم عنيفًا..

فنحن إذا راجعنا تاريخ الحضارة الغربية، عندما كانت فى سبيلها إلى النهضة، نراها قد احتكت بالحضارة العربية الإسلامية.. ونحن نعرف دور الأندلس، والترجمة، وإشعاع الجامعات فى الأندلس.. إلى آخر القصة المعروفة التى يحفظها الجميع..

ماذا كان موقف أوربا من هذه الحضارة المغايرة؟.. ومن «الوافد» الذى تمثله؟! ما موقفها من حضارتنا، عندما احتكت بها، سلميًا وعنيفًا فى الأندلس، وعنيفًا فى الحروب الصليبية، وهى بسبيلها إلى النهوض؟..

لقد انقسمت الحياة الفكرية الأوربية، يومئذ، إزاء «الوافد» العربى الإسلامى إلى تيارات ثلاثة؟:

■ وأول هذه التيارات، يومئذ، كان تيار «الكنيسة الكاثوليكية».. الذى مثل «أهل المحافظة والرجعية والتخلف والجمود».. لقد رفضوا أى انفتاح على الحضارة العربية الإسلامية، رفضوا الدين الإسلامي وعقلانيته، والقيم والأخلاق، والفكر والثقافة جميعًا.. لقد أبصروا ما يحمله لهم الدين الإسلامى من «توحيد» بلغ أرقى صوره وأنقاها، حتى ليرفض أى «حلول» أو تجسيد» أو تعددية فى ذات المعبود سبحانه!!.. إلخ.. ولذلك رفضوه، ورفضوا الفلسفة الإسلامية، بما فيها من عقلانية.. رفضوا فكرية الحضارة الإسلامية بكاملها، دينًا وعلومًا وحضارة، فلقد كانت علوم هذه الحضارة حاملة فى ثناياها الروح الإيمانية للإسلام!

■ وكان هناك تيار يسميه البعض بـ «الرشديين اللاتين»، الذين ساروا مع ابن رشد، وحاولوا التبشير بفكره.. وكان فى هذا التيار قطاع متحمس لتبنى الحضارة العربية الإسلامية، يتسلح بـ «وافدها» هذا فى حربه ضد الكنيسة وتيار الجمود!.. ولقد ذهب هذا القطاع فى حماسه للوافد العربى الإسلامي إلى الحد الذى جعله يتمنى أن تنطبع به أوربا انطباعًا كاملاً وتامًا.. فتمنوا أن يسود الإسلام وحضارته أوربا، وكتب «أناتول فرانس» [١٨٤٤ - ١٩٢٤م] معبرًا عن نزوع هذا التيار يقول: « يا ليت الإسلام كان قد بسط فكره على أوربا من الأندلس حتى تركيا، ويا ليت مآذن المساجد قد ارتفعت بدلاً من الكنائس، ويا ليتنا سمعنا ترتيل القرآن بدلاً من الأناجيل.. إذن لأفلتت أوربا من عصورها المظلمة والقرون المتخلفة التى عاشتها»؟!

على هذا النحو فكر وقدّر فريق من مفكرى أوربا، كان يرى أن الموقف الأمثل هو تبنى هذا «الوافد» العربى الإسلامى، ليكون البديل الذى ينهض بأوربا ويخرجها من عصورها المظلمة!..

■ أما التيار الأساسى، الذى صنع عصر النهضة الأوربية، وبنى دعائمه، فلقد وقف إزاء الحضارة العربية الإسلامية موقفاً متميزًا عن موقف «الرفض الكامل» الذى وقفته الكنيسة وأنصارها، وعن موقف «التبنى الكامل» الذى وقفه فريق من «الرشديين اللاتين»..

لقد سعى هذا التيار إلى حضارتنا فوعاها، ثم استلهم وتمثل منها: «المنهج التجريبى»، و «العلوم الطبيعية».. أما قسمة العقلانية الإسلامية: فلقد ميَّز هذا التيار «عقلنا» عن «نقلنا»، فرفض ما فى عقلانيتنا من «نقل» و«وحى إسلامى» وأخذ فقط الانحياز إلى «براهين العقل» فكأنه قد أخذ عنَّا عقلانيته اليونانية، وترك ما تميزت به عقلانية الإسلام!..

لقد كان المنهج، عند اليونان، هو: «القياس»، فأصبح فى حضارتنا هو: «الاستقراء والتجريب».. وهذا هو الذى تمثله الأوربيون من حضارتنا.. وتمثلوا معه علوم هذه الحضارة، من طب وحساب وجبر وبصريات.. إلخ.. إلخ.. لكنهم تحفظوا إزاء القيم والأخلاقيات والروح الحضارية للحضارة العربية الإسلامية.. أخذوا علوم العرب والمسلمين، التى نسميها «العلوم الطبيعية»، وتطبيقات هذه العلوم، ثم طوروها فى عصر النهضة.. ولكنهم، فيما يتعلق بالإنسانيات تحفظوا.. لقد رفضوا «التوحيد»، وهو جوهر فكرية - [أيديولوجية] - هذه الأمة،

ومعيار نظرتها وتصورها لهذا الكون.. ورفضوا قيم حضارتنا.. ورفضوا «الوسطية الإسلامية»، التى هى الموقف المعتدل والمتوازن الذى ألفت به حضارتنا بين ما هو «دين» وما هو «دنيا».. وبين «الدنيا» و«الآخرة».. وبين «الجسد» و«الروح»، وبين «الحكمة» و«الشريعة» إلخ.. وهذه «الوسطية» هى المزاج الحضارى والروح الحضارية التى تميزت بها حضارتنا العربية الإسلامية..

لقد أخذوا الجانب العلمي، المؤسس على الحقائق العلمية، وطوروه.. أما فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية، وبالقيم، وبالأخلاقيات، والطابع الحضاري، والذى يشبه «البصمة»، و«المزاج الحضارى» و«الروح الحضارية» فلقد رفضوها.. رفضها هذا التيار، الذى أسس وبنى وصنع وقامت على أكتافه فكرية عصر النهضة فى أوربا..

هذه هى التيارات الأوربية الثلاث، التى واجهت «الوافد» العربى الإسلامى إبان سعى أوربا إلى النهضة.. والتى تقابل تياراتنا الثلاث فى موقفها من فكرية «التغريب».. تبلورت فى الواقع الفكرى الأوربى.. كما تبلورت فى واقعنا الفكرى، إزاء ظاهرة الاحتكاك الحضارى بين الحضارتين، لتشهد على عموم هذا القانون!..

«فأهل الجمود».. يرفضون أى انفتاح على أى حضارة من الحضارات، وينكفئون على الذات، بصرف النظر عن صلاح وصلاحية هذه الذات!..

وقوم – هم «المتغربون» – يرون أن الصلاح والأصلح هو أن نتحول إلى الجانب «المتحضر» في كل شيء، ونصبح مثله في كل المجالات والميادين..

والتيار الذي نسميه – في حالتنا– تيار «التجديد الديني»، قد أبصر رواده أن لأمتهم مشروعًا حضاريًا متميزًا، يرتفع على قاعدتين، ويطير بجناحين: بالمميزات الحضارية الخاصة وبالعلوم والنظم، التي تمثل «مصادر القوة» في الحضارة الغربية..

لقد قال جمال الدين الأفغاني – وهو رائد هذا التيار–: «إن العلم ابن الدليل»!.. وقال أيضًا: «ليس على الشرقي أن يبدأ من حيث انتهى الأوربيون، وإنما لابد من الاحتفاظ ببعض من الأصول التي كان عليها أسلافنا الشرقيون».. فهنا موقف التمييز بين العلوم التي لا وطن لها، ولا جنس، ولا حدود تحد صلاحها وصلاحيتها.. وبين الإنسانيات والاجتماعيات والفلسفات والفكر الذي يحدد للإنسان تصوراته للكون، وكل ما يتميز بتميز الواقع الحضاري..

وهذا التمايز الحضاري – كما أشرت– هو غير الانغلاق أو العداء الحضاري..

وعلى سبيل المثال، فنحن لو نظرنا إلى «خريطة» هذا الكوكب الذي نعيش عليه، من الزاوية الحضارية.. هل يستطيع إنسان أن ينكر أن الصين حضارة متميزة؟.. وأن الهند حضارة متميزة؟.. وأن الغرب حضارة متميزة؟.. وأيضًا، أن العرب والمسلمين حضارة متميزة؟.. وأن التواصل الحضاري يجب أن يبرأ من «التبعية» و«الذوبان».. وأن يبرأ كذلك من «العداء الحضاري» و«الخصومة» الحضارية؟

انظروا إلى ماوتسى تونج [١٨٩٣ - ١٩٧٦م].. ألا يقولون: إنه قد طوع الماركسية- وهى «وافد» - للواقع الصينى - «الموروث»؟!.. فأصبحت شيئًا جديدًا، عندما يقارنه خصومه بالأصل الأوربى، نراهم يتهمون «ماو» بالهرطقة والمراجعة والردة والانحراف!.. لكننا نقول: هنا، كانت الصين، بموروثها الفكرى، بوتقة حضارية متميزة، وفى هذه البوتقة كان على «الوافد» أن يُطوَّع «للموروث» فيتشكل بشكل جديد..

وهذا المثل الصينى يذكرنا بما أشرت إليه من أن أسلافنا العرب المسلمين، عندما ترجموا الفلسفة اليونانية، فإنهم «قرأوها قراءة إسلامية».. لقد تمثلوها من موقف المستقل وموقع الراشد الصحيح فانطبعت بروحهم الحضارى المتميز ومزاجهم الحضارى الخاص.. والذين يفقهون- ولا أقول: يقرأون!- شروح ابن رشد على أعمال أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ق.م] - وهو الشارح الأكبر لأرسطو- يرون فى إضافات ابن رشد وإبداعه ما يمثل ابن رشد المسلم، والمتكلم، والقاضى، والفقيه.. هنا كانت الإضافة الممثلة لروحنا الحضارى حتى فى الشروح الرشدية على أعمال أرسطو.. أما إذا أردنا ابن رشد فى صورته الحقيقية المتكاملة، فلابد أن نبحث عن ذلك فى الأعمال التى أبدعها، كمتكلم ومشرع وفقيه..

هذا هو القانون الذى حكم احتكاكنا العنيف بفكرية «التغريب»، عندما بدأت الغزوة الأوربية الحديثة.. وهو ذات القانون الذى حكم احتكاك الغرب بحضارتنا إبان نهضته.. ومن قبل ذلك حكم احتكاك العرب المسلمين، أواخر العصر الأموى وفى

العصر العباسي، بالحضارات التى أخذوا منها وترجموا عنها.. حضارات اليونان والفرس والهنود.

ونحن عندما نتأمل فى تجربة مصر تحت قيادة محمد على باشا، نجد ما يفيدنا فى هذا الموضوع.. إن البعض منا عندما يفتح كتاب [البعثات العلمية فى عهد محمد على وعباس وسعيد].. وهو الكتاب الذى وضعه الأمير عمر طوسون [١٢٨٩ - ١٣٦٣هـ = ١٨٧٢ - ١٩٤٤م].. إن هذا البعض يردد كلامًا شائعًا- ولكنه مخطئ - يقول: إن من سلبيات محمد على أنه قد بعث المبعوثين الذين درسوا العلوم والفنون العملية من طب وزراعة وهندسة وعسكرية وقناطر وجسور واستحكامات وطباعة ونسج وغزل.. إلخ.. إلخ.. ولم يرسل مبعوثًا واحدًا ليدرس إنسانيات الحضارة الأوربية وفلسفاتها.. وحتى الذين برعوا فى إبداع الفكر الإنسانى، من هؤلاء المبعوثين، فإن براعتهم هذه لم تكن وليدة ما درسوه فى أوربا بهذا الميدان.. فعلى مبارك [١٢٣٩ - ١٣١١هـ = ١٨٢٣ - ١٨٩٣م] الذى برع فى التأريخ للمجتمع من خلال [الخطط] كانت دراسته فى أوربا عن الاستحكامات العسكرية!.. والطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١- ١٨٧٣م] قد تخصص هناك فى ترجمة علوم الصنعة والفنون العملية!.. فكانت ريادته لهذا الميدان عودة وإعادة لريادة طلائع المترجمين العرب فى العصر الأموى، عندما بدأوا بترجمة علوم الصنعة منذ ثمانينيات القرن الهجرى الأول تحت قيادة خالد بن يزيد [٩٠هـ - ٧٠٨م].

ونحن لا نرى فى صنيع محمد على باشا هذا سلبية، كما يرى الآخرون.. فهو لم يقتصر - فى البعثات إلى أوربا - على علوم الصناعة وأصولها العلمية- العلوم الطبيعية- لأنه كان متخلفًا ومصابًا بالثنائية والازدواجية، كما يفهم البعض خطأ، ويحكم ظلمًا، وإنما صنع ذلك: لأنه كان واعيًا «بالضرورى» الذى هو فى حاجة إليه، وعارفًا بماهية «الوافد» الذى نحتاجه، وماهية «الموروث» الذى لا بد من الاحتفاظ به.. لقد تعلم الطباعة من أوربا، وأقام المطبعة التى طبعت علوم أوربا العملية، كما طبعت ذخائر «الموروث»، فى أول مشروع قومى لإحياء التراث فى عصرنا الحديث!..

والطهطاوى.. الذى يجمع الجميع على أنه صاحب «المذهب الإنسانى»، وعلى أنه هو الذى أوقد سراج التنوير.. إلخ.. إلخ.. نقرأ فى أعماله حديثًا طيبًا عن الأوربيين، باعتبارهم أهل التمدن والتقدم والصناعات، الذين يجب علينا أن نأخذ عنهم هذه العلوم وتطبيقاتها. بلا عقد ولا حدود.. ولكننا نتعلم منه، أيضًا، أن مراده وهدفه من هذا الانفتاح الذى دعا إليه هو علوم «التمدن المدنى و«العلوم الحِكْمِيَّة العملية»».. وهو يكرر هذا ويلح عليه.. فإذا جاء إلى «الفلسفة الغربية» وتصور الأوربيين للكون، وفلسفتهم فى التشريع تحفظ على ذلك، وحدثنا عن «أن لهم فى الفلسفة حشوات ضلالية تخالف كل الكتب السماوية»!.. وهنا، أيضًا، نجد البعض يعيب ذلك على الطهطاوى: لأنه يتمنى أن لو تبنى الرجل كل ما فى أوربا، حتى الفلسفة واللاهوت!.. ويرى هذا البعض فى موقف الطهطاوى هذا «ثنائية.. وازدواجية.. وعجزًا عن تبنى الحضارة الغربية ككل»!.. وأنا أقول: إن هذه هى العبقرية عند

الطهطاوى، وهذا هو الموقف الأصيل، الذى تجسدت فيه «الأصالة والمعاصرة على النحو النافع والمطلوب.. لقد عرف الطهطاوى ما الذى نحتاجه من أوربا، كى تقوى شخصيتنا الحضارية المتميزة، فبحث عن «الوافد» الذى يقوى به «موروثنا» المتميز، وليس عن «الوافد» الذى يطمس هذه الذاتية الحضارية المتميزة!

ونموذج محمد على باشا.. ونموذج رفاعة الطهطاوى من النماذج الحية التى ترينا فعل هذا القانون الذى أبصره هؤلاء العباقرة المصلحون والمجددون.. وأبصروا حكمه لظاهرة الاحتكاك بين الحضارات ذات العراقة والغنى والاستمرار.. ماذا نحتاج؟.. وما العلوم التى لا وطن لها؟.. والتى لا خطر على ذاتيتنا المتميزة من وفودها؟.. والتى لا بد لنا وأن نسعى إليها سعيًا جادًا وحثيثًا. وما الذاتية الحضارية التى لا بد من تجديدها، والنهوض بها، وتطويرها؟ مع المحافظة على الأصول والسمات والقسمات التى تضمن بقاء تمايزها المتسق مع الشخصية القومية للأمة..؛ لأنها، بالنسبة للأمة..؛ كالبصمة بالنسبة للفرد.. فكما أن لكل إنسان «بصمة»، وهو يصافح الكل دون أن يفقد تميزه ببصمته هذه عن الآخرين، كذلك، هناك الذاتية الحضارية المتميزة، والتى يجب أن نبحث عنها فى «الموروث».. ونحن عندما نسعى لامتلاك العلوم وحقائقها والاستفادة من تطبيقات هذه العلوم، والاستفادة من تجارب الأمم والحضارات الأخرى، فإنما نسعى لامتلاك «مصادر القوة»، التى تقوى بها ذاتيتنا الحضارية المتميزة، دون أن نخلطها بتلك المصادر التى تمسخ شخصيتنا أو تشوه ذاتيتنا، أو تنسخها من الأساس!

إن الإنسان الصحيح - [المستقل] - يزداد صحة بتمثل المناسب من الغذاء.. بينما هذا الغذاء قد يودى بحياة المريض!.. والإنسان ينمو ويتطور، فتتغير فيه أشياء، ولكن هناك ثوابت تجعله هو هو رغم النمو والتطور الذى يعتريه.. وكذلك مثل الحضارات، فيها الثوابت والأصول والقسمات التى تمثل هويتها، وفيها المتغيرات التى تفسح الهوامش للتفاعل والأخذ والعطاء مع الحضارات الأخرى.. وعلينا أن نبصر ذلك جيدًا.. وأن نميز بينه جيدًا، حتى نتجنب مخاطر «التبعية والذوبان».. ومخاطر «الجمود والانغلاق»!

أى موروث؟.. وأى وافد؟..

إذن، فالقضية ليست قضية: «موروث» و«وافد»، على الإطلاق والتعميم.. وإنما هى قضية: ما الصالح والصحى من «الموروث»، ومن «الوافد»؟..

بل إننا سنجد فى كل «موروث» حضارى «وافدًا»!.. ذلك أن بعض «الوافد»، لصلاحه وملاءمته للروح الحضارية، يتحول، بعد تمثله، إلى «موروث»!.. فالوافد الجديد يمكن أن يكون نافعًا وصالحًا، ويمكن أن يكون ضارًا.. إذن، فالموقف ليس: هل أنا مع «الموروث» بشكل مطلق؟ أو مع «الوافد»، بشكل مطلق؟.. وإنما لابد لنا أن نبحث عن «الهوية» الحضارية؟ فيم تتمثل؟ وأين الثوابت؟ وأين المتغيرات، التى فى هامشها مساحة ومكان للوافد، الممثل لمدد القوة والصحة للهوية وللثوابت الحضارية الموروثة؟..

وعلى سبيل المثال: فأنا عندما أجد فى الموروث العربى الإسلامى «قيم التواكل والزهد»، الذى قد يصل إلى درجة إدارة الظهر للدنيا وللعمران.. فإننى أعرف أن هذا التواكل وزهد

الدراويش، هو، فى الأصل، «وافد» فارسى، دخل إلى الحضارة العربية الإسلامية ووفد عليها من الموروث الفارسى القديم، وكان وسيظل ضارًا.. لقد أصبح «موروثًا»، ومع ذلك فأنا ضده، عندما كان وافدًا، وضده بعدما أصبح جزءًا من بنية هذه الحضارة، فهو «موروث»، لكنه موروث ضار، كما كان وافدًا ضارًا!..

و«قيم عصر الحريم»، فيما يتعلق بوضع المرأة، والنظرة إليها.. لقد بدأت «وافدًا» تركيًا مملوكيًا دخيلاً على حضارتنا العربية الإسلامية.. ومن يقرأ فتاوى الإمام محمد عبده عن رأى الإسلام فى تعدد الزوجات يجد حديثه عن هذه الحقيقة.. ولقد تحولت هذه القيم إلى «موروث»، إلى الحد الذى جعل الكثيرين يتصورون أن قيم عصر الحريم هذه هى المعايير الإسلامية التى نظر بها الإسلام إلى المرأة المسلمة!.. ونسى هؤلاء أن صورة المرأة المسلمة، فى صدر الإسلام كانت المرأة المقاتلة، والمناضلة، والعاملة، والعالمة، والتى تدافع عن حقوقها حتى بالمظاهرات... والتى تذهب إلى الرسول، ﷺ، وتقول له: إن الرجال قد استأثروا بك دوننا، وأنت مبعوث للجميع، فاجعل لنا يومًا تحدثنا فيه وتعلمنا أمور الدين!.. ينسى هؤلاء الناس الصورة الإسلامية للنساء المسلمات اللاتى حملن السلاح ودافعن عن الرسول فى غزوة أحد، عندما فر كثير من الرجال.. إلخ.. إلخ.. فصورة المرأة المسلمة المناضلة قد انزوت وكادت تتلاشى فى صفحات موروثنا، وأصبحت قيم عصر الحريم، وصورة المرأة

التى خلقت لتكون لعبة الرجال وموطن شهواتهم ودمية تتزين بها البيوت- هى موروثنا الذى أضفى عليه البعض قداسة الدين، محاولين تخليده ليصبح جزءًا من الهوية الحضارية لأمتنا..

و«الطبقية المستغلة»!.. إنها، هى الأخرى، «وافد» فارسى وبيزنطى، غريب عن الموروث العربى الأصيل، الذى تميز بالعدل والمساواة وقيم الاشتراك العمومى بين أفراد القبيلة ثم الأمة فى أمور المعاش!.

والذين يتأملون مغزى موقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من أبهة الملك وامتيازات الوالى التى كان عليها معاوية بن أبى سفيان عندما كان واليًا لعمر على الشام.. الذين يتأملون موقف عمر هذا يدركون كيف كان معاوية - بالأبهة.. والحجابة.. والطبقية - يمثل شيئًا وافدًا وغريبًا عن الفكرية الإسلامية البسيطة فى شبه الجزيرة العربية.. ولقد علل معاوية إدخال هذا «الوافد» فى حياته وأسلوب حكمه لولايته، بضرورة ذلك لنفاذ هيبة الوالى إلى قلوب الناس.. فهذه الأبهة والطبقية من مواريث البيزنطيين، التى غدت موروث ولاية الشام!.. ولقد كان جواب عمر على تبرير معاوية هذا:

- لا آمرك، ولا أنهاك؟!..

فلقد كان بإزاء واقع مختلف عن واقع شبه الجزيرة العربية البسيط.. وأمام وافد غريب عن البساطة والجماعية التى سادت شبه الجزيرة فى ذلك التاريخ.

وهذا «الوافد» الفارسى والبيزنطى قد أصبح «موروثًا».. والآن، نجد أصحاب «الخيار الطبقى»، الذين يحبذون الطبقية المستغلة، يضفون عليه قداسة الموروث، بل وقداسة الدين!.. فيتحدثون عن مشروعية «الطبقية المستغلة» وضرورتها ليتخذ بعض الناس البعض الآخر سخريًا!! إلخ.. إلخ.. وهم بذلك، إنما يضفون قداسة الإسلام الحنيف، دين العدل والمساواة والجماعية والتكافل الاجتماعى، يضفون قداسة هذا الدين الحنيف على هذا «الوافد» الطبقى الاستغلالى، الذى جاء من حضارات وثنية مشركة ومجتمعات طبقية لم تعرف بساطة البقعة التى ظهر فيها الإسلام!

إذن، فواجبنا ألا نتعصب للموروث لمجرد أنه موروث.. وألا نرفض الوافد لمجرد أنه وافد.. وإنما لابد أن نبحث عن مكان الموروث من هوية الأمة الحضارية، ومن الثوابت والأصول التى تمثل السمات التى تتميز بها وتمتاز عن الأمم الأخرى.. ودور هذا الموروث فى المحافظة على التواصل الحضارى فى مسيرة الأمة التاريخية ومكانه من ترسانة الأسلحة اللازمة للأمة فى صراعها ضد تحديات العصر الذى نعيش فيه.

وأن نبحث، كذلك، عن ماهية «الوافد».. وهل هو عامل قوة ضرورى لأمتنا؟.. وعن مدى اتساقه مع روحنا الحضارية التى تميز أمتنا؟.. فإن كانت نهضتنا تقتضيه، ومشروعنا الحضارى يستدعيه، فلابد أن نسعى إليه سعيًا جادًا وحثيثًا.. فهو أولى بنا، ونحن أولى به من «موروث» قد أصبح قيدًا يحول بيننا وبين الانطلاق!

ما هى الهُويـة؟

وإذا كان المعيار فى الموقف من «الموروث» ومن «الوافد» هو «هوية» هذه الأمة، والثوابت الحضارية التى تتميز بها، والروح الحضارية المكونة لمزاج حضارتها.. فلا بد أن نحدد ما هى هذه «الهوية»؟

هل الهوية هى كل التراث؟

نحن نجيب بالنفى.. ذلك لأن تراث الأمة هو كل الموروث، هو كل ما ورثناه، سواء منه ما كان من «علوم الشرع»، أو من «العلوم العقلية»، أو فى «العلوم التجريبية».. كل هذا هو تراث الأمة.. وهذا التراث ملىء بالمواقف والاتجاهات المختلفة، بل والمتناقضة والمتعارضة، لأنه ثمرة لإبداع تيارات فكرية ومدارس فكرية متمايزة بل ومتناقضة عاشت وأبدعت فى ذلك الواقع القديم.. وهذا الواقع، الذى تبلور فيه هذا التراث، متطور أبدًا ومتغير حتمًا، بحكم قانون التطور، الذى هو سنة من سنن الله، سبحانه، فى الكون.. وهذا التطور لابد أن يستدعى تجاوز

قطاعات من هذا التراث، وهى التى نسميها «المتغيرات».. ولذلك، فليست عتاقة الكتب واصفرار أوراقها وغرابة حروف مخطوطاتها ولا قدم مقولاتها، ليست هذه بالمؤهل ولا بالحجة التى تضفى على الموروث القداسة أو المصداقية.. ومن ثم فنحن اليوم لسنا ملزمين بالتزام معارك القدماء، ولا بمناهجهم، ناهيك عن مقولاتهم وما أبدعوا من نظريات.. والقول بذلك الإلزام عبث.. والذين يفكرون على هذا النحو إنما يعبثون!

ذلك لأن القضية ليست الحفاظ على كل الموروث، حتى ولو تجاوزه التطور.. فليس كل الموروث هو «الهوية الحضارية التى تميز الأمة حضاريًا»..

ونحن عندما نبحث عن تعريف «الهوية»، سنجد أن مصطلحها ليس غريبًا عن موروثنا القديم.. فهو واحد من المصطلحات التى ضمتها معاجمنا القديمة.. سنجد الجرجانى [٧٤٠ - ٨١٦هـ = ١٣٤٠ - ١٤١٣م] يعرف الهوية فى كتابه [التعريفات] - وهو قاموس للمصطلحات- يعرفها بأنها «هى الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة فى الغيب المطلق»!.. أى أنها تعنى: الذاتية، الخاصية، البصمة التى تميز الظاهرة عن الظواهر التى تشبهها..

أما «مجمع اللغة العربية»، فهو يعرف «الهوية»، حديثًا، فيقول: إنها «حقيقة الشيء، الشخص، المطلقة: المشتملة على صفاته الجوهرية، وليست أى صفات، والتى تميزه عن غيره»..

هذا هو تعريف «الهوية»، قديمًا وحديثًا، ولذلك، فإننا إذا قلنا – بصدد الحديث عن الشخصية القومية والشخصية الحضارية –:

– ماذا تعنى الهوية بالنسبة للحضارة؟

كانت الإجابة:

– إنها الصفات الجوهرية التى تميزها عن غيرها من الشخصيات القومية والحضارية إنها «البصمة» الممثلة للقدر الثابت والجوهرى والمشترك من السمات العامة التى تميز شخصًا ما عن غيره أو قومية عن غيرها أو حضارة عن غيرها من الحضارات. إنها هى النواة، وهى الجوهر.

وإذا كنا نقول: إن موروثنا فيه الثوابت وفيه المتغيرات، فهذا يعنى أن فيه ما هو «هوية»، وفيه ما هو «متغيرات»، التغير فيها والتطور وارد على نحو أكيد.

وهنا لابد أن نضرب على ذلك بعض الأمثلة:

فالعروبة.. بالنسبة لهذه الأمة، هوية، لأنه على مر العصور، ومنذ أن اندمجت هذه الجماعة البشرية، بالتعريب، فى هذه الأمة الجديدة، تعرب البشر، وأصبح ولاؤهم للعروبة، بالمعنى الحضارى. وليس بالمعنى العرقى والعنصرى.. ومن يقرأ ما كتبه العلماء العرب، الذين انحدروا من أصلاب وأصول عرقية غير عربية، يعرف كيف كان ولاؤهم للعروبة وانتماؤهم لها كاملاً وخالصًا.. ومن هؤلاء العلماء، على سبيل المثال: ابن جنى [٣٩٢هـ – ١٠٠٢م] الفارسى الأصل، والذى كتب كتابه

[الخصائص] فجاء أعظم ما كتب فى فلسفة العربية.. يكتب ابن جنى فيحدثنا كيف أنه لقى الكثير من علماء العربية ذوى الأصول النسبية غير العربية، والمنحدرين منهم من أصل فارسى على وجه الخصوص، فسألهم عن مقام العربية بالنسبة للفارسية؟ فوجد إجماعهم على رقى العربية وارتقائها، حتى لقد أنكروا مجرد المقارنة والقياس؟!

فهؤلاء العلماء، قد تعربوا، وأصبحوا يفكرون ويقرءون ويكتبون بالعربية وخلص ولاؤهم وانتماؤهم للعروبة، رغم انحدارهم من أصلاب عرقية غير عربية.

والمواريث التى سبقت الفتح العربى والإسلامى، هى كذلك قد تعربت– كما تعرب البشر– ودخلت – أثناء «عصر التدوين»– فى نسيج الحضارة الجديدة، تلك التى تبلورت كثمرة لإسهام الجميع، جميع أمم الشرق، وكل مواريث هذه الأمم على امتداد عمق حضاراتها الضارب فى أعماق التاريخ.. حتى أننى لو قلت: إن نصيب غير العرب الأقحاح فى هذه الحضارة العربية الإسلامية أكبر من نصيب عرب شبه الجزيرة العربية، لما كنت مبالغًا! ذلك أن الفتح العربى لم يمارس مع هذه المواريث الفكرية والحضارية سياسة المسخ أو النسخ أو التشويه.. وإنما أحياها، وعرَّبها، وصبغها بصبغة الإسلام، وأدخلها فى نسيج الحضارة الجديدة.

وعندما حضر عمرو بن العاص إلى مصر، فاتحًا لها، ومحررًا إياها من القهر البيزنطى، وجد أن الذين يمثلون فكرية مصر القومية وأصالتها– وهم الأقباط «اليعاقبة» – وجدهم

مضطهدين، قد فروا إلى المغارات والأديرة فى أعماق الصحارى.. ووجد «الملكانيين» الممثلين لمذهب البيزنطيين الغزاة – والممثلين «للوافد» الفكرى الرومانى – وجدهم قد انفردوا واستبدوا بمؤسسات الفكر في مصر، وسيطروا على الكنائس.. فماذا صنع عمرو بن العاص «للموروث» المقهور والمضطهد؟ وماذا صنع بـ«الوافد» المستبد والمسيطر؟!.. لقد اقتلع الملكانيين [الوافد] من كنائس مصر ومؤسساتها اللاهوتية والفكرية، وأعاد كل ذلك إلى قوم مصر: اليعاقبة الأقباط! فعادت فكرية مصر القبطية اليعقوبية إلى السيادة من جديد.. ثم تعربت هذه الفكرية وموروثها ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.. لقد أسلمت الأغلبية الساحقة من السكان، ومن لم يسلم تعرَّب، وأسهم وأبدع مع من أسلم فى هذا البناء الحضارى الجديد.. ووجدنا «الإسلام الدين» «الإسلام العقيدة» قد وقف عند حدود الذين آمنوا به، وأسلموا وجههم لله وفق عقائده، التى بشر بها محمد، ﷺ منذ فجر البعثة.. أما الحضارة العربية الإسلامية، التى تبلورت فى عصر التدوين، فلقد جاءت ثمرة لإبداع كل الذين تعربوا، وكل الذين طبعوا بهذه الهوية الحضارية الجديدة، على اختلاف شرائع الأديان والمعتقدات..

وهذه العروبة، التى اتسعت دائرتها، وزاد عمقها، قد عاشت وصمدت لكل التحديات، فالمماليك والعثمانيون، قد حكمونا قرونًا زادت على القرون التى حكم فيها العرب الذين سبقوهم! وفى ظل حكمهم ظهرت دعوى التفرقة بين «العروبة» وبين «الإسلام» عندما زعمت السلطة أن «العروبة» تتناقض مع

«الإسلام».. بدأ هذا الزعم فى ظل الدولة المملوكية، ورأيناه يتصاعد فى ظل الدولة العثمانية إلى حد اضطهاد العروبة والعربية، حتى لقد سعى الأتراك إلى تتريك الأمة العربية.

ثم رأينا، فى الجزائر الجهود الاستعمارية المحمومة لفرنسة الشعب الجزائرى، عندما حاولت فرنسا تحويل الجزائر إلى امتداد لاتينى فرنسى لها عبر البحر المتوسط.

ورأينا الجهود التغريبية التى بذلت- فى قوة واستمرارية وانتظام وشمول - حربًا على العربية وتراثها ودينها، لقطع الروابط التى تجمع هذا الثالوث - العربية.. والتراث.. والدين - فمرة يريدون كتابتها بالحروف اللاتينية، ومرة يريدون استبدال العامية بها.. وفى كل الأحوال هم يشككون فى أصالة تراثها، ويعزلون الإسلام عن عرش الحياة المدنية.. ولما لم يبلغوا، على هذه الجبهات، كل الذى أرادوا، حاربوا العربية بالتجاهل لها وبالجهل بها.. حتى وجدنا خطباء ومتحدثين فى أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، ومعهم «كتبة» فى وسائل الإعلام المقروءة تشع منهم وتتقاطر علينا الأخطاء الفاحشة باللغة القومية!.. بل لقد وصلت الأخطاء الفاحشة إلى منبر خطبة الجمعة وخطبائها!.. وعمت الشعر العربى، وغزت القرآن الكريم والحديث الشريف، على ألسنة كثير من الخطباء!

ومع كل ذلك، فلقد وجدنا هوية «العروبة» تكمن، صامدة أمام كل تلك التحديات، لقد كمنت فى الجزائر، كمون النواة، والجوهر، والحقيقة المطلقة، حتى حان الحين فأعادت الجزائر مرة أخرى إلى أحضان العروبة والإسلام..

وكل تيارات التغريب التى رأيناها، قد اعتراها ويعتريها الوهن، ولم تلن للهوية «العروبة» قناة!.. حتى الذين بدءوا حياتهم الفكرية يبشرون بالتغريب.. ماذا صنعوا؟ وماذا صنعت بهم الحياة؟..

إن بعض الناس يتحدث، بسطحية وتبسيط للأمور، مثلاً، عن «حقبة كتابة الإسلاميات» في حياة أعلام ومفكرين من أمثال عباس محمود العقاد [١٣٠٦ - ١٣٨٤هـ = ١٨٨٩ - ١٩٦٤م] والدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] والدكتور محمد حسين هيكل [١٣٠٥- ١٣٧٥هـ = ١٨٨٨ - ١٩٥٦م].. يتحدث هذا البعض عن هذا التحول فيرجعه إلى: أنهم قد طعنوا فى السن، وقاربوا الموت، فأصابتهم نكسة التراجع عن «الفتوة والتألق والثورية!»، وبدأت مرحلة «الدروشة»، التى اقترنت بتصفية بقايا ثورية ثورة سنة ١٩١٩م، التى أوقدت زند هؤلاء الأعلام!.. وأنهم - بنظر هذا البعض - قد انخرطوا، فى مرحلة الهزيمة، يكتبون ما كتبوا فى الإسلاميات!

وهذا الكلام - السطحى والخبيث- يذكرنا بما قاله هذا البعض فى تفسير، رفض رفاعة الطهطاوى لفلسفة أوربا، بأنه نقص وعيب وسلبية وازدواج في الموقف والشخصية.. ونحن نقول: إن أصحاب هذه التفسيرات لم يبصروا موطن الهزيمة فى مسيرة هؤلاء الأعلام الذين بدءوا متغربين، ثم عادوا إلى إطار العروبة والإسلام.. كانت هناك هزيمة حقًا، ولكنها كانت هزيمة

النموذج الحضارى الغربى، الذى انكشف أثره، ووضحت سلبياته، وظهر طابعه الاستعلائى والعدوانى، فأيقن القوم أن هيمنة هذا النموذج الحضارى الغربى على عقل الأمة وواقعها لن يثمر «التحضر» و«القوة» و«التقدم»، التى كانوا يؤملونها من ورائه، وإنما هذا سيثمر تشويه الموروث والخصوصية، والقضاء على فعالية هذا الموروث، لتصبح الأمة راسفة فى أغلال التبعية للمركز الأوربى والغربى المسيطر فى كل المجالات ومختلف الميادين.. لقد انهزم النموذج الغربى فى عقول هؤلاء المتغربين وفى وجدانهم، وخاب أملهم فيه، فعادوا أدراجهم إلى أصولهم وموروثهم وقواعدهم الأصلية والأولى.. ولذلك فإننا ننظر إلى هذا التحول الذى تمثل فى حقبة كتابة العقاد وطه حسين وهيكل للإسلاميات.. ننظر إليه كظاهرة صحية، وكانتصار «للموروث» فى صراعه ضد «وافد التغريب»! وفى هذا الضوء نحن نفهم مغزى أحداث فكرية حفلت بها حياة هؤلاء المفكرين والكتاب..

■ فطه حسين، كان يعيد طبع كتبه.. لكن، لماذا لم يعد طبع كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر]؟! إن السبب فى ذلك، هو تجسيد هذا الكتاب لطه حسين «المتغرب»، الذى يقلل من قيمة وفعالية انتمائنا العربى، ويضعنا فى إطار «العقل اللاتينى»، عبر ما سماه حضارة البحر المتوسط..

■ ولطفى السيد [١٢٨٩ - ١٣٨٣هـ = ١٨٧٢ - ١٩٦٣م] الذى بدأ متغربًا، ينكر العروبة القومية والسياسية، ويستنكر «الجامعة الإسلامية»، ويتحدث عنهما حديثه عن الاستعمار!

لطفي السيد هذا، قد عاد، في أواخر حياته، يتحدث عن العروبة حديثًا جديدًا، ينقض به ما كتبه عنها في مرحلة «التغرب».. ومثل ذلك صنع طه حسين بالنسبة لموقفه من العروبة والقومية العربية.. لقد عادوا، بشجاعة المفكر العظيم، إلى «الموروث»، وانهزم فيهم «وافد التغريب» إلى حد كبير!.. وكانت هذه العودة الحميدة هى الحقبة التى طبعت بأسلمة الحياة الفكرية لهؤلاء الأعلام، الذين بدءوا متغربين.. فهى إذًا، ظاهرة صحية، عاد بها هؤلاء الأعلام إلى قواعدهم مرة أخرى..

وهذه الظاهرة الصحية، التى حدثت فى صفوف جيل من «المتغربين – الليبراليين»، هى التى نبصر الآن نماذج لها وعلامات عليها فى صفوف جيل من «المتغربين – اليساريين».. فعلينا أن نحذر الخطأ والسطحية فى التفسير.. إنها واحدة من علامات وظواهر النضج الفكرى، وواحدة من علامات وظواهر الانتصار الذى يحققه «الموروث العربى الإسلامى» ضد «وافد التغريب» ليبراليًا كان هذا الوافد أو شموليًا.

والتدين.. – كمثال آخر على الهوية – نقول: إن أمتنا هذه أمة متدينة.. وهذا الكلام – الذى يتردد كثيرًا – ليس عبثًا.. فالتدين قسمة من قسمات الهوية التى تتميز بها أمتنا العربية الإسلامية.. والتدين، هنا، لا يعنى الشعائر وحدها، كما أنه لا يعنى «الدروشة».. وإنما هو موقف من ثوابت كثيرة.. منها:

■ الأسرة.. التى غدت – وكانت وستظل – فى حضارتنا «حرمًا مصونًا» قد اكتسب معنى «الحرم» فى الدين!..

صحيح أن «التغريب» و«التحديث على النمط الغربى» قد وجه الكثير من السهام إلى هذا البناء الأسرى المتميز، وأصاب هذا «الحرم المصون» بما يبعث أحيانًا على الأسى.. فتفككت روابط كانت محكمة العرى، وضمرت الأسرة التى كانت ممتدة.. إلخ.. إلخ.. لكننا نلحظ مغزى النظرة السائدة، والتى تضع هذه الظواهر المرضية فى إطار «الأمراض» التي لا بد من السعى إلى البرء منها، وفى إطار «الشذوذ» الذى يجب أن يخلى مكانه لتسود «القاعدة».. قاعدة الأسرة، باعتبارها «الحرم المصون والمصان!».

ولقد أدرك أعداء هذه الأمة ما للأسرة من مكان ومكانة فى هوية الأمة وثوابتها.. فخافوا، وهم يخلعون قانونها الإسلامى من على عرش المؤسسة القضائية، من تعميم ذلك فى محيط القانون الذى يحكم شئون الأسرة، فتركوا «قوانين الأحوال الشخصية» على حالها.. ليس من باب التسامح، ولا حبًا فى الشريعة، ولا سعيًا لدعم بناء الأسرة المسلمة.. وإنما مخافة الثورة التى توقعوها إن هم مسوا هوية الأمة الحضارية فى منطقة حساسة، بلغت فى الحساسية إلى مرتبة «الحرم المصون»!

■ والقيم.. والأخلاقيات.. هى الأخرى من ثوابت الهوية التى انطبعت بالطابع القدسى للدين والتدين.. وإلا، فهل فينا كثيرون يقيسون التعامل «بالمنفعة المادية» على نحو ما هو حادث فى الحضارة الغربية؟

قد يكون «التغريب» و«التحديث على النمط الغربى» قد أحدث فى واقعنا شيئًا من ذلك، يبرز فى المدن، ويتوارى فى الريف..

لكن الجميع يحجبون عنه الشرعية والمشروعية، وينظرون إليه نظرتهم إلى الشذوذ عن القاعدة.. وإلى المرض الذى يرجون منه الشفاء!.. وإلى النتوء الخارج عن النسق العام والاتساق المقبول..

■ بل إن قسمة التدين لتبلغ فى حضارتنا درجة تسترعى الانتباه، وتستحق الدراسة الخاصة والمتخصصة.. فلقد تعدى أثر التدين إطار القيم والأخلاقيات والعلاقات الاجتماعية. ليصل إلى ميدان العلوم الطبيعية وتطبيقاتها، فعرفت حضارتنا ما نسميه بـ «الروح المؤمنة» التى سرت، لا فى «علوم الشرع» وحدها- فهذا طبيعى ووارد ومألوف - وإنما فى «العلوم العقلية» أيضًا، التى اتسقت، فى المنطلق والنتيجة والغاية، مع «علوم الشرع».. بل لقد شاعت هذه «الروح المؤمنة» فى العلوم الطبيعية، التى نمت كعبادة لله، يقيمها العلماء سعيًا لاكتشاف أسرار الله فى كونه، وسننه فى ملكوته. فإذا ما طبقوها نراهم قد ربطوا الوسائل بالغايات مستهدفين من تطبيقاتها تلك السعادة الدنيوية لخلق الله، تلك التى بدونها لن يستطيع الخلق عبادة الحق بعمران الكون الذى شاء لهم أن يعمروه.

ونحن نسأل: ماذا يعنى إسلام مفكر فيلسوف مثل رجاء جارودى؟! وأهم من هذا، ماذا يعنى تعليله لاهتدائه للإسلام بأنه قد وجد فيه الدين الذى جعل الحضارة الإسلامية ترتبط فيها العلوم والمعارف بالحكمة والغاية؟! ذلك ملحظ يستحق التأمل العميق!

إن الذين يدرسون تراثنا العلمى يلحظون شيوع «الروح المؤمنة» فى ثنايا هذا التراث، وتخللها لحقائقه ونظرياته.. فحتى «قوانين» هذه العلوم غير غريبة ولا بعيدة عن «الإيمان»!فإذا قرأنا- من تراثنا - كتبًا فى [الأحجار والجيولوجيا] نجد المؤلف يبدأ هذه الكتب بـ [بسم الله الرحمن الرحيم] وبـ [الحمد لله].. فإذا فرغ من مبحثٍ قال: [والله أعلم]!

وابن حزم الأندلسى [٣٨٤ - ٤٥٦هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤م] يؤلف فى الحب كتابه البديع [طوق الحمامة]، فيبدأ الكتابة فى الحب بداية الفقيه الذى يكتب فى الإلهيات!..

وابن سينا [٣٧٠ - ٤٢٨هـ =٩٨٠ - ١٠٣٧م] - وهو الفيلسوف العالمى - يقرأ كتاب أرسطو [ما بعد الطبيعة] فيستعصى عليه فهمه.. ثم يعاود المحاولة.. حتى يقع فى يده كتاب للفارابى [٢٦٠ - ٣٣٩هـ = ٨٧٤ - ٩٥٠م] يحل له المغاليق، ويعينه على فهم [ما بعد الطبيعة].. فماذا وجدناه قد صنع هذا العقل المتفلسف؟ لقد وضع كتبه وأوراقه جانبًا، وأخذ شيئًا من نقوده، وغادر منزله باحثًا عن الفقراء والمساكين، يتصدق عليهم، شكرًا لله الذى أعانه على فهم [ما بعد الطبيعة] لأرسطو!

إن هذه «المواقف - الأمثلة» بالغة الدلالة على هذا الذى نقول: إن حضارتنا العربية الإسلامية هى حضارة مؤمنة، يصل تأثير التدين فيها إلى ما هو أبعد من الشعائر والقيم والأخلاقيات والمعاملات فيسرى بروحه المؤمنة فى العلوم، حتى ما كان منها خاصًا بالطبيعة، وفى تطبيقات هذه العلوم!

هذا عن حضارتنا العربية الإسلامية..

أما الذين يقرءون مؤلفات الحضارة الغربية فى العلوم الطبيعية فإنهم لن يجدوا «للروح المؤمنة» أثرًا.. بل إنهم سيجدون النقيض على نحو أكيد!.. فهذه المؤلفات قد لا تتحدث عن الإلحاد، ولا تجادل فى إنكار وجود خالق صانع وقادر فى هذا الكون، ولا تدعو إلى الهرطقة والزندقة، ولكنها تصحب القارئ من البداية إلى النهاية فتقف بعقله عند حدود المحسوس، والأسباب والمسببات فى إطار هذا المحسوس، وفى خلال ذلك كله فإنها لا تشعر القارئ بوجود قوة خالقة وراء هذا المحسوس، بل ولا بالحاجة إلى وجود هذه القوة!.. إن هذه المؤلفات، حتى إذا لم تنكر صراحة وجود هذه القوة الخالقة، فإنها ترسب فى الذهن الإنسانى تصورًا للكون لا يحتاج الإنسان في إدراكه إلى أكثر من الأسباب والمسببات المادية التى يجدها ويلمسها أمام حواسه.. وهذا النهج الغربى.. وهذه الروح الغربية تكوّن العقلية غير المؤمنة، ولذلك فإننا حين نتحدث عن الروح المادية والإلحادية للحضارة الغربية، لا نقف بمقاصدنا فقط عند «الطابع النفعى» فى القيم والأخلاقيات، وإنما نقصد إلى ما أشرنا إليه من سريان «الروح الملحدة» فى التراث العلمى للحضارة الغربية، الأمر الذى ميزها ويميزها عن حضارتنا العربية الإسلامية، التى تميزت «بروحها المؤمنة» تسرى فى كل العلوم والفنون وسائر الميادين والمجالات..

فنحن عندما نقول: إن لحضارتنا تميزًا بـ «الروح المؤمنة»، التى هى أثر من آثار «التدين» فى هويتنا الحضارية.. عندما

نقول ذلك لا «نتدروش».. وإنما نقصد إلى ما قصد إليه جمال الدين الأفغانى عندما تحدث عن «التدين» فشبهه بـ «الْجِبِلَة» و«الطبع» الذى طبع به إنسان حضارتنا، العربى المسلم، فهو حتى لو مرق من دينه، وتزندق وألحدَ، فإن أثر التدين وتأثيره يظل مطبوعًا فيه، مثله فى ذلك كمثل أثر الجرح فى الجسم بعد الشفاء والاندمال! فهذا الإنسان لا يستطيع الخروج من جلده – كما يقولون!

والوسطية.. إنها هى كذلك، فى حضارتنا «هوية»، وواحدة من القسمات الثوابت.. والوسطية هنا لا تعنى المعنى السُوقى الذى شاع بين العامة من المثقفين والسياسيين لهذا المصطلح المظلوم! لا تعنى انعدام الوضوح، وافتقاد الموقف المحدد، واللعب على مختلف الحبال، وامساك العصا من منتصفها.. إلخ..إلخ.. وإنما تعنى «الوسطية» فى المفهوم الإسلامى: «الأمة الوسط» و«الموقف الوسط»، الذى هو: عدل بين ظلمين وحق بين باطلين، واعتدال بين تطرفين.. ليس بالمعنى الأرسطى، الذى يجعل الفضيلة وسطًا يتوسط رذيلتين، متصورًا وجود مسافة عن يمين الفضيلة وعن يسارها، متساوية، تفصل بينها وبينهما.. وإنما بمعنى اشتمال الموقف الوسط على محاسن القطبين النقيضين التى يمكن جمعها والتأليف بينها.. «فالعقلانية الإسلامية» موقف وسط، ليس بمعنى التوسط بين «العقل» وبين «النقل»، وإنما بمعنى التأليف بين براهين «العقل» و«النقل» جميعًا.. و«المادية الإسلامية» موقف وسط، ليس

بمعنى التوسط بين المادة والروح، وإنما بمعنى الجمع بين محاسنهما والضرورى منهما لخلق الإنسان السوى و«الشخصية الإسلامية» شخصية وسط، لا بمعنى انعدام انتمائها، وإنما بمعنى جمعها بين فضائل «الجسد» و«الروح»، وفضائل «الدنيا» و«الآخرة»، وفضائل «الدين» و«الدنيا»، وفضائل «الفردية» و«الجماعية».. إلخ.. إلخ..

ذلك هو معنى «الوسطية»، التى هى روح الحضارة العربية الإسلامية ومزاجها.. وأنا أحيانًا أتساءل: لماذا نجد فى التراث الفلسفى للحضارة الغربية تيارًا ماديًا ملحدًا منذ اليونان وحتى العصر الحديث.. وهذا التيار قديم وعريق، وسابق على ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣م] وعلى الماركسية، كما يعرف الجميع.. ولماذا لا نجد فى التراث الفلسفى لحضارتنا العربية الإسلامية هذا التيار المادى الملحد؟.. وهل المصادفة هى التى صنعت ذلك، ووقفت خلفه؟!.. لا أعتقد.. ولا أظن!.. وإنما مرجع هذا الافتراق وذلك التمايز إلى امتياز حضارتنا بـ«روح الوسطية» وقسمتها.. هذه الوسطية التى وازنت ما بين «العقل» و«النقل» فأصبح لنا «عقلانية إسلامية» تميزت عن «العقلانية اليونانية» التى لم تعرف «النقل - الوحى»، فأثمر هذا التوازن منظومة فكرية متميزة..

وإنه لأمر يستحق النظر والتأمل، بل ويستوجبهما، وهو أننا نجد أغلب الفلاسفة والمتكلمين والمفكرين المسلمين قد قالوا بـ «قدم العالم»، وهم، فى ذات الوقت، مؤمنون بوجود خالق لهذا العالم القديم.. لقد جمعوا، بالمنهج الوسطى التأليفى- وليس

التلفيقى – بين القول بـ«قدم العالم» وبين الإيمان بالخالق لهذا العالم.. على حين وجدنا أن ذات القضية هى التى قسمت الفكر فى الحضارة الغربية، تاريخيًا، إلى تيارين: مادىٍّ، ومثالىٍّ فالذين قالوا بقدم المادة أنكروا وجود الخالق؛ لأنهم رأوهما ضدين لا يجتمعان ولا يأتلفان.. أما الذين قالوا بوجود الخالق، فلقد أنكروا قدم المادة؛ لأن الأمرين عندهم، أيضًا، ضدان لا يجتمعان ولا يأتلفان.. ولقد تكون من الأولين «التيار المادى»، ومن الأخيرين: «التيار المثالى»، على النحو المألوف والمعروف لدارسى الفلسفة الغربية..

أما فى حضارتنا، التى تميزت بالوسطية.. حضارة الأمة الوسط، فلقد تآخت الحقيقتان ووجدنا [المعتزلة] – مثلاً – عندما يقولون بالخلق من «العدم»، ينبهون على أن هذا «العدم»: «شىء»!.. ووجدنا ابن رشد – مثلاً – يقول إنه قبل «الوجود بالفعل» يكون «الوجود بالقوة».. وإن «الخلق» هو «الخلق المستمر»، الذى يتحول به «الوجود بالقوة» إلى «وجود بالفعل».. و«الوجود بالفعل» إلى «وجود بالقوة»، وهكذا باستمرار، تحول دائم لا ينتهى فى هذا الوجود.. كما يقول: إن الله قديم، ولذلك فلا بد وأن يكون فعله – العالم – قديمًا أيضًا!.. وهو ذات المعنى الذى يعبر عنه الإمام محمد عبده بقوله: «إن المادة أزلية، كما أن الله أزلى»!..

هكذا وجدنا، فى الحضارة الغربية، تيارًا ماديًا ملحدًا، متبلورًا ومستمرًا عبر تاريخها الطويل.. وآخر مثاليًا.. ولم نجد لذلك مثالا ولا شبيهًا فى تاريخنا الفكرى والفلسفى.. لماذا؟

إن مرد ذلك هو امتياز حضارتنا بالوسطية، التى هى مزاج حضارى مختلف، أثمر فى حضارتنا ما نسميه بـ«تدين الفلسفة.. وتفلسف الدين»!.

فالمعتزلة، وهم رواد وصناع «علم الكلام الإسلامى»- الذى هو فلسفة أمتنا-.. والذين مثلوا فرسان العقلانية الإسلامية، هم الذين أسسوا فلسفتنا على قواعد الدين وأصوله، بينما تناقضت الفلسفة مع الدين فى الحضارة الغربية، وقامت ولا تزال قائمة بينهما الحروب!

وهؤلاء المعتزلة، عندما قال خصومهم، من «أهل الحديث النصوصيين»: إن الأدلة ثلاثة، هى: الكتاب.. والسنة.. والإجماع.. قالوا هم: بل إنها أربعة هى- على هذا الترتيب-: العقل.. والكتاب.. والسنة.. والإجماع.. وعللوا ذلك بالحاجة إلى العقل، كقاض حاكم، فى التمييز بين المحكم والمتشابه، والمطلق والمقيد، والخاص والعام.. إلخ.. إلخ.. من آيات الكتاب.. لأن هذا الكتاب - الذى هو معجزة الإسلام - والذى هو «النقل» قد جاء «معجزة عقلية»، عُرضت على العقل، وجعلته مناط التكليف، والقاضى الحاكم فيها، ولم تقصد إلى «إدهاش» هذا العقل وإخراجه عن الأُطر التى أحكمتها وتحكمها البراهين..

فنحن، هنا، أمام «توليفة» جديدة، وهى شىء مختلف تمامًا عن «التلفيق».. أمام منظومة فكرية ومزاج حضارى قد مايز ما بين حضارتنا والحضارة الغربية على وجه التحديد!.. بل مايز بينها وبين كثير من الحضارات..

نحن نعرف أن المسيحية الأولى قد بلغت «فى الصوفية المسالمة وفى السلام الصوفى» إلى حد الدعوة إلى إدارة الظهر للدنيا.. ومن ضربك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر!.. ومن غصبك ثوبك، فأعطه القميص!.. إلخ.. إلخ..

ونعرف أن الحضارة الهندية قد بلغت فى تصوفها حد الدعوة لإفناء الجسد، بل لقد تعبدت بتعذيبه!

أما الحضارة الغربية فإن روحها المادية النفعية واضحة المعالم، سائدة فيها السيادة المطلقة، وفى كل الميادين، حتى لقد طوعت المسيحية المتصوفة فغدت فيها طقوسًا وشعائر لا علاقة لها بالصورة المثالية التى بدأت عليها!

لكن حضارتنا، كما أوضحنا، قد تميزت بالمزاج الوسطى المعتدل، الذى وازن ويوازن بين ما حسبه الآخرون - فى الحضارات الأخرى - متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها، فضلاً عن التأليف والتوفيق..

هكذا، أصبح باستطاعتنا أن نقول: إن سمات من مثل: «العروبة»، و«التدين»، و«الوسطية»، إنما تمثل، فى حضارتنا: «هوية».. وأن علينا أن نتخذها معيارًا لصلاح أو عدم صلاح.. لصحة أو عدم صحة أى «وافد» جديد.. بل وأى «موروث» قديم!..

التشكيك فى ثبات الهوية

لكن البعض قد يقول: إن ما تسميه ثوابت و«هوية».. قد لا يستعصى على التطور والتغيير.. ولقد ضرب لى بعض الأصدقاء مثلاً ليدلل به على ذلك فقال: إن البصمة يمكن أن تزال بقليل من الحامض!

وأنا أقول: إن الأمر ليس بهذه البساطة.. ولذلك فأنا أدعو إلى تأمل هذه الحقائق، التى هى فى رأيى ظواهر حضارية تستحق النظر العميق والتفكير الذى يستخلص منها الدلالات:

- إن كونفوشيوس [٥٥١- ٤٧٩ق.م] لا يزال حيًا فى الصين حتى الآن!
- والإسلام ظل حيًا فى «بخارى» رغم الشيوعية المادية كما هو حى فى الأزهر الشريف!
- والأرثوذكسية ظلت حية فى روسيا الماركسية كما هى حية فى مقر بابوية الكرازة المرقسية!

حدث ذلك، ولا يزال يحدث رغم القرون الطوال، ورغم عوامل التطور والتغير، الداخلية منها والخارجية.. الأمر الذى يجعلنا نعتقد أننا بإزاء «ثوابت» و«هوية» ولسنا بإزاء «متغيرات»!

■ وتركيا - والإسلام هويتها - لقد جاء كمال أتاتورك [١٢٩٨ - ١٣٥٧هـ = ١٨٨١ - ١٩٣٨م] - بناء على عوامل داخلية وخارجية - فنحّى الإسلام جانبًا، وفرض العلمانية على تركيا، ومر على ذلك قرابة القرن.. والآن نسأل: ما هى تركيا التى تعلمنت؟!.. إنها شريحة محدودة جدًا.. وأنتم ترون الآن البعث الإسلامى الذى يهز تركيا هزًا عنيفًا.. وما الانقلاب الفاشستى الذى قاده جنرالات حلف الأطلنطى، بقيادة «إفرين»، فى مطلع ثمانينيات القرن العشرين، إلا نموذج لمحاولات الغرب الحيلولة بين الإسلام وبين السيادة فى هذه البلاد من جديد!

■ والخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢هـ = ١٨٣٠ - ١٨٩٥م] فى مصر.. لقد قيل عن مصر: إنها قد غدت «قطعة من أوربا» فى عصره.. ثم جاء الاستعمار فأسرع الخطا على ذات الطريق.. ومر ما يزيد عن القرن على سيادة هذا النهج فى مصر.. والآن نسأل: أية مصر تلك التى أصبحت قطعة من أوربا؟!.. وأية مصر تلك التى استعصت على أن تصبح قطعة من أوربا؟! إن الشريحة التى تغربت هى التى خيل إليها، وهمًا، أنها قد أصبحت جزءًا من أوربا، أما جسد الأمة الحقيقى فإنه لم ولن يصبح قطعة من أوربا.. وعندما يجد الجد وتحدق بالأمة الخطوب، ينطلق وجدان

الأمة، عبر لسانها، بنشيد: «بلادى.. بلادى»، ويصبح «الإسلام» هو الحصن الذى تتحصن به!.. وتبرز «العروبة» كالسند الشامخ الذى تستند إليه، رغم كل محاولات المسخ والنسخ والتشويه.. بل وينسلخ يومًا بعد يوم من الشريحة المتغربة أفضل أبنائها، يعودون إلى قواعد هويتهم الحضارية، ليبراليين كانوا فى تغربهم أو شموليين!

إذن، فإن ما نسميه بـ «الهوية»، هو الجوهر، والنواة، والبصمة، والمزاج، والروح فى هذه الحضارة، وليس من السهل اقتلاعها.. إنها من الثوابت، وليست من المتغيرات وقد يشتد الضغط والتأثير المقاوم والمعاكس لها، فيجعلها كامنة تتحين فرصة الهزة أو الزلزال لتبرز وتسود من جديد!

والذين قرءوا تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، يعلمون كيف سارت سياسة الفرنسة شوطًا كبيرًا على درب النجاح، حتى خيل لأنصارها أن الجزائر قد غدت، بالفعل الامتداد اللاتينى الفرنسى لفرنسا [الأم] عبر البحر المتوسط. ويعلمون كيف كتب واحد من هؤلاء المتغربين، الذين اندمجوا فى فرنسا الأم، يسخر من فكرة وجود جزائر عربية مسلمة متميزة عن «فرنسا - الأم»، فعنون مقاله - فى حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين - بعبارة: [من يدلنى على وطن اسمه الجزائر]؟!

وهؤلاء الذين قرءوا تاريخ الجزائر، يعلمون جيدًا أن هذه الكلمات التى عبرت عن الشريحة التى تغربت وتفرنست، لم تمثل

إلا «الوهم - السطحى» الذى علا، لحين، جوهر الهوية الثابت، فلقد كانت العروبة، وكان الإسلام هوية الجزائر، كمنت لحين، ثم انطلقت فأزاحت الوهم، وحققت للجزائر النصر الذى تعرفون.. ولم يفلح معها كل ما صنعه الاستعمار: على امتداد أكثر من قرن من «تطوير وتغيير»!

التفاعل الحضارى

وغنى عن البيان - كما أشرنا إلى ذلك مرارًا - أن «التمايز» الحضارى، هو موقف مختلف تمامًا عن «الانغلاق» أو «العداء» الحضارى.. فرفض الانفتاح على الحضارات الأخرى هو موقف ضار، فضلاً عن أنه غير ممكن فى ظروف ثورة أجهزة الاتصال والتواصل التى تزداد فعالياتها فى العصر الذى نعيش فيه.. إن «التمايز» الحضارى إنما ينطلق من حقيقة موضوعية تؤكد وجود سمات وخصائص وقسمات تمايز ما بين الحضارات الغنية والعريقة، تعبيرًا عن تمايز الشخصيات القومية والمكونات التاريخية لأمم تلك الحضارات.. ولقد أثبت سير التاريخ الإنسانى، ولا يزال يثبت ويؤكد أن هذا التمايز لم يمنع من التقاء هذه الحضارات، وتفاعلها، وأن هذا التفاعل، عندما كان صحيًا، ومن موقع الاستقلال - لا التبعية- وبنهج راشد ورشيد، كانت ثمراته طيبة وخيرة، بل وضرورية لمختلف الأطراف، وكانت نتائجه دعمًا للتمايز وليس إلغاء له، ونفيًا للانغلاق، الذى يحمل مخاطر الجمود والضمور والانقراض للحضارة التى تسلك سبيل الانغلاق!

إننا إذا نظرنا إلى حضارتنا، فى وضعها الراهن، الذى فرضت عليها فيه تحديات كثيرة.. من مثل «التخلف الموروث» من عصور التراجع والانحطاط المملوكية العثمانية.. ومن مثل «التغريب» الذى جاءت به الغزوة الاستعمارية الحديثة، فسنجد أن هذه التحديات قد كادت أن تعزل حضارتنا عن السيادة على أرضها، وحاولت اقتلاعها اقتلاعًا، ليحل النموذج الحضارى الغربى محلها، بزعم أنه «البديل العصرى» القادر على «تحديث» الحياة وتغيير «التخلف الموروث».

وإذا كنا نرفض «التبعية» للنموذج الغربى، حرصًا على استقلالنا الحضارى، وإيمانًا منا بأن صلاحيته فى بلاده- وهى صلاحية يتشكك الغربيون فيها الآن - لا تؤهله للصلاحية فى بلادنا.. فإننا نرفض، كذلك، أن يكون «التخلف الموروث» هو البديل للتغريب.. فهذا «التخلف الموروث» لا يعبر عن سمات حضارتنا وخصائصها، لأنه -فى أغلبه- وافد مملوكى أو عثمانى، وركام من الجمود والشعوذة صنعه عصر التدهور.. فهو نتوء شاذ عن المجرى الطبيعى لتطورنا الحضارى الأصيل.

وبالطبع، فإن رفض «التخلف الموروث» ورفض «التغريب»، يضع على عاتق الفكر العربى والإسلامى ثقل المهمة الأكبر والأعقد.. مهمة البحث الجاد لبلورة المشروع الحضارى النهضوى البديل..

فانطلاقًا من الاحتفاظ «بهويتنا».. وبحثًا فى الحضارات الأخرى عن «عوامل القوة» التى تدعم استقلال هذه الهوية - ولا تطمسها - والتى تزيد هذه الهوية فعالية - ولا تضعفها- والتى

تخرج هذه الهوية من «الكمون – والوجود بالقوة»، إلى «الظهور – والوجود بالفعل»– انطلاقًا من هذين المصدرين، وصدورًا من هذين المنبعين.. وفى ضوء واقعنا المعاصر، والتحديات التى تواجه الأمة، وتشل فعالياتها، وتبدد طاقاتها، وتحول بينها وبين الانعتاق والانطلاق.. تأتى –بعد استخلاص الهوية من «الموروث»– ضرورة البحث فى الحضارات الأخرى عن «عوامل القوة»؛ حتى يكتمل للأمة المشروع النهضوى الكافل لبعثها الجديد..

وإذا كان بعض من «الإسلاميين النصوصيين» يتشكك ويشكك فى إسلامية وجدوى أى انفتاح على الحضارات الأخرى أو استلهام من هذه الحضارات.

وإذا كان بعض من «المتغربين» يتشكك ويشكك فى قدرة الإسلاميين– بإطلاق – على ممارسة الانفتاح الحضارى.. فإننا نقول: إن ما أشرنا إليه من ضرورة التفاعل الحضارى، ليس كلامًا غريبًا على النهج العربى الإسلامى، ولا هو بالحديث الجديد غير المسبوق، بل إن هذا الموقف هو الموقف العربى الإسلامى، الغالب.. والأصيل..

■ فالرسول ﷺ من قبل أربعة عشر قرنًا، هو القائل عن «الحكمة»: «إنها الإصابة فى غير النبوة»... فليست النبوة وعلومها، فقط، هى الحاوية للإصابة وللحكمة!

وهو ﷺ الذى يعلم أمته ضرورة التماس الحكمة من مصادرها، بصرف النظر عن المواطن والمعتقدات.. فيقول:

«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن».. ولذلك، فأنَّى وجدها فهو أحق الناس بها!

■ وفقهاء الإسلام هم الذين شرعوا لضرورة الاستمرارية فى مسيرة الفكر الإنسانى.. فقالوا: «إن شريعة من قبلنا شريعة لنا، ما لم تنسخ»!.. فليست هناك حواجز تمنعنا من أن نصافح الآخرين، أو أن نستلهم الوافد المفيد، بل لابد وأن نسعى إلى الوافد الصحى والضرورى، الذى يقوى استقلالنا ويدعم هويتنا وذاتيتنا..

■ والكندى، الفيلسوف [٢٦٠هـ -٨٧٣م] هو القائل: «خليق بنا ألاّ نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها»!..

■وابن رشد [٥٢٠- ٥٩٥هـ = ١٠٢٦ - ١١٩٨ م] يقول: «إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك.. سواء أكان مشاركًا لنا فى الملة أم غير مشارك، طالما كان صوابًا..».

■ وجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] هو القائل: «إن أبا العلم وأمه هو الدليل، والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات.. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل».

«والتمدن الأوربى»، هو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى.. ولا مُلجئ للشرقى، فى بدايته، أن يقف موقف الأوربى فى نهايته.. ولا بد من التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم.. أما المقلدون فإنهم يشوهون وجه الأمة، ويضيعون

ثروتها، ويحطون من شأنها.. إنهم المنافذ لجيوش الغزاة، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب..»!.

■ ورفاعة الطهطاوى [١٢١٦- ١٢٩٠هـ = ١٨٠١- ١٨٧٣م] هو الذى يقول: «علينا أن نأخذ عن أوربا «المعارف البشرية المدنية.. والعلوم الحِكْمِيَّة العملية».. أما روح حضارتهم وفلسفاتهم فهى مليئة «بالحشوات الضلالية، المخالفة لسائر الكتب السماوية..»!

وعلى هذا الدرب سار رواد المد الإسلامى المعاصر..

■ فكتب حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩م]- وهو الذى رفض ما فى الحضارة الغربية من «مادية وإلحاد وشك وإباحية وأثرة وربا.. » - كتب يقول: «إن طبيعة الإسلام، التى تساير العصور والأمم، وتتسع لكل الأغراض والمطالب.. لا تأبى أبدًا الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعد الإسلام الكلية وأصوله العامة.. إنه يدعو إلى أن نأخذ من كل شىء أحسنه، وينادى بأن الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها، ولا يمنع أن تقتبس الأمة الإسلامية الخير من أى مكان، فليس هناك ما يمنع من أن تنقل كل ما هو مفيد من غيرنا، ونطبقه وفق قواعد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا..».

■ والمودودى [١٣٢١ -١٣٩٩هـ = ١٩٠٣ - ١٩٧٩م]- وهو من أبرز من انتقد الطابع المادى للحضارة الغربية- هو القائل: «إن موقف الإسلام من الأخذ والعطاء بين الحضارات، هو شىء

فطرى فى الأمم التى تختلط بعضها ببعض، فهو لا يجيزه فقط، بل يريد له الازدهار.. فالإسلام لا يريد لجدران التعصب بين الأمم أن تبقى قائمة، فلا تأخذ أمة فى حضارتها من أمة أخرى شيئًا..»!

■ وسيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ = ١٩٠٦ - ١٩٦٦م]- وهو الذى سمى الحضارة الغربية: «الجاهلية الجديدة»- نراه يدعو إلى الإسلام «كتصور مستقل للوجود والحياة.. ينبثق منه - للمسلمين- منهج ذاتى مستقل للحياة كلها..».

وفى ذات الوقت، يدعو سيد قطب إلى أن نأخذ عن الحضارة الغربية علومها الطبيعية، التى هى - بتعبيره- «وليدة العبقرية الأوربية فى الإبداع المادى..»!

* * *

إذن، ليس هناك خلاف فى حضارتنا على ضرورة «التفاعل الحضارى».. فبدءًا من أحاديث الرسول ﷺ إلى الفقهاء.. والفلاسفة.. ورواد التجديد والصحوة الإسلامية.. ومرورًا بتجربة هذه الحضارة فى التفاعل مع غيرها من الحضارات، ليس هناك خلاف حول هذا الموضوع.. لقد كاد الإجماع أن ينعقد فى حضارتنا على ضرورة التمييز بين «هوية الأمة».. التى تميزها حضاريًا، وبين «العلوم القائمة» على الحقائق والقوانين وتطبيقاتها، وهى التى لا وطن لها ولا جنس، ولا تتشكل بأشكال البيئات الحضارية المتمايزة.

فالهوية، لابد وأن نبحث عنها فى «الموروث».. والعلوم الطبيعية، وتطبيقاتها، وما هو صالح ومفيد وضرورى من

التجارب الإنسانية، وكل ما يمثل «مصادر قوة» للهوية الحضارية المتميزة، لا بد وأن نسعى إليه، نستلهمه، ونتمثله. ونوظفه لخدمة «المشروع الحضارى المتميز»، ولخدمة الهوية الحضارية المتميزة..

فليس هناك أدنى خلاف، إذن، حول ضرورة الانفتاح على الحضارات، وضرورة التفاعل مع هذه الحضارات، من موقع الراشد المستقل.. وإنما الخلاف، كل الخلاف، هو مع دعاة «التبعية الحضارية»، الذين يزعمون - لتبرير هذه التبعية- أن الحضارة الغربية هى الحضارة «الإنسانية.. والعالمية.. والعصرية» الوحيدة، وأنها «النموذج» الوحيد للتحضر والتحديث، وهم، لذلك، ينكرون «التعددية الحضارية»، و«التمايز الحضارى».. إن الخلاف، كل الخلاف، هو مع هذه المقولة المغلوطة والدعوى الخطرة والباطلة..

إننا إذا وضعنا يدنا على الواقع الحضارى، التاريخى والمعاصر، فستجد هناك تمايزًا بين الحضارات، وتعددية فى الحضارة.. فهل يعلم الذين يزعمون وحدة الحضارة، التى هى فى نظرهم الحضارة الغربية، ما كتبه السياسى الاستعمارى الأمريكي جون فوستر دلاس [١٨٨٨ - ١٩٥٩م] عن وحدة الحضارة الغربية، تلك التى تضم، -فى نظره- الدعوة الصهيونية وحركتها والكيان العنصرى الاستيطانى الذى أقامته فى فلسطين؟!.. هل يعلمون ذلك؟!.. وإذا علموا.. فهل يظلون على دعوتهم لأمتنا العربية الإسلامية إلى «التحضر» بذات الحضارة، التى تجمع ما

بين «دلاس» و«بيجن» و«شارون»؟! وهل هذا هو «الموقع الحضارى» الذى يرتضونه لأمتنا.. أمة العروبة والإسلام؟!

* * *

إننا لا نؤمن «بالحياد» فى الموقف تجاه «الموروث» و«الوافد».. «فالوافد» طارئ، لابد وأن يخضع للفحص والانتقاء والاختيار. والمعيار هنا هو مدى ما يمثله من «مصادر للقوة» تتسق مع طابعنا الحضارى، وتزيد هذا الطابع قوة تعينه على أن يكون للأمة سبيلاً للتقدم والنهوض. أما «موروثنا» فهو ذاتيتنا الحضارية، وإبداع أسلافنا العظام، ومظهر عبقرية أمتنا، ومجلى الخصائص التى تميز حضارتنا العربية الإسلامية عن غيرها من الحضارات.

وهذا «الموروث» – الذى يمثل الإسلام مكونه الأول، ومعيار الصحة والخطأ فيه– ليس تاريخًا مضى وانقضى ولا أكفان موتى، ولا قيودًا تشد الحاضر إلى ماض سحيق. وإنما هو طاقة مبدعة وخلاقة، وروح سارية فى عقل الأمة ووجدانها. وإذا كان تمايزنا الحضارى، وعدوانية الحضارة الغربية، يفرضان علينا الحذر عندما ننظر فى «الوافد» لنختار. فإننا يجب ألا ننسى أن «التجديد» هو سبيلنا المأمون إلى تمييز «الثوابت» من «المتغيرات» فى «موروثنا» وفرز «المفيد» من «الضار».. فبالتجديد وحده تعود الحياة لهذا «الموروث» اليوم وغدًا. فتتحقق الاستمرارية الحضارية، دونما قيود على توجهنا وتطورنا إلى الأمام!

نحو مشروع حضارى متميز..

ونحن نؤمن أن «النهضة»- بكل ما تعنى من تغيير شامل وجذرى - هى سبيل أمتنا الوحيد لقهر ما يفرضه عليها الأعداء من تحديات.. ونؤمن، كذلك، أن المهمة الملحة لحركتنا الفكرية هى بلورة المشروع الحضارى الذى هو «دليل» هذه النهضة.. وإذا كنا لا نزعم أننا نمتلك كل الوضوح الذى يؤهلنا لبلورة معالم هذا المشروع، والذى نعتقد أن صياغته لا بد وأن تكون ثمرة عمل جماعى كبير- فإننا ندعو كل المؤمنين بتميزنا الحضارى، والمدركين لأهمية وضرورة استقلال أمتنا حضاريًا، ندعوهم إلى الإسهام فى بلورة ملامح هذا المشروع، الذى هو طوق النجاة لهذه الأمة من مخاطر «الجمود والتخلف الموروث».. ومن مخاطر المسخ القومى والسحق الحضارى والتشوه المعرفى الذى تمارسه الحضارة الغربية مع حضارتنا، وكل حضارات الأمم التى ابتليت بالاستعمار والتغريب.

وفى إطار هذه المهمة الفكرية، فلربما كان مفيدًا أن نضع أمام العقل العربى والمسلم «نقاطًا» هى أشبه ما تكون «برءوس

الموضوعات» و«المحاور» التى نعتقد بدخولها فى قسمات صورة ذلك المشروع.. المشروع الحضارى العربى الإسلامى، البديل.

■ **إننا ندعو إلى تأمل «التوحيد»، باعتباره فلسفة الأمة، وروح حضارتها، والبوصلة الموجهة لعقلها.. فى نظرتها للكون.. وفى الألوهية والتدين.. وفى التأليف الوطنى والقومى والإسلامى.. «فالتوحيد» ملمح من أبرز ملامح حضارتنا- بل لا نغالى إذا قلنا: إنها حضارة التوحيد..** إنه ملمح من ملامح حضارتنا، به تميزت، وبه جاءت دياناتها السماوية جميعًا.. فنحن نجده فى تراث مصر القديمة عند أخناتون [١٣٦٩ - ١٣٥٣ق.م] إلى الحد الذى تحدثت فيه أناشيده عن الله سبحانه كإله للكون كله.. إنه جزء من مواريث حضارتنا، جاءها من بقايا الشرائع الإلهية القديمة.. وبه تميزت عن صورة التوحيد فى [العهد القديم]، تلك التى جعلت «التوحيد» أقرب ما يكون إلى الوثنية، فالله فيها هو إله لبنى إسرائيل وحدهم، أما الشعوب الأخرى فلها آلهتها الخاصة بها!

وحتى وثنية العرب القديمة، فى جاهليتهم التى سبقت الإسلام، فإنها كانت «انحرافًا» عن جوهر ونقاء هذا «التوحيد» ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1].

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2].

وهذه الروح «التوحيدية» التى بلغت فى روح الحضارة الشرقية مبلغ «الهوية» والثوابت من القسمات، هى التى جعلت

---

(١) لقمان: ٢٥ . (٢) الزمر: ٣ .

المسيحية تعجز عن تلبية احتياجات الإنسان الشرقى الاعتقادية، عندما أصابتها التأثيرات «الهلينية» بما أخرجها من الإطار النقى للتوحيد!.. فكان دخول شعوب الشرق فى دين الله – الإسلام– أفواجًا، دونما إكراه، بالترغيب أو الترهيب، رغم حرية الاعتقاد التى أبقت المؤسسات الكنسية وما لها من تراث فى الجدل وخبرات فى التبشير.. فلقد كان التوحيد الإسلامى، الذى بلغ الذروة فى البساطة والنقاء، والذى أعاد إلى هذه العقيدة– التى هى جوهر الدين – صفاءها ونقاءها: كان هذا «التوحيد» هو «الهوية» التى أعادت شريعة الإسلام الكشف عن جوهرها، والتى اجتذبت الإنسان الشرقى إليها..

ولذلك، فنحن ندعو إلى تأمل هذا «التوحيد» ودوره وإمكانياته، التى من الممكن أن يكشف عنها مشروعنا الحضارى المنشود.

▪ **وندعو إلى تأمل «العروبة»، بمعناها الحضارى، غير العرقى أو العنصرى، وتأمل العلاقة العضوية التى تربطها «بالإسلام» بمعناه الحضارى، الذى يتجاوز نطاق الشعائر والطقوس فلا يقتصر عليها وحدها.. ففى هذه العلاقة نفى للتناقض المزعوم بين الدائرة القومية والدائرة الإسلامية، وترتيب لأولويات العمل، انطلاقًا من الدائرة الوطنية، فالقومية، فالإسلامية، فالإنسانية.**

ندعو إلى تأمل علاقة «العروبة» بـ «الإسلام»، وما تعطى هذه العلاقة من إمكانات وملامح فى مشروعنا الحضارى الذى نفكر فيه..

▪ **وندعو إلى تأمل «الوسطية الإسلامية» كمعيار للتوازن،**

وباعث على الموازنة، التى غدت ملمحًا من ملامح شخصيتنا الحضارية.. ومن ثم فإنها ملمح من ملامح مشروعنا الحضارى الذى ندعو إليه..

إننى أتصور أن «وسطيتنا الإسلامية» هذه ستجعل لمشروعنا الحضارى ذاتية متميزة:

■ ففى النظرة للإنسان: وسطية، تراه خليفة لله فى الأرض.. وليس السيد المطلق لهذا الكون.. وأيضًا ليس ابن الخطيئة المنبوذ!..

■ وفى الحرية: الاختيار فى حدود الثوابت التى تمثل إطار الاختيار.. ومن ثم، فهنا وسطية بين الليبرالية المطلقة وبين الشمولية المطلقة.. قد تكون «الديمقراطية الموجهة» هى أقرب الصيغ للتعبير عنها.. اتفاق على الثوابت والمعايير وإطار المشروعية.. ثم تعددية فى السبل والمناهج والفروع والتفاصيل..

■ وفى الاقتصاد: ملكية الرقبة فى الثروة القومية لله وحده.. والأمة، ككل، مستخلفة عن الله فى الأموال.. فلا مكان للحرية الاقتصادية والملكية الفردية، بمعناها المطلق فى الفلسفة الليبرالية الغربية.. ولا مكان، كذلك، لتجريد الإنسان الفرد من أى حق فى التملك، الذى يحفزه للخلق والتنمية والإبداع.. لأن كون «الملكية الحقيقية» لله، يصحبها كون «الملكية المجازية» للفرد، أى ملكية المنفعة - التى هى الوظيفة الاجتماعية للمال.

■ وفى طبيعة السلطة، وعلاقة الدين بالدولة: توسط بين «الكهانة» ووحدة الدين والدولة، وبين «العلمانية» وفصل الدين

عن الدولة.. يتجسد فى «التمييز» بين الدين والدولة.. فالدولة فى مشروعنا الحضارى «إسلامية»، للشريعة- بمقاصدها- الهيمنة عليها، والمشروعية فى قانونها.. لكنها ليست الدولة «الدينية»، التى تحكم بالحق الإلهى و«رجال الدين» فتضفى العصمة والقداسة على البشر وتشريعاتهم باسم الدين!

■ وفى مفهوم «الأمة»: توسط بين المفهوم «القومى- العلمانى»، الذى يستبعد الدين من القسمات المكونة «للأمة».. وبين المفهوم «الكهنوتى»، الذى يستبعد غير المسلمين من إطار «الأمة».. فالأمة، بالمعنى القومى، تستوعب كل الذين وحدت بينهم السمات القومية.. فهم، جميعًا، أمة المواطنة، يستوون ويتساوون فى حقوقها وواجباتها.. ثم هم جميعًا يجمعهم الاحتكام إلى الشريعة، التى هى - فى أغلب ميادينها- قانون وضعى محكوم بإطار الإسلام وحدوده وروحه..

وعلاقة هذه الأمة بالدين علاقة وثيقة.. فدين الله واحد، هو دين التوحيد فى الألوهية، والإيمان بالبعث، والعمل الصالح.. وفى إطار هذا «الدين» - الذى هو واحد أزلاً وأبدًا- تعددت وتتعدد «الشرائع»- التى هى طرق للتدين بهذا الدين- أزلاً وأبدًا كذلك.. فالوحدة فى الدين، والتعدد فى الشرائع الدينية- والاحتكام إلى شريعة الإسلام المدنية- التى لا نقيض لها ولا بديل عنها فى الشرائع غير الإسلامية- هى صيغة الوفاق والاتفاق بين الأغلبية المسلمة والأقليات غير المسلمة فى المشروع الحضارى الذى ندعو إليه..

ومكان الإسلام فى تحديد مفهوم «الأمة» هو الرباط الذى يجمع الأقليات المسلمة، غير العربية، إلى الأغلبية التى جمعت بين العروبة والإسلام!

تلك نماذج لملامح فى هذا المشروع الحضارى العربى الإسلامى.. وهى بالطبع لا تخرج عن إطار النماذج التى تنتظر - كما قلنا - الجهود الفردية والجماعية التى تغنيها وتكملها، حتى تتحول إلى مشروع مؤهل لأن ينهض بالأمة وتنهض به الأمة من واقعها الراهن، الذى تكالبت عليها فيه التحديات.. وخاصة تحدى «التغريب» وتحدى «التخلف الموروث».

وإذا كنا نعتقد بالأهمية التى تمثلها هذه النماذج لهذه الملامح من «المشروع الحضارى» المنشود.. فإن الأهم هو الاتفاق على:

- مبدأ التمايز الحضارى، والتعددية الحضارية.
- وضرورة الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية..

ثم لنجتهد جميعًا فى بلورة ملامح هذا المشروع، الكافل لأمتنا النهضة والانطلاق..

تلك هى الكلمة السواء التى ندعو إليها كل الذين يؤمنون بأن الاستقلال الحضارى هو طوق النجاة لأمتنا العربية الإسلامية من مخاطر التحديات التى فرضها ويفرضها أعداؤها الكثيرون.

٣

الأزهر والتغريب

تمهيد

■ أما الأزهر، فهو - رغم انعدام الحاجة إلى تعريف مشاهير الأعلام:

ذلك «المسجد - الجامع - الجامعة»، الذى اقترن قيامه بقيام «القاهرة»، فأعلنا تحول مصر من دور «الولاية» إلى مركز «الخلافة»، فكان منارة أهَّلتها لتنهض بعبء هذا الدور الجديد..

لقد شرع جوهر الصقلى [٨٣١هـ - ٩٩٢م] فى بنائه فى [٢٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ - ٣ إبريل سنة ٩٧٠م] وتم بناؤه بعد عامين [٩ رمضان سنة ٣٦١هـ - ١٤يونيو ٩٧٢م].

وإلى جانب الصلاة بدأت تلقى فيه دروس العلم فى صفر سنة ٣٦٥هـ أكتوبر سنة ٩٧٥م، أواخر عهد الخليفة المعز لدين الله [٣١٩ - ٣٦٥هـ = ٩٣١ - ٩٧٥م].

فلما كان عهد الخليفة العزيز [٣٦٥- ٣٨٦هـ = ٩٧٥ - ٩٩٦م] استوى الأزهر جامعة علمية ومنارة فكرية وقبلة للعلماء والطلاب من كل الأجناس والأقاليم واللغات والطبقات.. وكان ذلك فى سنة [٣٧٧هـ - ٩٨٨م]. ثم توالت القرون، وتعاقبت الدول، وتغيرت النظم، وتنوعت صروف الدهر.. والأزهر باق، يزداد رسوخًا، ويتزايد دوره، ويتوهج ضياؤه.. فلقد احتضن العربية والإسلام فغدا له فى حياة أهلهما مكانة الحمى والحارس الذى نهض وينهض بتنفيذ قضاء الله سبحانه عندما

قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

هذا عن الأزهر.

■ أما «التغريب»، فإنه: الخاصية الفكرية للحضارة الغربية، المتميزة بطابعها المادى، وغير المتقيدة «بالنظرة المؤمنة» للكون، والجانحة إلى فصل الدنيا عن الدين، وتحرير الدولة من إطار الدين، وتنحية النصوص والمأثورات الدينية من طريق العقل فى كافة الميادين!..

وإذا كانت حملة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] قد مثلت طلائع الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على ديار العروبة وعالم الإسلام، فإن هذه الغزوة الحديثة قد تعلمت من الغزوة الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١م] أهم الدروس.. فالصليبيون قد جاءوا إلى بلادنا فرساناً مقاتلين، ليس وراءهم فكر، وليست لديهم مواهب حضارية، ولا يملكون سوى الجهل والشراسة والتدمير!.. ولذلك، فعندما أفرز وطننا العربى مؤسسات الفروسية ودولها - [زنكية وأيوبية.. ومملوكية] - وقهر بها الفرسان الصليبيين، لم تخلف الغزوة الصليبية وراءها أية آثار.. وكان تحرير السلطان الأشرف ابن قلاوون [٦٨٩ - ٦٩٣هـ = ١٢٩٠ -١٢٩٣م] لمدينة عكا من بقايا الصليبيين فى [١٧ جمادى الثانى سنة ٦٩٠ هـ - ١٧ يونيه سنة ١٢٩١م] القضاء المبرم على جميع آثار تلك الغزوة التى استمرت قرابة القرنين من الزمان.

---

(١) الحجر: ٩.

لقد تعلمت الغزوة الاستعمارية الحديثة من سابقتها درسًا خطيرًا وخطرًا؟! فجاءت معها بفكر حضارتها المنتصرة، جنبًا إلى جنب مع أدوات الدمار الحربى التى اخترعتها تلك الحضارة.. فبأدوات الدمار تفتح الأرض، وتقبض على جهاز الدولة، وبالمغامرين والتجار ورءوس الأموال يتم نهب ثروات عالم الإسلام وامتصاص خيراته وإفقار بنيه.. وبالقواعد العسكرية يتحول عالمنا إلى «هامش» يحقق الأمن لأوربا الاستعمارية.. وبالفكر التغريبى يتم أسر العقل العربى والمسلم، حتى ينسلخ عن طابعه الحضارى العربى الإسلامى المتميز، فيتحول، هو الآخر، إلى هامش للحضارة الأوربية المنتصرة!

بل لقد رأى دهاقنة هذه الغزوة وسدنتها أن «التغريب» والنجاح فى سحق الشخصية القومية المتميزة للعرب والمسلمين، وتحويل أمتنا إلى هامش لحضارة الغرب، هو الضمان لتأبيد النهب الاقتصادي لبلادنا، ولبقاء هذه البلاد قواعد لأمن الغرب، حتى بعد زوال الشكل السافر والمسلح للاحتلال فبالتغريب يقع العرب والمسلمون فى «الأسر الاختيارى»! وتصبح «التبعية» للغرب هدفًا يسعى إليه التابعون!

* * *

ومنذ البدء كان الأعداء على وعى تام بأن «العربية» و«الإسلام» هما حصن هذه الأمة عبر تاريخها الطويل، وخلال كل الصراعات التى خاضتها فى ذلك التاريخ.. فمنذ أن ظهر الإسلام عقد التاريخ لواء قيادة الشرق للأمة العربية.. ومنذ ذلك

التاريخ كانت صيحة: «واإسلاماه!» هى أصدق الصيحات وأفعلها فى تجميع الأمة ضد ما فرض عليها من مخاطر وداهم أوطانها من تحديات.. ومن هنا كان اتجاه سهام التغريب إلى «العربية» و«الإسلام».. ومن ثم كان إحداق المخاطر، مخاطر التغريب بالأزهر، حصن «العربية» وقلعة «الإسلام»!.. وكان الدور الرائد والفريد الذى نهض به الأزهر فى أخطر ميادين صراع أمتنا ضد الغزوة الاستعمارية الحديثة!

حقاً.. لقد أحكم الاستعمار قبضته على أجهزة الدولة، فصبغها بصبغته الإدارية بل ونجح فى أن يجعل قيم حضارته الغربية المعيار والموجه ومصدر المشروعية فى هذه الأجهزة.. ونفث فكريته التغريبية بواسطة «كُتَّابِ الاستشراق» وأساتذة الاستشراق الذين صنعوا لجامعاتنا الحديثة المساحة الكبرى من «عقليتها»!.. وغدت القوانين المستمدة من فلسفة حضارته فى التشريع هى السائدة والحاكمة فى مؤسساتنا القضائية، بدلاً من «فقه المعاملات» الذى أبدعه فقهاؤنا العظام.. وتحولت مؤسساتنا الدستورية، ومعها دساتيرنا، إلى صورة باهتة لنظائرها فى الغرب الاستعمارى.. وامتدت آثار التغريب لتشمل «الرؤى» و«الأفكار» و«المعايير» فى الأدب والفن، بل لقد استعرنا أدوات التعبير، كما استعرنا المذاهب الفكرية، وافتعلنا المشاكل حتى نجد فى حياتنا الفكرية مكاناً للحلول التى ابتدعها الغرب لما اختصت به مجتمعاته من إشكالات!.. وفى العلوم ومناهجها، وفى الفلسفة ومقولاتها سادت مناهج

التغريب الآحادية، والتى تعتمد «العقل» وحده، فاقتربنا من نهج الحضارة اليونانية، بقدر ما ابتعدنا عن وسطية الإسلام التى وازنت ما بين «العقل» و«النقل»، وآخت بين «الشريعة» و«الحكمة»، وزاملت بين كتاب الله المقروء - القرآن - وكتابه المنظور - الكون -!.. وغدت البيوت فى مدننا، ولدى علية القوم ومتوسطيهم، وكذلك القيم السلوكية صورة لما هى عليه فى أوطان الغزاة.. وأصبحت صحفنا السيارة، وأزياؤنا المقبولة تقليدًا لنظائرها فى الغرب.. وغادرت المرأة «الحريم المملوكى - العثمانى»، لا لترجع إلى صورتها العربية الإسلامية: فقيهة فى الدين، مستقلة الذمة فى المال، والرأى فى الزواج، سكنًا وسندًا فى تكوين الأسرة وبناء لبنة المجتمع الأساسية، مداوية للجرحى، ومشاركة فى الجهاد.. إلخ.. إلخ.. وإنما - غادرت «الحريم» القديم لتسلك درب المرأة الغربية، مازجة «الاسترجال» بالإغراق فى استجلاب أدوات الزينة والشهوة على دربها الجديد!.. ونشأت الأحزاب السياسية، فإذا النظريات والبرامج، بل و«اللوائح» وقواعد التنظيم - فضلاً عن المثل الملهمة - لدى الكثير منها - امتداد لترسانة الغرب الاستعمارى فى هذا الميدان!.. وظهر الحديث عن حاجة التقدم إلى سيادة اللهجات العامية فى الحديث والحوار، بل والكتاب والصحيفة، بدلاً من لغة القرآن!

هكذا.. وعلى هذا النحو، شهدت أرضنا طوفان التغريب، وامتدت آثاره فلونت بلونه عقول «الصفوة» و«النخبة» التى صنعت فى جامعات الغرب، أو فى جامعاتنا التى قامت على نمط

جامعات الغرب، اللهم إلا من عصم الله من آثار هذا الطوفان الطاغى الذى اقتحم ديارنا فى ركاب الاستعمار الحديث!.

الأزهر

لكن الأزهر ربض فى موقعه، متحصنًا «بالعربية» و«الإسلام»، وذائدًا عنهما، ورافضًا كل ألوان التغريب، وممثلاً الاستثناء- ربما الوحيد - الذى رفض التغريب ونجا من تأثيراته، لأكثر من قرن، حتى ظهرت- لتزامله فى رفض التغريب- التنظيمات الإسلامية التى شرعت تجاهد من أجل الإسلام السياسى والدولة الإسلامية.

وهنا.. من حق المرء، بل ومن واجبه أن يتساءل:

لماذا استطاع الاستعمار- دون كبير عناء - أن يمد طوفان التغريب إلى الحد الذى حاصر به الأزهر ومعاهده الدينية المعدودة على الأصابع، رغم ما للأزهر من تاريخ عريق، وما فى «العربية» و«الإسلام» من طاقات نضالية متناقضة بالطبع مع فكرية التغريب!.. ولماذا لم تتسع الدائرة الرافضة للتغريب من حول أزهرنا العريق؟!

فى اعتقادنا أن السبب الرئيسى فى ضعف إمكانيات الأزهر المقاومة لتيار التغريب، كامن فى أن الهجمة التغريبية قد داهمت الأزهر وهو فى «لحظة ضعف»!.. وأنه قد خاض معركته هذه وهو أشبه ما يكون بمن «نزع سلاحه»!.. أو على الأقل سلاحه الأفعل فى مثل هذا الصراع!

لقد عاش الأزهر حياة مصر والعروبة والإسلام، كائنًا حيًا، يفعل فى الأمة، وينفعل بها.. يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها.. فلما كانت العصور الوسطى، وسيطرت السلطة العسكرية المملوكية الأعجمية على الدولة، دخلت حضارتنا دور الأفول، فتوقف الإبداع والخلق والاجتهاد فى ميادين «العربية» و«الإسلام»، وبعد مرحلة «الجمع والتصنيف» المملوكية، انحدرنا إلى مرحلة «الشروح والحواشى والتهميشات» العثمانية، فضعفت فعالية أسلحة الأزهر عن النزال، وعن نزال فكرية التغريب بالذات، تلك التى جاءت مسلحة بثمرات إبداع حضارة منتصرة، ملكت العلم وتطبيقاته، وامتلكت الأرض وأحكمت قبضتها على رقاب المستضعفين!..

ولقد أسهم فى زيادة ضعف الأزهر عن المقاومة ما أصابه به العثمانيون خلال القرون الثلاثة التى سبقت غزوة الاستعمار وهجمة التغريب..

■ فالسلطان العثمانى سليم [٨٧٥ - ٩٢٦هـ =١٤٨٠ - ١٥٢٠م] عندما فتح مصر [سنة ٩٢٣هـ -١٥١٧م] نزف من عروقها أزكى دمائها، وحملها معه إلى بلاده: لقد انتزع من مصر ألفًا وثمانمائة إنسان، فيهم أبرز الصناع والعلماء والمبدعين فى مختلف الفنون والصناعات، وفيهم أيضًا قاضى القضاة وأبرز الفقهاء! لقد فرَّغ عقل مصر من أبرز حملته وصنَّاعه فزادت خسارتها بفقدهم عن خسارتها فى التحف والنفائس والمصنوعات والآثار التى اغتصبها هذا السلطان من المساجد والأضرحة والقصور، وحملتها له قوافل الجمال إلى الآستانة!..

وكما تعطلت بمصر خمسون صناعة[1]، أصاب الضعف والعطب إمكانات الأزهر الشريف!

■ وبعد أن كان الأزهر يمد مصر - فضلاً عن غيرها - بالقضاة، أصبح قضاء مصر للأتراك منذ المحرم سنة ٩٢٩هـ - نوفمبر سنة ١٥٢٢م[2]!

■ وكانت المدارس، التى بنيت بمصر منذ عصر صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢- ٥٨٩هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣م] قد غدت الامتداد المادى والفكرى للأزهر، يدرس فيها شيوخه، ويتخرج فيها العلماء على منهجه، فجاء العصر العثمانى ليدمرها بمظالمه، حتى ليتحدث على مبارك باشا [١٢٣٩ - ١٣١١هـ = ١٨٢٣- ١٨٩٣م] عن ذلك فى [الخطط] فيقول: «لقد أهمل أمر المدارس، وامتدت أيدى الأطماع إلى أوقافها، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا فى مفارقتها. وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها، لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد، حتى انقطع التدريس فيها بالكلية، وبيعت كتبها وانتهبت، ثم أخذت تتشعث وتتخرب.. فامتدت أيدى الظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها، حتى صار بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة.. زريبة أو حوشا، أو غير ذلك. ولله عاقبة الأمور»[3]؟!

---

(١) أمين سامى باشا [تقويم النيل] ج٢ ص٦٠٧ - طبعة القاهرة سنة ١٩١٦م.

(٢) المصدر السابق، ج٢ ص٧.

(٣) على مبارك [الأعمال الكاملة] ج٣ ص٤٠٦، ٤٠٧ - دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

■ ولقد انعكس «الفقر المادى والفكرى»، الذى ميز الحقبة العثمانية، على الأزهر، فزادت غربته عن العلوم التى أبدعها السلف، والتى تأسست عليها صفحة ازدهار حضارتنا، ووقف التدريس فيه عند الكتب التى ألفها «علماء» العصر «المملوكى- العثمانى»، وهو العصر الذى توقف فيه الإبداع وأغلق فيه باب الاجتهاد.. بل واقتصر التدريس، غالبًا، على علوم الوسائل والأدوات.. حتى لقد غدت علوم وفنون مثل: المنطق والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، غريبة، يرتاب فيها الكثير من الشيوخ، ويخشون ضررها على الإسلام!

وفى الحوار الذى يحكيه المؤرخ الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ = ١٧٥٤- ١٨٢٢م] والذى دار بين الوالى التركى أحمد باشا - [كور وزير] - وبين شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى [١٠٩٢- ١١٧٠هـ = ١٦٨١ - ١٧٥٧م] تجسيد للحال الفكرية التى بلغها الأزهر [١١٦٢هـ - ١٧٤٩م] أى قبل نصف قرن من حملة بونابرت وبدء هجمة التغريب:

«الوالى التركى: المسموع عندنا بالديار الرومية- [التركية]- أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت فى غاية الشوق إلى المجيء إليها، فلما جئتها وجدتها- كما قيل -: «تسمع بالمعيدى خير من أن تراه»!

شيخ الأزهر: هى يا مولانا، كما سمعتم، معدن العلوم والمعارف.

الوالي: وأين هي؟! وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئا، وغاية تحصيلكم: الفقه، والمعقول، والوسائل، ونبذتم المقاصد!

شيخ الأزهر.. غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلابقدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث.

الوالي: وعلم الوقت كذلك من العلوم الشريفة، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم والأهلة، وغير ذلك.

شيخ الأزهر: نعم.. معرفة ذلك من فروض الكفاية.. وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية، كرقة الطبيعة، وحسن الوضع، والخط، والرسم والتشكيل، والأمور العطاردية. وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك!»[1].

هكذا صنعت الحقبة العثمانية بالأزهر.. قلصت مجاله المادى، بتدهور المدارس التى مثلت هذا المجال، وأصابته بالفقر الفكرى، الذى كان سمة لهذه الحقبة فى كل المجالات وجميع الولايات.. وهكذا جاءت الهجمة التغريبية القوية لتجد الأزهر أشبه ما يكون بالفارس الذى يحمل سلاحًا تراكم عليه الصدأ وعلاه الغبار!.

---

(١) الجبرتى [عجائب الآثار] ج٢ ص٨٢ - ٨٥ - طبعة لجنة البيان العربى - القاهرة سنة ١٩٥٩م.

لكن الأزهر - مع ذلك - لم يستسلم، وما كان بالإمكان أن يستسلم لتيار التغريب.. لقد حصن موقعه، فنجا، لأكثر من قرن ونصف، من تأثيرات التغريب، ومثل وسط المجتمع الذى مال إلى التغريب الاستثناء الداعى إلى أن تعود الأمة إلى ذاتها وهويتها الحضارية المتميزة، والتى بدونها لن يتحقق لها الاستقلال الحقيقى عن التبعية للاستعمار!

والأمر الذى يثير الدهشة والإعجاب معًا أن الأزهر فى معركته هذه التى قاوم بها التغريب قد استخدم كل أسلحته، السلبى منها والإيجابى على حد سواء!

المقاومة بـ «المحافظة»:

فى صراع أمتنا ضد التحديات التى فرضها عليها الأعداء تجارب تعز على الفهم والتبرير من قبل الذين لا يفقهون الحدة والعنف والمخاطر التى مثلتها هذه التحديات.. ففى الجزائر، مثلاً، وعندما مارس الاستعمار الفرنسى قهر الشخصية القومية للشعب الجزائرى ومسخ الهوية الحضارية للأمة، بمحاولته «فرنستها»، وسلخها من العروبة وانتزاعها من الإسلام الحق.. حارب الجزائريون دفاعًا عن ذاتهم الحضارية وهويتهم القومية بكل ما أتاحت لهم ظروفهم الصعبة من أسلحة وإمكانيات.. **وعندما أصبح «التعليم» يعنى «الفرنسة»، والانسلاخ عن الهوية المتميزة عن المستعمرين، أصبحت «الأمية» سلاحًا احتمى به العامة واعتصم به الجمهور ضد الذوبان فى حضارة الاستعمار! فالذين ظلوا على «أميتهم» ظلوا عربًا مسلمين، حتى قيض الله**

للشعب قيادته العربية المسلمة المناضلة، ممثلة فى [جمعية العلماء المسلمين] بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥- ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] فخاضوا المعركة المقدسة التى أعادت الجزائر إلى أحضان العروبة والإسلام!

وفى صراع أمتنا ضد التغريب صنع القطاع الأكبر من علماء الأزهر شيئًا شبيهًا.. ففى مواجهة الفكرية التى لا تعترف بغير «العقل» -بمفهومه اليونانى- والتى تتبنى نهج الحضارة اليونانية، التى لم تعرف عقلانيتها الوحى والنصوص والمأثورات، تحصن جمهور علماء الأزهر - والأزهر كمؤسسة تعليمية- «بالنقل والنصوص والمأثورات»!

وكانت الحضارة الغازية قد أدهشت «الصفوة» وبهرت «النخبة»، ورجحت كفتها كل الرجحان عندما عقدت المقارنة بينها وبين الفكرية التى سادت فى العصر «المملوكى- العثمانى».. ورفضًا لهذه الحضارة الغازية استمسك الأزهر كمؤسسة والجمهور الأعظم من علمائه بهذه الفكرية التى سادت فى تلك القرون!.. لقد اعتصموا «بالقديم»، على علاته، خوفًا من «الجديد - الغريب»، وانطووا على «الذات»، بما حملت من أمراض، حذرًا من أن يقتلعها «الجديد الوافد»!

ولقد كان لهذا الموقف «المحافظ» على القديم، بل والمتسم «بالجمود» فى محافظته هذه، منطقه الذى أفرزته ظروف الصراع.. فالمحافظة على «الذات»، بما فيها من سلبيات، خير من فقدانها بالكلية.. وبقاء «القديم»، على علاته، أولى من سيادة «الجديد التغريبى» الذى يهدد بسحق الشخصية القومية

والـهـويـة الحضـاريـة لـلأمـة.. وفـي الحالـة الأولى- المحافظة والجمود - تبقى «الذات»، وتبقى إمكانية تجديدها وتطويرها.. أما في الحالة الثانية- التغريب- فإن الخطر يحدق بمستقبل الأمة الحضاري، ويهدد ذاتيتها بالذوبان!

كان ذلك منطق أهل «المحافظة» على القديم، والاعتصام بهذه المحافظة إلى حد «الجمود»، وكان ذلك موقفهم تجاه طوفان «التغريب».. وهو منطق وموقف لا يخلو من الوجاهة، ولا تنعدم منه الإيجابيات، خاصة إذا رأيناه في إطار عصره، وعلى ضوء الخطر الذي تصدى له، آخذين في الاعتبار المقارنة بين أهله، الذين ظل انتماؤهم للأمة واضحًا وأصيلاً، وبين الذين تغربوا، فأصبحوا - كما قال جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م]- : «منافذ لتطرق الأعداء.. وطلائع لجيوش الغالبين، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم!»[(١)].

والمقاومة بـ «التجديد»:

لكن بعضًا من نابهي علماء الأزهر رفضوا موقف الجمهور، ورأوا المخاطر الكامنة في مقاومة التغريب بالمحافظة والجمود، فشرعوا ينبهون قومهم إلى ضرورة «التجديد»، باعتباره الطريق الأكثر أمنًا والسبيل الأفعل في الحفاظ على ذاتية الأمة الحضارية والنجاة بمستقبلها من الذوبان في حضارة الغزاة..

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٧- دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

لقد أبصروا أن المحافظة والجمود والانكفاء على فكرية الحقبة المملوكية العثمانية قد تضمن نجاة المحافظين من الذوبان والتغريب، لكنها لن تضمن نجاة الأمة من هذا الخطر الداهم، لأن مذهب المحافظة والجمود لا يقدم «البديل» الذى ينافس ما يقدمه المتغربون، بل إنَّ ما لدى المحافظين لا يعدو فكريةً عفا عليها الدهر، ولا علاقة لها بجوهر فكر الإسلام وإبداع المسلمين فى عصر الازدهار الحضارى.

أبصر أعلام التيار التجديدى هذه الحقيقة، وطرحوا منطقهم الجديد:

■ إنك إذا لم تجدد فقه المعاملات وتطوره، بالاجتهاد، فستدفع الناس – تحت إلحاح الضرورة، والافتقار إلى البديل– ستدفعهم لتبنى القوانين الوضعية، على ما فيها من خلاف للشريعة ومخالفة للدين!

■ وأنت إذا لم تجدد أساليب الكتابة والتعبير وتطور «العربية» كى تستوعب فكر العصر وعلومه، فإنك تفتح الباب واسعًا لدعاة الكتابة باللاتينية وتدريس العلوم بلغات «الفرنجة»، وتبنى مذاهب الغرب وأساليب أهله فى التعبير!

■ وإذا نحن لم نجدد فكرنا الإسلامى، بتخليصه من سذاجة العصور المظلمة وخرافاتها، وبإحياء العقلانية الإسلامية المتميزة وتطويرها، غلبتنا على عقول الناشئة، واستولت عليها رغمًا عنا فلسفات الغرب اللادينية!

فبالتجديد نستطيع أن نجعل من فكرنا الإسلامى المنطلق والمصدر والمكون الأول لنمط حضارى متميز، نتقدم به إلى الأمة باعتباره السبيل لنهضتها الحديثة وبعثها القومى الجديد، وبذلك يتقدم الأزهر - باسم الإسلام والمسلمين- بالبديل المنافس، عن جدارة وباقتدار، لفكرية التغريب التى تبشر بحضارة الغرب سبيلاً أوحد للنهضة والتقدم.. أما المحافظة والجمود، فإنهما وإن أنقذا ذوات المحافظين من التغريب، إلا أنهما- لعجزهما عن تقديم البديل الصالح والقادر على منافسة الحضارة الغربية المنتصرة- وفى المدى الطويل - يمثلان أكبر خدمة تقدم لدعاة التغريب!.. فالمحافظة والجمود سيدعان الأمة فريسة سهلة، سرعان ما تقع فى شراك المتغربين!

هكذا فكر وبشر المجددون من نابهى علماء الأزهر الشريف!.. وعلى هذا الدرب التجديدى تواصلت حلقات أعلام التجديد، أولئك الذين خالفوا وصارعوا تيار «المحافظة» وتيار «التغريب» كليهما!..

الشيخ حسن العطار: [١١٨٠- ١٢٥٠هـ = ١٧٦٦ - ١٨٣٥م]:

أما طليعة هذا التيار التجديدى فهو حسن العطار.. ذلك الشيخ الذى جاب أقاليم الدولة العثمانية، فاطلع على مواطن ضعفها، ثم اقترب من علماء الحملة الفرنسية على مصر، يعلمهم العربية ويقرأ كتبهم ويطلع على تجاربهم العلمية ويتأمل مناهجهم فى التفكير ووسائلهم فى التعبير.. ويلمس أسباب قوتهم..

وبعد أن تأمل الشيخ العطار مواطن ضعفنا وأسبابه، ومظاهر قوة الغرب وعواملها، أدرك أن انقطاع أمتنا عن علوم الحضارة

العربية الإسلامية الحقيقية، والوقوف عند علوم الوسائل والأدوات، وإهمال علوم المقاصد والغايات، هو الذى يحول بين الأمة وبين امتلاك سلطان العلم، ذلك الذى امتلكته أوربا فتسلحت به وجاءت لتستعبد بقوته وجبروته أمة الإسلام!.. فالتصدى لأوربا لن يكون بالمحافظة والجمود، وإنما بالتجديد والتغيير.. ومن هنا كانت صيحة العطار: «إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها»!

لقد قرأ الرجل فى العلوم والفنون، التى كان معاصروه يرونها غريبة عن الأزهر، بل وخطرة على الدين.. ووجه طلابه إلى دراسة هذه العلوم[1].. ثم شرع يحدث شيوخ عصره عن أصالة هذه العلوم فى حضارتنا وتراثنا، وعن إخائها لعلوم الشريعة، فقال: «إن من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا – مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية – لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التى ألفت فيها، حتى كتب المخالفين فى العقائد.. ثم هم – مع ذلك– ما أخلوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات!..».

ثم يمضى العطار ليقارن بين حال هذا السلف الصالح وبين حال الخلف غير الصالح، فى عصره، أولئك الذين وقفوا عند «النقل»، وعجزوا عن «التجديد والإبداع والاجتهاد»، وكان

---

(١) انظر [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج١ ص ٥٣٦ – دراسة وتحقيق د. محمد عمارة – طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م – ومحمد عبد الغنى حسن [حسن العطار] ص ٤٢، ٤٣، ٧٠، ٧٥ – طبعة دار المعارف – سلسلة نوابغ الفكر العربى – القاهرة سنة ١٩٦٨م

وقوفهم عند مؤلفات عصور الانحطاط دون عصور الازدهار والإبداع.. فيقول: «ومن نظر فى ذلك، وفيما انتهى إليه الحال فى زمان وقعنا فيه علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم؟!!

فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئا من عندنا، وقد اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم، تكررها طول عمرنا، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر فى غيرها، حتى كأن العلم فيها!..»[1].

وفيما يتعلق بتجديد سبل التعبير، تخفف العطار من السجع والمحسنات اللفظية.. وأدخل «فن الكتابة» فى دروسه بالأزهر، ولفت أنظار طلابه إلى الأمهات فى فن الشعر العربى - كالأغانى للأصفهانى - وسلك فى تحقيق النصوص القديمة منهجًا علميًا فى توثيق هذه النصوص وتقويم مادتها.. ووجه النابهين من تلاميذه الشيوخ إلى تدريس الأشعار والأخبار، وما يطور ويجدد وسائل البيان[2].

ولقد انعكس هذا النهج التجديدى للشيخ العطار فى الميادين التى اهتم بالكتابة والتأليف فيها، فوجدنا له فى الحكمة والمنطق والكلام والعلوم البحتة، مثل الهندسة والطب والتشريح والفلك نحوًا من ثلاثة عشر كتابًا[3]!

(١) انظر [حاشية العطار على جمع الجوامع] ج٢، ص٢٢٥ ، ٢٢٦ - طبعة القاهرة سنة ١٣١٦هـ.

(٢) [حسن العطار] ص٦٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٠ المرجع السابق ص ٨٤ ، ٨٥ - وانظر كذلك الفيكونت فيليب دى طرازى.

(٣) [تاريخ الصحافة العربية] ج١ ص١٢٩ - طبعة بيروت سنة ١٩١٣م.

الشيخ رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م]:

وثانى أبرز هؤلاء المجددين، هو الشيخ رفاعة، تلميذ الشيخ العطار!

لقد تخرج الطهطاوى فى الأزهر سنة ١٨٢٢م، واشتغل بالتدريس فيه عامين، وبالوعظ فى الجيش عامين.. ثم سافر إلى باريس خمس سنوات ليؤم طلاب البعثة العلمية فى أمور الدين.. لكنه تعلم هناك الفرنسية وعلومها، ورصد مشاهداته بين ظهرانى أهلها.. فلما عاد إلى الوطن سنة ١٨٣١م أصبح إمامًا للحركة الفكرية وللعملية التعليمية على حد سواء!

والبعض يتوهم - من فرط إعجاب الطهطاوى بعلوم الحضارة الأوربية- أن الرجل كان الطليعة لدعوة «التغريب»، على حين نراه واحدًا من أبرز دعاة التجديد لحضارتنا العربية الإسلامية!

■ لقد وعى الطهطاوى تراث أمته، وعرف أن العلماء فى تراثنا الحضارى لم يكونوا هم الفقهاء فقط.. ولقد وجد ذلك فى باريس.. فلما وجد الأزهر قد خاصم علوم الحضارة، ووقف عند علوم الشريعة، انتقد هذا الواقع، لا من منطلق «المتغرب» وبمنطقه، وإنما من منطلق من يضرب المثل ويستمد العظة والعبرة من نهج معاصر بهرت ثمراته معاصريه!.. قال الطهطاوى لقارئه: «.. ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس.. فاسم العلماء يطلق على من له معرفة فى العلوم العقلية.. وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى

العلوم عمن عداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها، وأن الأزهر، وجامع بنى أمية بالشام، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك، كلها زاخرة بالعلوم النقلية، وبعض العلوم العقلية.. كالمنطق ونحوه من العلوم الآلية!»[1].

■ أما علوم المقاصد والغايات، والتى خاصمها الأزهر يومئذ، وأساء بها الظن، وخاصة عندما رآها متداولة بين يدى الأوربيين، فإن الطهطاوى يدعو إلى تعلمها، فهى علوم إسلامية الأصل، إنسانية الانتماء، وهى علوم «التمدن المدنى»، ولن تضار الشريعة ولا التمايز الحضارى إذا جاورت هذه العلوم علوم الشريعة فى مناهج الأزهر الشريف.. فهو يدعو طلاب الأزهر وشيوخه إلى أن يضيفوا إلى علوم الشريعة «معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية.. فهذه العلوم الحكمية العملية[2]، التى يظهر الآن أنها أجنبية، هى علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة؟!»[3].

■ بل إن الطهطاوى – وهو الذى نهض بالمسئوليات الرائدة فى «التعليم المدنى» على عهدى محمد على باشا [١١٨٤ – ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ – ١٨٤٩م] والخديوى إسماعيل

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج٢ ص١٦١.

(٢) أى المعللة بحكمة وعلة، والخاصة بالتطبيقات.. ويقابلها علوم الدين، المأخوذة من الوحى، والتى نتعبد بها، نظرًا وتطبيقًا.

(٣) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج١ ص٥٣٤.

[١٢٤٥ - ١٣١٢هـ = ١٨٣٠ - ١٨٩٥م] - يحدثنا عن أن امتزاج علوم الحضارة بعلوم الشريعة فى الأزهر هو وحده الكفيل بتحقيق الآمال!.. «فمدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط بجماعة الأزهر، التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة، معرفة سائر المعارف البشرية!»[١].

واليوم.. وبعد نحو قرنين من كتابة الطهطاوى لكلماته هذه، نتساءل: ترى لو وضعت أفكار الرجل فى التطبيق، أكان هناك مجال لما حدث من ازدواجية فى مؤسسات التعليم، أتاحت للتغريب نصيب الأسد فى هذه المؤسسات؟!

■ وعندما استجابت الدولة لتأثيرات التغريب الاستعمارية، ولم يسعفها تيار المحافظة بالاجتهاد الفقهى الذى يجعل الشريعة تلبى احتياجات العصر، فطلبت من الطهطاوى أن يترجم القانون الفرنسى.. من باب العلم بالفكر القانونى الأوربى، أولاً.. ثم تصاعد النفوذ التغريبى فجعل هذا القانون الفرنسى شريعة للمحاكم المختلطة!.. كتب الرجل ليذكر قومه بتراثهم الإسلامى فى فقه المعاملات، وليدعو إلى تطويره بالاجتهاد كى يلبى احتياجات العصر، فلا تقع مؤسستنا القانونية والقضائية فى أسر التغريب.. كتب يقول: «.. والمعاملات الفقهية، لو انتظمت، وجرى عليها العمل، لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحال، مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٥٣٣.

الأمور المستيقظين!.. ذلك أن من أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابًا مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك..»[1].

■ وكما كان الطهطاوى صريحًا فى دعوته للاستفادة من «التمدن المدنى العملى» فى الحضارة الأوروبية، فلقد كان صريحًا كذلك فى دعوته للحفاظ على تمايزنا «الفكرى والثقافى».. فالطابع المادى فى الحضارة الأوربية، والذى جعل عقلانيتها منكرة للوحى والشرع، جانب خطر، يرفضه الطهطاوى، ويحذر من الوقوع فى شراكه وحبائله.. وهو يحكى كيف أن للأوربيين فى العلوم الفلسفية «حشوات ضلالية»، مخالفة لسائر الكتب السماوية، ويقيمون عليها أدلة يعسر على الإنسان ردها!.. إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من البدع.. وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع![2].

«فالعقل» الذى يتحفظ الطهطاوى، هنا، على تحسينه أو تقبيحه للأشياء- ما لم يؤيد الشرع حسنها أو قبحها- هو «العقل» فى الحضارة الأوربية، المنكر «للنقل»، والذى لا يقيم من «الوحى» إطارًا يتحرك فيه.. أما «العقل» فى حضارتنا، ذلك الذى زامل

(١) المصدر السابق، ج١ ص٣٦٩.
(٢) المصدر السابق، ج١ ص ١١٤، ١١٥.

«النقل» وتآخى معه فى الهداية للإنسان، بالتوازن الذى أثمره إخاؤهما، فهو مما تتميز به حضارتنا وتمتاز. ولسنا مدعوين من قبل الطهطاوى، والنهضة التى كان علمًا عليها، إلى التخلى عن هذا الذى يميزنا حضاريًا عن الأوربيين!

الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩- ١٩٠٥م]:

أما الإمام محمد عبده فلقد كان أبرز أعلام هذا التيار التجديدى، وأعظم من تكونت للتجديد من حوله مدرسة فى تاريخنا الحديث.. لقد نضج عقل الإمام ومصر رازحة تحت الاحتلال الإنجليزى.. ومن آفات الهزيمة تقليد المهزومين للمنتصر تقليدًا أعمى، وأكثره ما يكون فى الشكليات والسلبيات!.. الأمر الذى زاد من مخاطر التغريب.. وعلى الجانب الآخر بدا عجز المحافظة والجمود فى الصراع ضد المتغربين، خصوصًا مع تزكية السلطة الاستعمارية لتيار التغريب.. وأمام هذا الاستقطاب الذى جعل الأمة فريقين، المتغربين، وأهل الجمود، أعلن الأستاذ الإمام رفضه لكلا الموقفين، وبشر بالموقف الثالث الداعى إلى تجديد «دنيا» الأمة عن طريق تجديد «دينها»، بتنقية أصوله وجواهره من غبار عصور الانحطاط!.. ولقد حدثنا عن هذا الموقف الثالث، الداعى لتحرير العقل الإسلامى كى ينهض بأمته ويبعث حاضرها ويبنى مستقبلها، انطلاقًا من الأصول وعصور الازدهار، وبالتجاوز لمرحلة الجمود والانحطاط.. حدثنا عن هذا الموقف فقال: «لقد نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر، ودخلت فيما فيه يدخلون،

ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت إليه، وارتفع صوتى بالدعوة إلى:

١- تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى.. فهو صديق للعلم، باعث على البحث فى أسرار الكون، يدعو إلى احترام الحقائق الثابتة، ويطالب بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل.

٢- إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير..

٣- التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة..

ولقد خالفت فى الدعوة إلى ذلك رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون العصر ومن هو فى ناحيتهم!»[1].

وعلى حين كان تيار «المحافظة» يرفض التجديد والتغيير فى علوم الأزهر وطرائق التدريس فيه.. وتيار التغريب يدعو لأن نبدأ من حيث انتهت أوربا، لنصبح أوربيين، نفكر كما يفكرون ونحيا

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٢ ص ٣١٨ , ٣١٩ - دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

كما يحيون.. دعا الأستاذ الإمام إلى الموقف الثالث، الرافض لدعوتى الجمود والتغريب على حد سواء..

■ فهو ينتقد مناهج التعليم فى المدارس الأميرية.. وفى المدارس الأجنبية.. وأيضًا ينتقد مناهج الأزهر الشريف![1]..

■ وهو قد علق الآمال فى الإصلاح على تجديد المؤسسات الدينية الكبرى الثلاث: الأزهر، والقضاء الشرعى، والأوقاف.. وتحدث عن أن إصلاح الأزهر وتجديده هو طوق النجاة له من الخراب![2]..

■ وانتقد «التقليد»، وهاجم «سلفية البداوة النصوصية»، ومجد العقلانية الإسلامية التى جعلت للعقل أعظم السلطان حتى فى ميدان النصوص والمأثورات.. فالذين «يقفون عند ما يفهم من لفظ الوارد، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين.. هم أضيق أفقًا من المقلدين، وليسوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء»[3]. «والعقل هو جوهر إنسانية الإنسان.. وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة..»[4]. «والقرآن - وهو وحده المعجز الخارق- قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم... فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها.. فالإسلام لا

---

(١) المصدر السابق، ج٣ ص١١٠ - ١١٢.

(٢) المصدر السابق، ج٣ ص ١٧٧.

(٣) المصدر السابق، ج٣ ص ٢١٤.

(٤) المصدر السابق، ج٥ ص٤٢٨، ج٣ ص٢٨٩.

يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى.. والمرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به.. فمن ربى على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحًا، بغير فقه، فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير، كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته فى دينه ودنياه!»[1]. وليس هناك أدنى خلاف بين الدين والعلم، فقوانين الكون - التى هى موضوع البحث العلمى - هى «سنن الله فى الأمم والأكوان.. وهى ثابتة لا تتبدل.. ومهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه!»[2]..

■ وإذا كان تيار «المحافظة»، الجامد عند فكرية العصر «المملوكى - العثمانى» قد عجز عن تقديم البديل الذى تنهض به الأمة.. على حين يدعو تيار «التغريب» لأن نبدأ من حيث انتهت أوربا.. فإن الأستاذ الإمام يدعو إلى تأسيس «النهضة» على «الدين» «فهذه سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء،

(١) المصدر السابق، ج٣ ص ١٥١، ٢٧٩ - ٢٨١.
(٢) المصدر السابق، ج٣ ص٥٠٢، ٢٨٤.

ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا. وإذا كان الدين كافلاً تهذيبَ الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!!»[1].

وتأسيس النهضة على الدين لا يعنى الوقوف عند حدود علوم الشريعة، لأن كل العلوم الأخرى هى إسلامية بمقدار ضرورتها لأنها من أمة الإسلام وتحريرها وتطوير حياتها وتعمير مجتمعاتها.. فالنهضة الإسلامية، وسباق الأوربيين وسبقهم يتطلب من ولاة أمور المسلمين تجديد الدين والدنيا معًا ».. ولو رزق الله المسلمين حاكمًا يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا، والقرآن الكريم فى إحدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم. ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم!»[2]..

* * *

تلك لمحات من قصة الأزهر مع «التغريب»، الذى كان ولا يزال الخطر الأكبر الذى تهدد ويتهدد أمتنا، منذ بدء الغزوة الاستعمارية الحديثة، قبل قرنين من الزمان..

إنها صفحة مشرقة فى تاريخ الأزهر، يزهو بها على المؤسسات التى سقطت – كليًا أو جزئيًا– فى براثن التغريب..

---

(١) المصدر السابق، ج٣ ص٢٣١ .

(٢) المصدر السابق، ج٣ ص٢٥١ ، ٢٥٢ .

فلقد كان للأزهر فى هذا الميدان شرف الرفض والمقاومة، شارك فى ذلك «المحافظون» من أبنائه «والمجددون»!

وإذا كانت قصة الصراع بين الأزهر وبين التغريب.. والتى هى، فى الحقيقة، قصة صراع حضارتنا المتميزة بالوسطية - والتى وازنت بين «الدين» و«الدنيا» بين «الحكمة» و«الشريعة» بين «العقل» و«النقل»، بين «المادية» و«الإيمان»، بين «الفرد» و«المجموع»، بين «السلم» و«الحرب»، بين «الشك» و«اليقين» - هى قصة صراع حضارتنا هذه ضد حضارة المادة والعنف والنفعية وتنازع البقاء!.. إذا كانت هذه القصة مليئة بالدروس والعبر والعظات الصالحة للاستلهام، فإن أولى المؤسسات باستلهام دروسها وعبرها وعظاتها هو الأزهر الشريف.. فكثيرون يريدون أن تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصاب الأزهر من «تطوير» لن يوقعه فى شرك «التغريب»، الذى تفرد بشرف مقاومته والاستعصاء عليه لأكثر من قرن ونصف من الزمان!

فإذا كان «التجديد» واردا ومطلوبا.. فهو، بالقطع، غير «التغريب».. وشتان بين صقل الذات، بتجديد الأصول وتطويرها، وبين مسخ الذات، عندما تتجاوز الثوابت والمميزات!

وبعد..

فلا نحسب أن ثمة شكًا فى أن أمة مثل أمتنا لم يعد كافيًا لها، وهى تخوض معركة تحررها من بقايا الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة.. لم يعد كافيًا لها، ولا محققًا لأهدافها.. أن تقف عند حدود..

■ «الاستقلال السياسى».. وما يرمز له من «علَم» و«نشيد»!..

■ «والاستقلال الاقتصادى».. وخاصة إذا كان يعنى: «التنمية على النمط الغربى، والمرتبطة به».. لأنها ستكون، عندئذ، «تنمية للتبعية»، تفقد شبهها بالاستقلال، بل وتناقض المعنى الحقيقى للاستقلال!..

ولا بد من أن تضيف أمتنا إلى شعاراتها، المعبرة عن أهداف معركتها ضد الاستعمار، شعار:

■ الاستقلال الحضارى».. لأنه هو الذى يعطى لشعارى: «الاستقلال السياسى» و«الاستقلال الاقتصادى» مضمونهما الحقيقى والصادق.. والمحقق لما وراء تحقيقهما من غايات وأهداف!.. كما أنه هو الضامن لرسوخ الاستقلال الوطنى والقومى فى وجه محاولات التسلل والاحتواء التى تعددت سبلها

وخفيت أساليبها على الذين لا يجعلون من شعار «الاستقلال الحضارى» الإطار والمعيار لكل الشعارات والأهداف التى تسعى الأمة لتحقيقها فى معركتها ضد الاستعمار!..

* * *

وعلينا أن نتذكر، ونعى دروس التاريخ.. تاريخ صراع منطقتنا وأمتنا ضد موجات الغزو الاستعمارى التى اقتحمت علينا ديارنا عبر تاريخ طويل..

■ فعندما فتح العرب مصر، بقيادة عمرو بن العاص [٥٠ق. هـ -٤٣هـ = ٥٧٤- ٦٦٤م] لم تكن هزيمة الجيش البيزنطى وجلاء حامياته عن مصر بكافية لتحقيق «الاستقلال الحقيقى» لمصر عن البيزنطيين.. لأن مذهبهم الدينى - الملكانى - كان قد «احتل» مؤسسات الفكر والدين فى البلاد، واقتلع مذهب الشعب المعبر عن فكريته و«أيديولوجيته» - المذهب اليعقوبى - وطارده إلى الصحراء!.. ومن هنا كانت إعادة عمرو بن العاص للبطرك القبطى بنيامين [٣٩هـ -٦٥٩م] إلى مركز التوجيه الفكرى، وإعادة كنائس مصر ومؤسساتها الفكرية إلى دينها ومذهبها وفكريتها.. كان هذا الإنجاز والتحول الفكرى والحضارى هو المجسد والمعبر عن أن مصر قد تحررت، حقيقة، من احتلال البيزنطيين!..

■ وعندما انتصرت أمتنا على فلول فرسان الإقطاع الصليبيين [٦٩٠ هـ - ١٢٩١م] لم تواجه بموقف مماثل.. فلقد

كانت الغزوة الصليبية هجمة برابرة لا يملكون سوى العنف والدمار.. ومن ثم فلم يخلفوا -عندما جلت جيوشهم عن بلادنا- أية تأثيرات فكرية يمكن أن تمثل قيودًا تشد عقل أمتنا إلى ركابهم، فتنتقص من حقيقة الاستقلال الذى تحقق بهذا الجلاء!..

■ أما مع الغزوة الاستعمارية الحديثة، والتى تعالج أمتنا معارك التخلص من آثارها.. فإن الأمر أكثر خطرًا، وأشد تعقيدًا.. فلقد جاءت هذه الغزوة بحضارة منتصرة، انتزع بريقها إعجاب فريق من صفوة مفكرينا، واستهوى «أسلوب عيشها» قلوب قطاع عريض من أمتنا.. فكان أن أصبح «التغريب» جيشًا استعماريًا آخر لا بد من صراعه إذا نحن شئنا تحقيق المعنى الكامل للاستقلال!..

ففى «العقل».. وفى «الوجدان».. وفى «المؤسسات الفكرية والتعليمية والقانونية».. وفى «النادى، والصحيفة، والكتاب، والإذاعات المسموعة والمرئية، ودور المسرح والسينما.. إلخ.. إلخ..» هناك مهام ومهام للذين يدركون أن استقلالنا الحقيقى، وتحررنا الكامل من جميع الآثار الضارة للغزوة الاستعمارية الحديثة لن يتحقق إلا باستقلالنا الحضارى، الذى تعود به أمتنا العربية الإسلامية لتحتل مكانها الطبيعى واللائق فى منتدى الأمم العريقة، صاحبة الحضارات الغنية والمتميزة.. ومن ثم تسهم فى ثراء الفكر الإنسانى من جديد.. مواصلة بذلك مسيرة أسلافها العظام..

وبقدر عظم المهمة.. يجب تحقيق أكبر قدر من وضوح الرؤية «للغايات».. «وللوسائل والسبل» الكافلة تحقيق هذه «الغايات»..

إن فتح النوافذ العقلية على كل المواريث الحضارية هو السبيل إلى تلافى مخاطر الذبول والموات..

وان التمييز بين ما هو «ضرورى - نافع» فى دعم ذاتيتنا الحضارية المتميزة ومشروعنا الحضارى الخاص، وبين ما هو «ضار» ماسخ لذاتيتنا ومشوه لتميزنا وناسخ لاستقلالنا.. إن هذا التمييز هو القضية الأعقد، وهو الجهاد الأكبر فى ميدان التفاعل بين حضارتنا وغيرها من الحضارات..

فما أسهل أن ينحاز البعض إلى قوقعة العزلة والانغلاق.. وما أسهل أن ينخرط البعض فى موكب التبعية الفكرية الذليل..

ومن هنا كان «التجديد» للموروث.. و«التطوير» للخصوصية.. ودعمهما بعوامل القوة التى أثمرتها إبداعات الحضارات الأخرى.. هو الميدان الحقيقي للجهاد الأكبر الذي وجب ويجب على كل قادر على الإسهام فى هذا الجهاد بنصيب.. قل أو جل هذا النصيب!

ولنتذكر دائمًا أن «التجديد»، من خلال مشروع حضارى متميز، هو السبيل إلى النهضة والقوة.. على حين كان ولا يزال «التحديث على النمط الغربى»- وهو فى جوهرة «تبعية»- السبيل إلى بقائنا هامشًا ملحقًا بـ «مركز التحدى» الغربى!..

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص٣٢٧ ، ٣٢٨ .

فلنتأمل -ونحن نختم هذه الصفحات عن [الاستقلال الحضارى] - كلمات الرجل الذى ارتاد لفكرنا ونضالنا هذا الطريق فى عصرنا الحديث.. كلمات جمال الدين الأفغانى التى تقول:

«إن نهوضنا وتمدننا إذا لم يؤسس على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه.. ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق.. وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرقى والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط: لأننا فى تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية. وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب، والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام، التى من شأنها رفع راية السلطة والغلب، إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبى»![1].

المصـــــادر

- ابن أبى الحديد: [شرح نهج البلاغة] تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.
- ابن باديس: [كتاب آثار ابن باديس] طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م.
- ابن رشد (أبو الوليد): [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م.
- ابن عبد الوهاب: [رسالة هدية طيبة].
[رسالة هذه مسائل الجاهلية]
منشورة ضمن [مجموعة التوحيد] طبعة المكتبة السلفية-القاهرة.
- ابن القيم: [إعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.
- أحمد صدقى الدجانى (دكتور): [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.
- أمين سامى باشا: [تقويم النيل] طبعة القاهرة سن ١٩١٦م.
- الجبرتى: [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.
- جمال الدين الأفغانى: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة- طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م - وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.
- حسن العطار: [حاشية العطار على جمع الجوامع] طبعة القاهرة سنة ١٣١٦هـ.
- صفى الدين البغدادي: [مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع] تحقيق: على البيجاوى - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.
- الطهطاوى (رفاعة رافع): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.
- عبد الكريم الخطيب: [الدعوة الوهابية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م.
- على سامى النشار (دكتور): [مناهج البحث عند مفكرى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.
- على مبارك: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

- عمر طوسون: [البعثات العلمية فى عهد محمد على، ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد] طبعة الإسكندرية سنة ١٩٣٤م.
- الغزالى (أبو حامد): [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة القاهرة - صبيح - بدون تاريخ.
- فيليب دى طرازى: [تاريخ الصحافة العربية] طبعة بيروت سنة ١٩١٣م.
- الكواكبى (عبد الرحمن): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٥.
- لو ثروب ستودارد: [حاضر العالم الإسلامى] ترجمة: عجاج نويهض - تعليقات: شكيب أرسلان- طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.
- محمد عبده (الإمام): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.
- محمد عبد الغنى حسن: [حسن العطار] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
- محمد عمارة (دكتور) : [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠م.
  [الإسلام والعروبة والعلمانية] طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.
  [مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.
  [العروبة فى العصر الحديث] طبعة بيروت سنة ١٩٨١م.
  [تيارات الفكر الإسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢م.
- محمد فؤاد عبد الباقى: [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب - القاهرة.
- المهدى (محمد أحمد) : [منشورات المهدية] تحقيق: د. محمد إبراهيم أبو سليم - طبعة بيروت سنة ١٩٦٩.
- هانوتو (جابرييل) : [الإسلام والرد على منتقديه] مجموعة أبحاث - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.
- ونسنك (أ . ى): [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩م.

الفهرس

أحدث إصــــدارات

الأستاذ الدكتور
محمد عمـارة

ضمن سلسلة (فى التنوير الإسلامى)

١ - الصحوة الإسلامية فى عيون غربية.
٢ - الغرب والإسلام.
٣ - أبو حيان التوحيدى.
٤ - ابن رشد بين الغرب والإسلام.
٥ - الانتماء الثقافى.
٦ - التعددية.. الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية.
٧ - صراع القيم بين الغرب والإسلام.
٨ - د. يوسف القرضاوى: المدرسة الفكرية والمشروع الفكرى.
٩ - عندما دخلت مصر فى دين الله.
١٠ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية.
١١ - المنهاج العقلى.
١٢ - النموذج الثقافى.
١٣ - تجديد الدنيا بتجديد الدين.
١٤ - الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة.
١٥ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم
١٦ - التقدم والإصلاح بالتنوير الغربى أم بالتجديد الإسلامى ؟
١٧ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين.
١٨ - الحضارات العالمية تدافع؟.. أم صراع؟
١٩ - الحملة الفرنسية فى الميزان.
٢٠ - الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة؟ أم تفتيت واختراق؟
٢١ - مخاطر العولمة على الهوية الثقافية.
٢٢ - الغناء والموسيقى حلال أم حرام ؟
٢٣ - هل المسلمون أمة واحدة ؟
٢٤ - السنة والبدعة.
٢٥ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان.
٢٦ - تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة.
٢٧ - القدس بين اليهودية والإسلام.
٢٨ - مأزق المسيحية والعلمانية فى أوربا (شهادة ألمانية).
٢٩ - السنة النبوية والمعرفة الإنسانية.
٣٠ - الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين.
٣١ - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية.
٣٢ - السنة التشريعية وغير التشريعية.
٣٣ - شبهات حول الإسلام.
٣٤ - المستقبل الاجتماعى للأمة الإسلامية.
٣٥ - شبهات حول القرآن الكريم.
٣٦ - أزمة العقل العربى.
٣٧ - فى التحرير الإسلامى للمرأة.
٣٨ - روح الحضارة الإسلامية.
٣٩ - الغرب والإسلام افتراءات لها تاريخ.
٤٠ - السماحة الإسلامية.
٤١ - الشيخ عبد الرحمن الكواكبى هل كان علمانيًا؟!
٤٢ - أزمة الفكر الإسلامى المعاصر
٤٣ - إسلامية المعرفة ماذا تعنى؟
٤٤ - الإسلام وضرورة التغيير
٤٥ - النص الإسلامى بين التاريخيـــة. والاجتهاد. والجمود.



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

الاستقلال الحضارى

- يعالج هذا الكتاب قضية محورية، من خلال دراسات ثلاث، تمثل أقسامًا ثلاثة فى هذا الكتاب:

١– الاستقلال الحضارى.. وماذا يعنى فى النهضة المنشودة لأمتنا.

٢– والعلاقة بين «موروثنا» العربى الإسلامى و «الوافد الغربى».

٣– ونموذج تطبيقى لهذه العلاقة، من خلال دراسة موقف واحدة من أعرق مؤسساتنا الفكرية والتعليمية – [الأزهر] –.. موقفه من «التغريب» و«الجمود» و«التجديد».

- ووصولاً إلى الإسلام فى بلورة «معالم المشروع الحضارى» الذى ينير لأمتنا طريق الخروج من مأزقها الحضارى، يناقش هذا الكتاب عددًا من القضايا الفكرية الخلافية ..والشائكة:

– معالم الهوية العربية الإسلامية.. وموقعها من «الثبات» و«التغيير».

– والموقف من الحضارات الأخرى.. أهو «التفاعل» .. أم «التبعية».. أم «الانغلاق»؟

- إنها «معالم للنهضة» .. و«دليل عمل» للإقلاع الحضارى .. يحاول أن يقدمهما هذا الكتاب.

الناشر



